أنا أندَلُسي

الطبعة الأولى
1441 هـ
2020 م

اسم الكتاب: أنا أندَلُسي
التأليف: فرناس راشد
المراجعة اللغوية: عبد القادر أمين
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 352 صفحة
عدد الملازم: 22 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2019/20528
الترقيم الدولي: 978-977-278-763-0

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

أنا أندَلُسي

رواية

فرناس راشد

دار البشير للثقافة والعلوم

إهداء

بكلّ مشاعر الوفاءِ والإعتزاز أهدي هذا العمل لروحِ البطلِ الأندلسيّ الشّهيد أحمد بلاس إنفانتي، الذي بذل عمرَه بمُنتهى الشّجَاعة والإقدام في سبيلِ قضيّة وطنه وعقيدته وأصلِه وتاريخه، من أجل فردوسِنا الموجود، الأندلَس العزيزة التي تحيى في قلوبنا ما حَيينا .

كما أتوجّه بكلّ معاني الشّكر والامتنان إلى أصدقائي الذينِ قدّموا لي كلّ الدّعم والمُساعدة التي بعدَ فضْل الله وتوفيقِه جعلت هذا العملَ يخرج بصورتِه المُرضيّة والمُتكاملة .

وكما قال رسولُنا ومعلّمنا ، ﷺ: «لا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النّاس» .

فوجبَ عليّ شكرُهم بالاسم؛ عرفانًا منّي بمجهودِهم، وتعاونهم الفعّال .

الأستاذة/ حبيبة القاسمي، من الجزائر .

الأستاذة/ حنان ألبينو، من تونس .

الأستاذ/ ياسين الفيلالي، من المغرب .

الأستاذ/ بسام الدّويك، من مصر .

الأستاذة/ إنجي سلامة، من مصر .

الأستاذ/ خوليو خيمينيز القرطبي *Julio Jiménez Cordobés*، من الأندلس .

الفصلُ الأوّل

إنّنا لسنا كما نظّنّ

في بلدةِ قشريش المالقيّة، على بُعد عدّة كيلومترات من ساحل الشّمس الشّهير بجنوب الأندلس، بين الحقول الشّاسعة والجبال الممتدّة الرّاسخة التي تحتضنُ البلدةَ الهادئة، داخلَ منزل متواضع ولكنّه أنيقٌ وأصيل البُنْيان، ولا يخلو من لمساتِ الجمال الأنْدلسي، اجتمع أفرادُ الأسرة حول فراشِ الجدّة، وعيونُهم جميعًا معلّقة بعينيها الباهتَتَيْن المحدقتين في سقف المنزلِ العتيق، عينين فقدَتَا كلّ بريقِهما المُعتاد، وصبغتا بلوْن الخريف الباهتِ الذي يغلّف الأشجار المُتساقطة الأوراق تلك التي تطلّ من نوافذ المنزلِ حتّى يكتملَ المشهدُ الحزين.

الكلّ في صمتٍ حزين لا يتخلّله إلّا صوتُ الدّعاء والرّجاء، أمّا الفتى بلاس المثقَلُ بالأسى فقد كان يمسك بيدِ جدّته، وعيناه تتنقّل بينها وبين أمّه *«خنيثة بريث دي بركاش»* التي لا تكفّ عن الصّلاة والبكاء في هدوءٍ حزين.

لم يشقّ هذا السّكون الكئيب إلا دقّات الباب التي أعقبَها دخول القسّ وكأنّه يعرف ما يجبُ عليه فعلُه في هذا الموقف، ألقى التّحية على الجميع فرحّب به الجدّ المَهْموم *«إيغناسيو بريث دي بركاش سلاس»*، ثمّ وقف القسّ بجوار رأس الجدّة من الجهة اليُسرى، وشرع في تلاوة الأدْعية والتّرانيم الكاثوليكيّة بالتّسلسل المعهود.

الجميعُ يتابع صلاتَه بنهم وحزنٍ عميق بما فيهم الطّفلُ الصّغير إيغناسيو، أمّا شقيقُه الأكبر بلاّس فلاحظَ أنّ عينيّ الجدّة بدأتا تميلان إلى جهةِ اليمين؛ حيث يجلسُ على قدميه بجانب السّرير، مُمسكًا بكفّيه يدَها المُستسلمة إلى سكرات الموت، ولكنّها كانت تنظرُ فوق رأسِه كأنّها ترى شيئًا في بُعدٍ آخر، لا أحد يراه سواها.

ثمّ انصرف القسّ بعدَ أنْ أدّى واجبه نحو السّيدة التي تستعدّ لتفارق الحياة.

وعاد الصّمتُ مرّة أخرى إلى الغرفة، وكأنّ الجميع يترقّب لحظة الفراق بحسرةٍ موجعة.

مالتِ الجدّة برأسها إلى بلاس، وقالت له بصوتٍ يكاد يسمعُه بصعوبة:

«اقتربْ منّي يا ولدي»

فمدّ رأسَه على الفور مقتربًا منها، وعينه الدّامعة متعلّقة بعينيها بكلّ الحبّ والخوف، فكيف لا وهي عنده منبعُ الحنان الدّائم، وأصلُ الأمومة، ومصدرُ الخير الذي لا ينفَد، فقالت له بصوتٍ حنون:

-يا بني، اعلم أنّنا لسنا كما نظُن.

ثمّ سحبت يدَها من بين كفّيه الصّغيرين، وكأنّها تستعدّ لحدثٍ جلل، وضمّت قبضةَ يدها عدا السّبابة، وعاودت النّظر إلى السقف بنظرة أعمق، وكأنّ بصرها يخترق السّقف شاخصًا إلى السّماء بتضرّع وخشوع،

ثمّ همهمتْ بكلماتٍ غير مسموعة، وابتسمت ابتسامةً ثابتة وعميقة، وبلاس والجميعُ في ترقّب للّحظةِ الحاسمة التّعيسة.

انطفأ تدريجيًّا ما بقي من وميض في عينيّ الجدّة مُعلنًا خروجَ روحها الهادئة النّقية، وانفجر الجميعُ بالبكاء والدّعاء لها بالرّحمة والمغفرة.

أمّا بلاس، فجلسَ على ركبتيه بجوار الفراش تغمرُه أحاسيس متداخلة، بين الحزن والدّهشة، فهذه أوّل مرّةٍ يجاوره الموتُ فيها، ويأخذ منه عزيزًا ليعي معنى الموت والفراق، ويسأل في غمرةِ هذا الحزن عن معنى كلمات الجدّة التي خصّته بها من دون الحاضرين.

وفي صباح اليوم التّالي، كانت تقفُ أمام منزل العائلة الذي يقع بشارع كاريرا، ويحمل الرّقم 51، عربة يجرّها فرسانٌ تابعة لكنيسة التجسّد، وهي التي اختارَها الجدّ لتشهد مراسمَ العزاء والتّكريم لرفيقة عمره، والتي تعدّ الأقدمَ في بلدة قشريش، فقد كانتْ قبل ذلك حصنًا إسلاميًّا قديماً تحوّل بعدها إلى كنيسةٍ في القرن السّادس عشر بأمرٍ من البابا خوليو الثّاني، كحال كلّ الحصون والمساجد الإسلاميّة التي سقطت بسقوط المدن الأندلسيّة.

تحرّكت العربةُ وهي مُحاطةٌ بجمعٍ من الأهل والجيران والفلاحين البُسطاء المحبّين؛ حيث كانت هذه العائلة محطّ احترام جميع سكان البلدة، فالجدّ سليلُ عائلة تزعّمت الحركات الثّورية في قشريش منذ حركتي طاهر الحرّ وتريخوا، فهي تعدّ أعرق الأسرِ وأعظمَها في تاريخ كلّ المنطقة، ممّا مكّن الجدّ من تقلّد منصب رئاسة البَلدية.

سار الحشدُ في صمتٍ جنائزيّ حزين، وبلاس مُمسكٌ بيدِ والده *«لويس ميجيل إنفانتى إندرادس»* الذي كان رجلًا مستقيمًا حَسنَ الخلق، يعيش من عائدِ أملاكه الزراعية.

مرّ الموكبُ من ساحة إسبانيا الواقعة في مركز البلدة عندَ ملتقى أزقّتها الثّمانية الرّئيسية ثمّ أخذ الطريق في الصعود التدريجي حتّى وصلوا إلى القلعة التي تتربّع على أعلى مكانٍ في المنطقة، كأنّها تتفاخر بشموخها وتاريخها الحافل على مرّ العصور؛ بل وكأنّها تتباهى بالأيادي المسلمة التي قامتْ بإخراجها للنّور في القرن الثّالث عشر الميلادي لتكون حلقة الوصل بين المضيق وجبال سيرانيا دي رندة، بيدَ أنّ أجزاء منها تعرّضت للتّخريب خلالَ الغزو الفرنسي لإسبانيا في القرن التاسع عشر الميلادي.

ودخلَ الجمعُ إلى قاعة الكنيسة الرّئيسية، وبدأت المراسمُ الجنائزيّة، والكلّ يردّد الأدعية في خشوع، وأعينُهم مُثبتة على التّابوت الخشبي في صدرِ القاعة؛ حيث يستقرّ جسد الجدّة، أمّا بلاس فكان شاردَ الذّهن تتناثرَ أمامَه صفحاتُ الذّكريات والمواقف الجميلة والأيامُ الدافئة التي عاشها منذ ولادتِه في كنفها، يحاول أنْ يتقبّل فكرة رحيلها الأبديّ، ثمّ يصل بفكره إلى آخر صفحاتِ عمرها فيتذكّر آخر ما قالته له فيختفي أيّ صوت من حوْله ليرنّ في أذنه صوت الجدّة:

– إنّنا لسنا كما نَظُن.

– ترى ماذا كانت تقْصد؟ أيوجد سرٌّ تخفيه عن الجميع، وخصّتْني أنا بفكّ طلاسمه؟ ولماذا أنا؟ هل لحبّها الشّديد لي؟ أم لأنّها رأت فيّ قدرة على تحمّل هذا العبء، وأهلًا لهذا التّكليف؟

شعرَ بلاس بالمسئوليّة رغم حداثةِ عمره، وبحتميّة التّحقق من هذه الكلمات فوْر عودته إلى المنزل.

بعد إتمام إجراءات الدّفن، عادت العائلةُ إلى المنزل، ثمّ تجمّع أفرادها في غرفةِ الاسَتقبال لمواساة بعضهم بهذا المُصاب الجلل، وليستريحوا مِن معاناةِ وجهدِ هذا النّهار الطويل.

أمّا بلاس، فاندفعَ إلى القبْو الموجود أسفلَ المنزل، وأخذ يفتّش بلهفةٍ عن صندوقِ مُقتنيات الجدّة القديم، فوجدَه وشرَعَ يزيلُ عنه الغبار، ثمّ فتحه بحرص، وعيونُه مليئةٌ بالفضول، وكأنّه أوّل مرّة يكتشفه، وهو الذي كلّفته الجدّة منذ عدّة أعوام بإنزاله إلى القبو.

– نعم تذكّرت الآن، لقد قالت لي أنْ أضعَه في مكان آمن، وأنْ أحافظ عليه مهْما كان.

ثمّ أخذ يقلّب في محتويات الصّندوق، أشياء ليست ثمينة، ولكنّها ذاتُ قيمة عاطفيّة لدى صاحبتِها، حزمةٌ من خطابات قديمة، وردٌ مجفّف، مرآة صغيرة مُحاطة بنقوش رقيقة، وفي القاع وجدَ لفافةً جلديّة مربوطة بشريطٍ من الحرير ذي لونٍ أخضر وأبيض، فكّ عقدةَ الشّريط بسرعة وبدأ بفضولٍ يمرّر بصرَه على الكلمات التي خطّت على الرقعة التي كانت مُتناهيةَ القِدَم، ومرسومٌ عليها كتابات بخطّ بديع يشبه قليلًا بعض الكتاباتِ المنحوتة في أحدِ جدران قلعة البلدة.

فأخذ يفتّش بعينه في أركان الرّقعة الجلديّة، حتّى وجدَ في طرفها ترجمة بالإسبانيّة بخطّ جدّته الذي تعوّد على قراءته، فبدأ يقرأ باهتمامٍ شديد:

«*أون النومبري دي ديوس الميسريكورديوسو*.. بسم الله الرحمن
الرحيم، ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى (١) ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣)
وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ (٦) إِلَّا مَا شَآءَ
ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ (٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ (٩)
سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى (١١) ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا
يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (١٦) وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ (١٨)
صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾.

أنهى بلاس القراءةَ، وجلس مستندًا على الحائط في انبهار يفكّر في الكلماتِ التي غمرت فضولَه بمزيج من الغموض والدّهشة والرّهبة، ثمّ نهضَ وأعاد كلّ شيء إلى مكانه، وأغلق الصّندوق، وصعد على الفور من القبْو مُمسكًا بالرّقعة التي اكتسبت قيمةً شديدة لديه، فدخل غرفته ودسّها في درجِ مكتبه الصّغير، ثمّ خرج إلى التجمّع العائلي، وإلى التّعليقات التي لا تزالَ دائرةً عن أحداث اليوم، والتي من خلالها كانوا يتذكّرون الجدّة بأجمل المواقف، ويدعون لها بالرّحمة، فجلس بلاس بجوار أمّه، ووقْعُ الكلمات مازال مستمرًّا في التدفّق بداخل عقله وفؤاده وكأنّه قد حفظ أغلب أجزائه، فحاول أنْ يخفي توتّره ودهشتَه ثمّ بدأ يطمئنُ نفسَه بأنّه سيأتي يومٌ وسيفهم مغْزى هذه الكلمات وأصلها، بل إنّه قرّر أنْ يعمل على تتبّع حقيقتها ومصدرها قدْرَ استطاعته.

مرّت أيّام الحداد، وعادت الحياةُ في منزل العائلة إلى طبيعتها..

فالأبُ عاد لإدارة أراضيه الزّراعية، والأمّ لتدبير أمور المنزل وإعادته إلى بهجته وأناقته المعْهودة، وعاد والدُها لمباشرة مسئوليات رئاسة بلدية قشريش، أمّا بلاس فتوجّه إلى بلدة أرشدونة ليستأنف دراستَه الثانوية في معهد *الآباء الإسكولبيون*.

فقد كانت تلك البلدةُ ذاتَ خصوصيّة فرضها عليها تواجدُها في بطن وادٍ مُحاط بالجبال من كلّ الجهات، منازلها الأندلسيّة البسيطة ذات الطابق أو الاثنين المطليّة باللون الأبيض المتناغم مع لون الثّلوج التي تكسو قمم الجبال، والتي تضفي على المكان صورةً من النّقاء الأبيض، والجمال الملائكي الطّاهر، تنتهي البلدةُ بربوةٍ شاهقة الارتفاع تشرف على قمّتها القصبةُ الأندلسية حيث توجد كنيسةُ عذراء الرّحمة، والتي تحتضن جدرانَ وأعمدة، بها بعضُ النّقوش الإسلامية الرّائعة الجمال التي بنيت على أطلال المسجد الجامع القديم للبلدة.

وفي المعهد، اعتاد بلاس كلّ صباح مع بدايةِ اليوم الدراسي على سماع نشيد *«سانتو ديوس، الرّب المقدّس»*، والتي كانت كلماته تبثّ الحماس والانتماء في الطّلبة للإقليم الأندلسي الذي يشمل كلّ مدنٍ وبلدات الجنوب الإسباني.

كما كان *بلاس* دائمًا ما يرصدُ خلال جولاته برفقةِ زملائه بأرشدونة حالة التّهميش التي كان يعاني منها سكّان البلدة الذي كان يطلق عليهم *المياومين «الخورناليروس»*، فكان معظمُ الشّباب يتسكّعون في الطرقات،

وحول المقاهي؛ بلا عمل، أو يتمّ استئجارهم للعمل بالأراضي الزراعية المملوكة لأثرياء الشّمال، لا يجمعهم سوى الطّوابير المذلّة لاستلام وجبة حساء «*الكيروبا*»، وهو خليطٌ من اللّحم والبطاطس الذي تقدّمه الدولة كمعونةٍ للمحتاجين من البلدات الفقيرة، وبمجرّد أن انتهى الأسبوع الدّراسي كان *بلاس* يعودُ لقضاء العطلة مع أسرته بقشريش، وتتهادى أيّام الدراسة على هذا النّمط حتّى تبدأ أوراق الأشجار الخضراء في النّمو من جديد، وتظهر الورودُ لتزيّن الحقول والبساتين مع الاختفاء التّدريجي لبرودة الجوّ مُعلنةً قرب نهاية العام الدّراسي، وفور الانتهاء من اختبارات نهاية العام، كان بلاس يلحقُ بأسرته في بلدة مانيلفا حيث كانت كلّ العائلة تنتقلُ إلى المنزل الصّيفي المطلّ على مشهدٍ رائع للبحر المتوسط، والذين اعتادوا على قضاء عطلتهم الصّيفية بين رحابه.

على أنّ دوام الحال مِن المُحال، فلم يكدِ العامُ الأخير لدراسته الثانوية يظلّل حياته حتّى تعرّضت لزلزال فتّت أوصاله، حتّى أنّه وقر في نفسه باسْم «عام الحرج»، ففي «كارثة عام 1898» التي فقدت خلالها إسبانيا سيادتَها على مستعمراتها بالفلبين وكوبا بعد حربها مع الولايات المتحدة الأمريكية التي تحالفت مع ثوار كوبا ودعّمت ثوار الفلبين ، وعلى إثر ذلك اجتاحتِ البلاد أزمةٌ اقتصادية عصفتْ بالوضع المالي للكثير من سكّانها، حتّى أنّ والدَ بلاس قد عجزَ عن دفع مصاريف ابنه الدراسية في موعدِها المحدّد، ممّا جعل بلاس يغادر المعهدَ هربًا من الحرج الشديد الذي سيتعرّض له إنِ استدعاه المسئول المالي.

وبمجرّد وصوله إلى منزل العائلة انتابه حزنٌ عميق؛ فانعزل عن الجميع في غرفتِه الصّغيرة، متحاشيًا أنْ يزيد همّ والده إذا رآه في هذه الحالة من اليأس والقنوط، فكيف لا؟ والحلمُ الجامعي يتبخّر قبل أن يتحقّق بخطواتٍ قليلة، أمّا الوالد فتجنّب مواجهته، فماذا يقهر الرّجال أكثر من ضيق الحال أمامَ التزامات أبنائهم وأحلامهم المشروعة.

غابَ القمرُ في تلك الليلة تاركًا العالم يواجه ظلامَه وحيدًا وقد كبلّته غيوم رماديّة احتلّت سماء قشريش، وقد انعكستْ ظلمةُ الأجواء على نفس بلاس الرّقيقة، فساقته قدماه نحو مكتبه الصّغير، ودون أن يشعر فوجئ بيدِه تمتدّ ناحية الدّرج فأخرج رقعةَ الجدّة، ثمّ جلس على طرف سريره متأمّلًا الكلمات، ونفسُه تتشرّب معانيها بلهفة، مردّدًا إيّاها مرارًا حتّى غلبَه النّعاس.

تسلّل أوّل شعاعِ ضوءٍ دافئ للغرفة.. فتح بلاس عينيْه فوجد نفسَه يتمتم قائلًا:

-*لوريكومينساريموس أسي كو نولوافيلي* ... سنقرؤك فلا تنسى.

نهض من فراشه نافضًا عنه أثرَ الكسل المتراكم على أكتافه، وخرج من غرفتِه كأنّه قد اكتفى من العقاب الذّاتي الذي حاصرته به نفسُه بلا جريرة جناها، ففوجئ بمديرِ المدرسة في غرفة الضّيوف يتحدّث مع والده يقول:

- لقد جئت إليك لأستعيد طالبي *بلاس* ليكمل دراسته الثانوية.

احمرّ وجهُ الأب، وأجاب في خجل:

- *بيرو دون بيدرو*، ولكنْ ما منعني من الت....

قاطعه المدير بحزم:

-*نو كومبليتار بور فافور*، لا تكمل من فضلك، أعلمُ جيدًا الأوضاع التي تمرّ بها أسرٌ كثيرة هذه الأيام، ولكنْ مهْما كان لن يمنع أيّ ظرفٍ طالبي المميّز بلاس من تحقيق حلمه وإتمامِ دراسته.

فرَدّ الأب:

- *بيرو سينيور*، ولكنْ يا سيدي....

قاطعَه المديرُ مرّة أخرى:

- لا تقلق *دون لويس*، سأتدبّر أمرَ المصاريف، فابنك يستحقّ التّأهل للدّراسة الجامعية، فهو مِن أفضل الطلبة عندي علمًا وخلقًا.

نظرَ الأب إلى المدير بامتنان، ثمّ قال:

- *موتشاس جراسياس*، صدّقني.. إنّي عاجز عن الشّكر.

عاد *بلاس* إلى غرفته مسرعًا، وكأنّ النّشاط قد دبّ في جسده من جديد، وبحماسٍ وقودهِ السّعادة والأمل جهّز حقيبة السفر وشحنها بالكتب الدّراسيَة والملابس، وارتدى زيّ المعهد، وعند باب غرفته وجدَ والده واقفًا، وعيناه تشعّ سعادة يقول له:

- أبشرْ يا *بلاس*.

فردّ *بلاس* في الحال:

- *سي مي بادري*، نعم يا أبى سمعتُه، *جراسياس ديوس*.

قال الأب:

- نعمْ يا ولدى الحمدُ لله، قريبًا سأراك طالبًا جامعيًّا مشرفًا كما تمنّيت، دعني أعانقك، فحلمُنا أوشكَ على التحقق.

أخيرًا حصل *بلاس* على شهادة البكالوريا عام 1900م، وعمّت دار العائلة الفرحة عندما علموا بحصولِه على منحة للدّراسة بقسم الحقوق بكلية الفلسفة والآداب بجامعة غرناطة، سافر *بلاس* بصحبة والده إلى رمانة الجنوب البديعة "غرناطة"، ومنذ اللّحظة الأولى وقعَ *بلاس* أسيرًا لسحْر المدينة حتّى أنّه شعر أنّ ما قضاه من عمره كأنّها قفزات عصفور يحلّق بين فروع شجرةٍ كبيرة، تارةً يقف على فرع مالقة، وتارةً يعشّش فوقَ غصني قشريش وأرشدونة، أمّا هنا.. فهو عندَ الجذور العميقة لشجرةِ الأندلس الوارفة، بدتْ له كلوحةٍ مُتْقنة، وقد استوطنَ المعمار الأندلسيّ البديع في بساطتِه ورقيّ ذوقه أرضَها، ويتوّج على عرش حُسن هذه المدينة قصرُ الحمْراء بشموخه وروْعةِ عمارته، وكأنّه القلبُ النّابض الذي يضخّ الدّم الأندلسي في كلّ ربوع مدنٍ وبلدات الجنوب.

دبّر الأب مكانًا لإقامة بلاس في سكنٍ بسيط ليس ببعيدٍ عن الجامعة بحيّ البيّازين العريق، كما تمكّن من خلالِ علاقتِه بصديق قديم له من توظيف ابنه ككاتب في بلاط كاسياس ليكون بدايةَ احتكاك لهُ بالحياة العملية، ويكونَ العائدُ الماديّ البسيط عونًا له في إقامتِه ودراسته.

انتظمتْ حياةُ *بلاس* الجامعيّة التي طالما حلمَ بها، تأمّل قسماته في المرآة وقد غدا شابًّا يافعًا ممتلئًا بالحياة والحيويّة، يستمتع بالحريّة والاستقلالية في مدينةٍ جديدة يكتشفها بنفسه.

يتقاضى القليلَ لقاءَ عمله، وإلّا أنّه يكفي متطلّباته البسيطة في هذه المدينة التي يزهدك حسنُها عنْ عداها، فلو أراد فنانٌ من العصور الوسطى أنْ يفني عمرَه في رسم لوحةٍ ويدقّق في كلّ تفاصيلها لما خرجتْ بإبداع أيّ ركنٍ من أركان غرناطة الرّائعة.

اعتدلَ الطقس في ذلك اليوم، وقد بدتِ الشّمس ودودًا ترسل أشعّتها نحو غرناطة بسخاءٍ ممّا أثار في نفس *بلاس* نشوةً محبّبة دفعته للجلوس في أحدِ المقاهي المطلّة على قصر الحمراء بعد يوم دراسي طويل، تناهى إلى سمعه صوتُ شابّ يلقي أبياتًا شعرية تفيضُ رقّةً وعذوبة في وصف غرناطة ومحاسنِها، ممّا دعاه للالتفات ناحيته، فرأى شابًّا أنيقًا يرتدي حلّة سوداءَ منحوتةً على جسده النّحيف، شعرُه شديد السّواد.. ذو عينيْن زرقاوان، كأنّها اقتسمتْ زرقتها مع لونِ سماء المدينة، لاحظَ الشّاب نظراته إليهم، فدعاه قائلًا:

– سنيور، لم لا تنضمّ إلى صحبتنا؟

وكأنّه كان ينظرُ مثل هذه الدّعوة، فانضمّ إليهم بلاس على الفور، وجلس يستمع حتّى أنهى الشاعرُ قصيدته، فصفّق له الجميع وهم يتصايحون..

– *أوليه، أوليه.*

فوقفَ وحيّاهم، ثمّ التفت إلى بلاس، وقال:

– اسمي *ألبرتو ألفاريز دي سينفويغوس*، أصحابى يسمّوني شاعرَ غرناطة، وأنت سنيور؟

ردّ *بلاس*:

– أنا *بلاس* من مالقة أدرسُ الحقوق....

دارَ الحديثُ بينهم بودٍّ وكأنّهم أصدقاء قدامى فرّقتهم الدنيا، حتّى تململت الشّمسُ وأبدت رغبتَها في المغيب، فانصرف الجمعُ بينما قرّر *ألبرتو* مصاحبةَ *بلاس* حتّى يصلَ به إلى منزله ليكملا حديثَهما أثناء الطريق، وقد ربطتْ بين قلبيهما أوشاجُ الصّداقة، فجأة توقّف *ألبرتو* وقال *لبلاس*:

– انظرْ إلى هذا المشهد الرائع.

فنظرَ *بلاس* إلى قصر الحمراء، وقد تخلّل شعاع الشمس أسوارَه التي تطلّ بشموخ مَهيب على أحياء المدينة العتيقة.

أردفَ *ألبيرتو* متسائلًا:

– أيمكنُ لمجموعةٍ من الهمجِ المستعمرين أن يصنعوا هذه المثالية المعماريّة فائقةَ الجَمال؟

أجابَه *بلاس* وهو لا يزال ينظرُ للقصر:

– ماذا تقصد؟

فردّ *ألبيرتو* في الحال:

- دون *بلاس*، ما تشاهده الآنَ هو نحن، هذا قصرنا، نحن ننتمي إلى هذا الجَمال ولا شيء آخر يا صديقي المالقي، **أنا أندلسي**، هذه بلادي.. وهذا قصرُ أجدادي وأجدادك كما أظنّ....، سأتركك الآن لتستريحَ، وللحديث بقية.

ثمّ تركه وهو يسيرُ للخلف بخفّة، حتّى لا يعطيَه ظهره، وهو يقول له بصوتٍ مرتفع:

- دون *بلاس*، مِن الآن أنتَ في ضيافة شاعر غرناطة.

ولوّح له وهو يبتعد ويقول:

-*أستا لا بيستا*، إلى اللّقاء *مي أميجو*.

غيّرت هذه الصّداقة حياةَ *بلاس* للأفضل، *فألبرتو* ينتمي إلى عائلة غرناطيّة عريقة، وعن طريقِه عرف *بلاس* الكثيرَ عن المدينة وجنباتها وخباياها، وكان *ألبرتو* حريصًا على تيسير إقامة صديقِه بالمدينة، ومن حينٍ لآخر كان يدعوه لزيارته بمنزل عائلتِه لينعم معه بدفء الأسرة الذي كان يفتقده بعيدًا عن مالقة.

مرّت سنواتُ دراسته الجامعية هانئة، يستزيدُ من العلم والخبرات والمهارات، ويقضي أوقاته بين الدّراسة والعمل وصحبة *ألبيرتو* الذي كان يجمعهم اهتمامٌ مشترك؛ وهو حبّ كلّ ما هو أندلسي، وكثيرًا ما دار نقاشُهم حول هموم ومشاكل سكّان هذا الإقليم، وكيف يعاني الجميع من

التّهميش والتّجاهل من حكومة مدريد المركزية، وكان يتّفق الصديقان أنّهما وجميعَ الأندلسيّين أبناءُ حضارة، وورثةُ ثقافة أعرقُ وأعمقُ وأبدع من الثّقافة القوطية الأوروبّية المستحدثة، والمفروضة على بلادهم، كما أنّهم عرقٌ يختلف عن باقي أعراقِ هذه البلاد.

ومِن آنٍ لآخر يطلع *ألبيرتو* صديقَه على جديد أشعاره، كما بدأ بلاس يقدم على تدوين أفكاره في صورةِ خواطر، تطوّرت شيئًا فشيئًا إلى مقالات قصيرةٍ يعرضها على *ألبيرتو*؛ حيث كانت معظمُها نتاج لنقاشاتهم الموضوعيّة حول قضايا الأندلس الاجتماعية والاقتصادية والثّقافية، حتّى تخرّج بلاس من الجامعة عام 1906 بتقدير امتياز، وسرعان ما تمّ تعْيينه عدلًا في بلدة كانتيلانا، واستطاع أن يوفّر لنفسه مسكنًا في مدينة إشبيلية لقرب المسافة بينهما، ورغمَ فراقه لصديقه الشّاعر إلّا أنّ الرسائل لم تتوقّف هنيهة بينهما.

بيْدَ أنّ انتقال *بلاس* إلى إشبيلية لم يكن انتقالًا جغرافيًّا فحسب، بل كان بمثابةٍ طفرة توهّجت لها روحُه الوثّابة، حيث وجد نفسه وسط مدينة تنبضُ وتشعّ من جميع أرجائها الرّوحُ الأندلسية، يقصدها الكتّاب والمفكّرون والأدباء والسّياسيون والشّعراء المهتمّون بشأن وقضايا المجتمع الأندلسي، بدأ يتابع أعمالَهم وينهلُ من أفكارهم ليطوّر ويضيف إلى أفكاره.

كما اعتادَ *بلاس* بعد أنْ يفرغ من عمله في كانتاليا يعودُ من فوره إلى أشبيلية، لينعمَ بقيلولةٍ قصيرة لاستعادة نشاطه، وما أنْ يجنّ الليل حتّى

يخرج مترجّلًا ليمتّع روحه بجولةٍ في أرجاء المدينة المكسوة بالطابع الأندلسي العربي الإسلامي رغمَ كلِّ المحاولات الفاشلة لطمس وتغيير هويّتها الأصيلة.

كانت خطواتُه تعرج به تارةً إلى البرج الذّهبي الرّائع القريب من مجرى نهرِ الوادي الكبير، وتارةً أخرى إلى وسط المدينة عند دار البلدية و«*البلازا نويفا*، السّاحة الجديدة» حيث يحتشد الرّسّامون ويجتمع المفكّرون، ويستمع الجميعُ للطّرب الأندلسي الذي يضفي على الأرجاء روحًا من البهجة والمحبّة والتسامح.

في عطلةِ نهاية الأسبوع، ذهب بلاس إلى كاتدرائية إشبيلية ليلتقي ببعض الأصدقاء، وقف يتأمّل برجَها الشّهير «منارة خيرالدا» وأثناء تجوال بصره في تفاصيل هذا البناء الشّاهق، سمع صوتًا يهمس في أذنه قائلًا:

– انظرْ جيدًا، نحن هذا البرجُ العريق بكلّ إبداعه المعماري، بنقوشه الهندسيّة العربية المنمّقة والمتشابكة بترتيب غايةً في الدقّة، وروعةً في الجمال لتحكي تاريخًا عريقًا امتدّ لمئات السنين، شاهدةً على حضارة سادتْ كلّ أوروبا في عصور ظلامها، أمّا الأجراسُ الثقيلة القابعة فوق قمّة البناء وما يحيطها من نقوش قوطية غريبة عن هويته، لتمثّلهم وتجسّد سيطرتهم علينا، نحن الأصلُ.. ونحن عمادُ البناء وجسده.

وكأنّ هذا الصّوت المألوف ينطق بما يدور في عقله، فكّر بلاس قائلًا في نفسه.. لكأنّني أسمع صوت *ألبرتو*..

– مازلتَ كعهدي بك أيّها الأندلسي الحائر.

استدارَ *بلاس* قائلًا:

– *ألبرتو دي جرانادا*، مرحبًا بصديقي الغرناطيّ العزيز.. لكم افْتقدتك.

أجابه *ألبيرتوا* بثقتِه المعهودة:

– وهل تظنّ أنّي سأتركك وحدَك في إشبيلية؟ لقد تمّ تعْييني في جريدةٍ محليّة متواضعة، ولكنْ سيكون لها شأنٌ بوجود شاعر وكاتبٍ موهوب مثلي.

تهلّل وجهُ *بلاس* بالسّعادة، وأجابه:

– رائع، طبعًا يا صديقي، كم تمنّيت قدومك، دعنا نتجوّل الآنَ وتحكي لي جديدَ أخبارك وأخبارِ غرناطة العزيزة.

عبرَ الصّديقان الطريق، وعلى بُعد خطواتٍ قليلة توقّف *ألبيرتو* أمام سور قصرٍ تاريخيّ في الجهةِ المقابلة للكاتدرائية، وقال بأسلوب استعراضي:

– مرحبًا بك يا *بلاس* في حرم «*الكازير*».. هنا يا صديقي كان يسكن الأميرُ العاشق الشّاعر المجاهد الأسير، المنفي، صاحب هذا القصر هو صاحبُ أكبر مأساةٍ ملكية عرفها التاريخ، هنا عاش المعتمد بن عباد.

الفصلُ الثّاني

الرّؤية

دخلَ الصّديقان يتفقّدان ثنايا هذا المَعْلم التّاريخي الرّائع، وأثناء تجوّلهما في حدائق وباحات القصْر البديعة، روى *ألبيرتو* *لبلاس* قصّة حياةِ المعتمد بن عباد بأسلوبه الشّيق، فهو الشّاعر الذي يعرف كيف ينتقي الألفاظَ ليفوز بإمتاعِ المصغي لكلماته، وبلاس يتجوّل بعينيه في جنبات القصر، ويتخيّل أحَداثَ سيرة صاحبه على نبرات صوتِ *ألبيرتو* المتناغمة مع روْعة المكان، كيف كان هذا الملكُ الأندلسي يحيا وسط كلّ هذا النعيم، أين كانت تأتيه ربّةُ الشّعر لينطق بأجمل الأبيات، أين كان يرتوي من الماء البارد ويأكلُ الفاكهة بعد عودته من المعارك، هنا كانت تمرحُ وتضحكُ الجواري الحسناوات، وهنا كان يلتقي بالوفود الرسميّة في كامل هيبتِه الملكية.

انتهتْ جولة الصّديقيْن، وقبل أن يفترقا اتّفقا على لقاءٍ قريب، وعاد *بلاس* إلى منزله.. ولكن هذه المرّة ليس بمفرده، فقد رافقته كتلةٌ من الأفكار التي تدور حولَ شخصِ المعتمد وحياته وأمجاده الأسطوريّة ونهايته المأساوية.

لم يكدْ *بلاس* يفرغُ من عمله عصرَ اليوم التّالي حتّى اتّجه مباشرة إلى جامعة إشبيلية قاصدًا مكتبتها العامرة، ومستعيرًا كلّ ما وقعَ تحت يده من الكتب التي تدور حول المعتمد وعهْدي ملوك الطوائف والمرابطين،

عاد إلى منزله حاملاً غنيمتَه، وقضى ليلته بأكملها يستقي رحيق صفحات الكتب التي وجدَ في جنبات سطورها إجاباتٍ وافيةً على الكثير من تساؤلاتٍ كانت تدور في فلَكِ عقله ومعلومات دقيقة عن تفاصيل في حياة هذا الملك الأندلسي الذي تمكّن ببراعة من السيطرة على كلّ فكر ووجدان *بلاس*.

غلبَه النّعاسُ وهو ممسكٌ بأحد الكتب، وهو يتأرجحُ على غمام النوم بين اليقظة والغفوة، سمع صوتًا آتيًا من أعماق التاريخ.. آتيًا من زمن أجداده، كان صوتُ صهيلِ لفرس أبقر يزلزل الأرضَ تحت سنابكه حتّى وقف أمامه، كان جوادًا أندلسيًّا أصيلاً شديدَ السّواد يمتطيه فارسٌ عربيّ بالغُ الوسامة، يمدّ له يديه في حزم ويقول:

– استيقظْ أيّها الفارس، القشتاليّون على مشارف البلاد، أيحسبون أنّهم يستطيعون أنْ يسلبوني مملكتي؟! أبدًا.. لن تضيع إشبيلية البهيّة كما فُقدت طليطلة، انهضْ أيّها الفارس واتبعني، فاليوم ستبدأ الملحمة.

ثمّ وجدَ *بلاس* نفسَه يسرع الخُطا، مُحاطًا بأشجار من العنب والنخل المحمّل بالبلح الكثيف، في حديقةٍ مملوءة بالورود، تخترقها أنهارٌ ماؤها لامعٌ كأنّه ذهبٌ سائل، على حافّة أحد هذه الأنهار تحت شجرة رمان كبيرة وجدَ امرأةً جميلةَ الملامح ترتدي ثيابًا من الدّمقس الأخضر والأبيض اللامع فاقترب ليتحقّق منها.

– مَن هذه المرأة؟ إنّي أعرفها.. نعم.. يا إلهي، إنّها جدّتي الحبيبة، كم عادتْ شابّة جميلة نَضِرة، وتفيض قسماتها بالبِشر، جدّتي؟ كم أفتقدك.

– حفيدي الغالي *بلاس*، أراكَ وقد صرتَ شابًّا وسيمًا، أمازلت تتذكّرني؟ أتتذكّر جدّتَك التي أحبّتك، ومازالت تحبّك؟

– بالطّبع، فكيف أنساكِ، وأجملُ أيام طفولتي وشبابي كانت بقربِك يا جدّتي العزيزة؟!

فقالت:

– حسنًا يا ولدي، أتتذكّر آخرَ ما قلته لك؟

دوّى صوتٌ له صدًى في أرجاء المكان يقول:

«يا بنيّ، اعلمْ أنّنا لسنا كما نَظُن»

فتحَ *بلاس* عينيه على رنينِ جرس المنبّه المضبوط على ميعاد عمله، وصدى صوتِ جدّته مازال يتردّد في عقله وفؤاده.

توجّه بلاس إلى عمله مُفْعمًا بالنّشاط والتفاؤل، وقد غرس الحلم في خاطره يقينًا أنّ هذا اليوم سيكون انطلاقةً في طريقٍ عليه أن يسلكه بحثًا عن الحقيقة التي طالما أجّل السّعي إليها.

فوْرَ عودة *بلاس* من عملِه التقى *بألبيرتو*، وذهبا إلى مقهى في وسط المدينة يجتمع فيه كتّابُ ومفكرو إشبيلية.

كان الجميعُ يتشارك في الحديث عمّا جدّ من أزمات معيشية بالإضافة للمشاكل المُزمنة التي يعاني منها سكّان الجنوب الإسباني «الأندلس»، وبلاس *وألبيرتو* يستمعا باهتمام شديد حتّى قاطع بلاس الجميعَ مستئذنًا:

– *لوسينتو بورفافور*، رجاءً، أتسمحون لي بالحديث؟

فرَدّ الجميع:

- *بور سوبويستو ابلا*، بالتّأكيد، تفضّل.

فبدأ *بلاس* يعرضُ عليهم بعضَ الاقتراحات المرتّبة لحلّ بعض المشاكل الطّارئة، ثمّ انتقلَ بمهارةٍ شديدة إلى تصوّر شامل لحلّ جذريّ لمشاكل الإقليم بأكمله بطريقةٍ موضوعية منظّمة أجبرت الجميعَ على الإنصات له مع بعض الهَمْهمات المنخفضة التي تستفسرُ عن اسم هذا الشّاب الذي استولى على اهتمام الجميع، وعندما انتهى بلاس من عرض أفكاره ارتسمتْ علامات الإعجاب والاحترام على وجوه الجالسين، بما فيهم *ألبيرتو* الذي ابتسم مفتخرًا بلباقةِ صديقه المالقي، ومنذ ذلك اليوم أصبح *بلاس* العضوَ الأبرز لأيّ تجمّع في هذا المقهى؛ بل تمّ دعوته لحضور جلساتِ النادي الثقافي الإشبيلي الذي يعتبر بمثابةِ مجلس شورى مصغّر لمدينة إشبيلية، أكبرِ مدن الأندلس.

مع انْتظام تردّد *بلاس* على هذا النّادي تكون لديه شبكة علاقات جيدة بجميع الشّخصيات الفعّالة في المدينة، التي تعدّ مركزَ إقليم الأندلس الثّقافي والحضاري، فأصبح صديقًا للجميع، وفي إحدى جلسات النّقاش اقترح عليه محاميّ مُخضرم أن يقدّم أوراق اعتماده في مجلس المحامين، وبالفعل يوم 28 نوفمبر 1913، تمّ قبوله بالمجلس مدْعومًا بسمعته وسيرتِه الطّيبة التي اكتسبها، بالإضافة إلى تزكية أصدقائه، وخلال اشتراكه في أنشطةِ واجتماعات المجلس أخذَ يطوّر ويبلور أفكاره، كما زادتْ شراهته للاطّلاع؛ فسعى لاقتناء الكثيرِ من المراجع والوثائق التي تتناولُ حضارة

الأندلس العربيّة الإسلامية، ممّا أعطى لأفكاره عمقًا وموضوعيّةً أكبرَ ميّزته عن باقي أقرانه، كما بدأ يتعلّم مبادئ وقواعد اللّغة العربية.

ومع ازديادِ شهرة *بلاس* في الأوْساط الأندلسية، وفي يوم 23 مارس 1914 تمّ دعوته لإلقاء محاضرةٍ في قاعة «*أبينيو*» أكبر قاعةِ مؤتمرات بأشبيلية، فكان عنوان محاضرته «**النّظرية الأندلسية**»، وفي أرجاء القاعة التي يكسو جدرانَها الزليجُ المغربي الذي يميّز المعمار الأندلسي العريق برسوماته الهندسيّة وألوانِه الرّاقية المرتبة بدقّة فريدة، وقف *بلاس* بثقة وثباتٍ ليعرض تصوّرًا شاملًا لتاريخِ ووضع ومستقبل القضيّةِ الأندلسية.

لاقى هذا الخطابُ استحسانَ جميع الحضور، ممّا شجّع بلاس على الشّروع في تدْوين هذه النّظرية في صورةِ كتاب بنفس عنوان المحاضرة، شرحَ فيه رؤيته الشّخصية للتّاريخ والهوية الأندلسية، وتعرّض لأهمّ مشكلات الإقليم، بالإضافة إلى مقترحات موضوعيّة لحلّها، وطرحتْ طبعته الأولى عام 1914، كما أقدَم *بلاس* على امتلاك مكتبٍ خاصّ به لمزاولة مهنةِ المحاماة في قلب إشبيلية معتمدًا على الشّهرة والمهارات التي اكتسبَها مع مرور الوقت.

ومع انتظامِ إقامة بلاس في إشبيلية، وفي عام 1916 أسّس أوّل «مركز أندلسي» تبعتْه مراكز أخرى في مدن الجنوب، كما أصدر «**مجلة الأندلس**» التي كانت لسانَ حال المراكز الأندلسية والحركة القومية

الأندلسية، ومع مرور الأيّام تطوّرت المراكزُ لتصبح مقرًّا لأنشطة أندلسيّة تثقيفية وتخطيطيّة، ومنها خرجَ المنشور الذي دعَا إلى اجتماع جميعِ المقاطعات الأندلسيّة في رندة، وفي سابقةٍ تمّ استخدام «الأمّة الأندلسية» كعنوانٍ لهذا الاجتماع، فأهلت كلّ هذه الأعمال الإيجابية بلاس ليتزعّم تيارًا جديدًا للحركة القومية الأندلسية.

وفي السّادس عشر من يونيو لعام1917، ألقى بلاس- بصفتِه رئيسًا للمركز الأندلسي- محاضرةً هامّة حضرها جمعٌ غفير من روّاده، وظهر مِن خلال كلمته نضوجُ أفكاره الثورية، فكان أبرزَ ما صرّح به:

-أيّها السّادة، لسنا بصددِ إنشاء حزب، نحن نريدُ تجهيز شعبٍ قادر أن يحكم نفسَه بنفسه.

وفي بداية عام 1918، انعقد اجتماعُ مجلس المقاطعات الأندلسية في مدينةِ رندة، والذي ألقى *بلاس* خلالَ فعاليّاته خطابًا حماسيًّا ألهب مشاعرَ الحضور، فعدّد معالم القوميّة الأندلسية في حركتها المستقبلية، وأوصى بالاعتراف بالأندلس كبلدٍ، وقوميّة، ومنطقة ذات حكم ذاتي ديمقراطي، على أساس دستورِ أنتقيرة، ثمّ فاجأ الجميع وعرض عليهم تصميمَ العلم الذي ابتكرَه ليمثّل الأمّة الأندلسية، والذي أطلق عليه اسم *«بانديرا بلانكيفردي»*؛ أي العلم الأخضر والأبيض، وهي الألوان التي يتكوّن منها والتي استوحاها من ماضي البلادِ الإسلامي، بعد معرفته بأنّ الدول الإسلامية التي قامت تباعًا على شبه الجزيرة اتّخذت غالبها هذه الألوان،

وأحيانًا مع الأحمر والأسود في رايتها، كما أضاف في وسط العلم رمزَ قادس كشعار للأندلس، فلقيَ العلم الجديد استحسانَ وترحيبَ جميع الحضور، وختمَ بلاس مشاركته قائلًا:

-إنّ القوميّين الأندلسيّين لا يبتكرون شيئًا جديدًا، نحن نقتصر فقط على الاعتراف بوجود أمّتنا كما صنّفها تاريخنا .

وبناءً على توصيات المؤتمر تقدّم *بلاس* يشاركُه ناشطٌ أندلسيّ آخر، اسمُه «*خوزي أندرس باسكس*» إلى هيئة الأمم التي كانت قد انعقدتْ في لوزان بسويسرا لمناقشة أوضاع القوميّات التي ليست لها دولٌ تمثّلها، مطالبين إيّاها بالاعتراف بالقومية الأندلسية.

وفي سبيل التّعريف بأهدافه السياسية، وسعيًا منه لتفعيلها؛ دخل بلاس سباقَ الانتخابات عن منطقة غسان أشتبونة التابعة لمقاطعة مالقة، ورغم خسارتِه لهذا الاستحقاق لم يفقدْ إصرارَه وعزيمتَه من أجل قضية بلاده.

في إحدى جلساتِ المركز الثّقافي، لمح بلاس شابًّا طويلَ القامة، ممشوقَ الجسم، وجهُه مشرق كأنّه يشعّ حماسًا، نظراتُه عميقة وثاقبة تنمّ عن فراسةِ صاحبها، وكان يرتدي بدلةً منمّقة بيضاء، ويحمل حقيبة جلدية صغيرة، يقفُ في طرف القاعة مُحاطًا بجمعٍ من الشّباب يتحدّث إليهم ويستمعون إليه باهتمام شديد.

وبفضولٍ سأل بلاس صديقه *ألبيرتو* الذي كان كالعادةِ يشاركه مجلسه:

- مَن هذا الشابّ المتحمّس؟

فرَدّ *ألبيرتو*:

– إنّه، *رودولفو* المعروف بـ «**خيل بن أمية**»، هو كاتب وصحفي مهتمّ بالثقافة العربيّة، وهو ابنُ مدينتي غرناطة، وينتمي لعائلة غرناطيّة أصلُها موريسكي، والدُه هو الكاتب المشهور *رودلفو خيل فرنانديث*، وأمّه تنتمي لأسرةٍ غرناطيّة عريقة، أصولُها مسلمة من نسلِ عبد الله شقيق **محمد بن أمية**، *فرناندو دي فالور*، قائد ثورة البشرات الغرناطية التي قام بها المسلمون ضدّ الحكم القشتالي الجائر ما بين 1568 و1570م، بعد 70 عامًا من سقوط غرناطة عندما نقضَ القشتاليّون جميعَ بنود وشروط معاهدة تسليم المدينة لهم.

لاحظَ *رودولفو* خيل بن أمية أنّ بلاس وصديقَه *ألبيرتو* يتحدّثون عنه، فبسرعةٍ استأذن من الجمْع المحيط به، وتوجّه مباشرةً صوب الصّديقيْن وحيّاهما، وقال منحنيًا:

– *بوناس تارديس* دون *بلاس* أي دون *ألبيرتو*، إنّه لشرف كبير لي لقاءكما.

فحيّاه *بلاس*، ثمّ قال له:

– أنتَ أيضًا عمتَ مساءً دون *رودولفو*.

فسأله *رودولفو*:

– أتعرفني سينيور؟

فأجابه *بلاس*:

- *بورسبويستو*، بالتأكيد، عملك الجادّ سبقك إلينا، *فألبيرتو* حدّثني عنك، تفضّل بالجلوس معنا.

وجلس الثلاثةُ يتحدّثون ويتعرّفون أكثر على بعضهم بتلقائية الشّباب، وبالطّبع بعد التعارف تحوّل الموضوع إلى الشّأن ذي الأولويّة الأولى عند الثلاثة؛ وهو الشّأن الأندلسي.

كان *رودولفو* يتحدّث بطلاقة، و*بلاس* يستمع إليه باهتمام شديد، فكان مثقفًا ومطّلعًا ومتمكّنًا من اللغة العربية التي أتاحت له المزيدَ من المعرفة، وكان له وجهاتُ نظر تستحقّ الاهتمام، فعندما تطرّقوا لحديث السّاعة؛ وهو احتلال إسبانيا لشمال المغرب، قال *رودولفو*:

- أنا أباركُ هذا الاحتلال، رغمَ علمي بنواياه الاستعمارية والدوافع التّاريخية للانتقام القشتالي من أهل المغرب، ومع ذلك أجده وسيلةً لتوحيد ضفّتي المضيق اللّتيْن ليستا سوى كتلةٍ جغرافية وثقافية واحدة، تصدّعت.. ثمّ انقسمت بعد زوال الأندلس.

ثمّ تابع قائلًا:

- في فترةِ الانحدار التي عاشتها شبهُ الجزيرة الإيبيرية تحت الحكم القوطي، قام سكان العدوة المغربية بالعبور لشبه الجزيرة وساعدوا أهلها على خلق، وليس استرداد ثقافة عظيمة أنار إشعاعُها ظلمات أوروبا كلّها في العصور الوسطى، والآن يحدث العكس؛ حيث يحيا سكّان الشّمال

الأفريقي في مأزق، وعلى أبناء عمومتِهم بشبه الجزيرة أنْ يساعدوهم على استرجاع، وليس استيراد، عظمتهم الثقافية الماضية.

وأثناءَ حديثه، لاحظ *رودولفو* نظرةَ الاهتمام في عين *بلاس وألبيرتو* فاستمرّ في عرض أفكاره، وقال:

– مِن المستحيل قطعًا خلقُ فارقٍ مطلق بين الكلمتين إسبانيا والمغرب، فوضعُ خطٍّ للفصل يؤدّي لتجاهل كلّ الملامح المشتركة.

ثمّ عدّد تلك الملامح وقال:

– إسبان من أصولٍ مغربية، ومغاربة أصولهم إسبانية، مغاربة ذوو جنسية أو حماية إسبانية، ومَن يسمّون بالإسبان المرتدين الذين ذابوا في النسيج المغربي عبر ارتدادٍ عرقي، مغاربة أفريقيا الذين يحملون أسماء كـ *أتافيسمو*، *راسيال*، *شمورو*، *أركون*، *رويز*، *ملين*، *كركاشو*، غرسية، القنطرة، البرنس.. أيضًا أسبان يتباهون بألقابهم العربية كـ الركينة والقرطبي، كما أنّ هناك مغاربة وأسبان ينحدرون من نفس الجذر الأندلسي، يحملون ألقابًا كـ شيكو، *مران* أو مرينو، *الطريس*، بنيس أو *بنيغش*، *بركاش*، *الزندة*، *الكراز*، الثغرى وتوريز.

فعقّب *بلاس* قائلًا:

– واضحٌ أنّك دارس للموضوع جيدًا، أحيّيك على اجتهادك، فعلًا تشرّفت بمعرفتك، ومن اليوم أنت صديقٌ نسعد بصحبته.

فقال *رودولفو*:

– الشّرف لي أنا، فكنت أسعى جاهدًا للقائك منذ معرفتي بنشاطك واهتمامك بقضيّتنا، أمّا دون *ألبيرتو*، فدائمًا ما كان يمتّعنا بشعره العذْب في جلسات غرناطة الرائعة.

بعدَ جلسة مُثمرة، اتّفق *بلاس وألبيرتو* مع صديقهم الجديد على معاودة اللّقاء والتواصل بينهم، ثمّ غادر كلّ منهم إلى داره، ولكنّ بلاس أخذته قدماه وهو يعاود التّفكير في كلام خيل بن أمية حتّى وجد نفسَه أمام قصر المعتمد بن عباد مرّة أخرى، فجلس على دكّة مطلّة على القصر، وبدأ يحدّث المعتمد في خياله ويقول:

– يا أمير إشبيلية، ما رأيُك في حال أحفادك في هذه الأيام؟ أسيعود مجدُ هذه البلاد، أم سنذوب تدريجيًّا في الثقافات المفروضة علينا مِن مستعمرينا؟ أسننتزع حقوقَنا المسلوبة، أم سنستسلم لهم؟ دلّني يا أميري....

عادَ بلاس إلى منزله مسلمًا جسدَه للرّاحة والنّوم، وفي اليوم التّالي وأثناءَ عمله بمكتبه تلقّى برقيةَ دعوة لحضور مؤتمر *«المياومين»* وهي اجتماعاتٌ نقابيّة للاتحاد الوطني للمزارعين تمّ الترتيب لتنفيذها عام 1918م بالمركز العالمي ببلدة كاسترو ديل ريو التابعة لمقاطعة قرطبة، فسافرَ *بلاس* لحضور فعاليات المؤتمر بحماسِه المعهود.

وهنالك حرصَ أثناءَ تواجده على شراء بعض الأثاث المنزلي المصنوع من أخشاب شجر الزّيتون التي كانت تشتهر به هذه البلدة، وشحنه إلى منزل العائلة بقشريش.

كما استغلّ قربَه من قرطبة فقرّر التوجّه إليها ليزور مسجدها الجامع الذي انجذبَ إليه بشدّة من خلال قراءاته التي وصفت روعة بنائه، والذي حوّله الإسبان بعد استيلائهم على المدينة إلى كاتدرائية كاثوليكية، وبعد أنْ أوصله صديقُه القرطبي *«إلوي باكيرو»* لساحة المسجد وهو خيرُ مَن يعرف طرقات وأزقّة مدينة قرطبة لأنّه من قرية منتالبان إحدى قراها، توجّه بلاس إلى أحدِ أبوابه الجميلة، وعندما اقترب منه وقع بصرُه على لوحةٍ تزيّنه، منقوشٌ عليها كتابة عربية بخطّ كوفي بديع، فقرّر أن يختبر مقدرتَه على فهم محتواها؛ فبدأ يقرأ: «بسم الله الرحمان الرحيم. أمر عبد الله عبد الرحمان أمير المؤمنين الناصر لدين الله أطال الله بقاءه ببنيان هذا الوجه وإحكام إتقانه تعظيمًا لشعائر الله ومحافظة على حرمة بيوته التي أذنَ الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمُه، ولما دعاه على ذلك من تقبّل عظيم الأجر وجزيل الذّخر، مع بقاء شرفِ الأثر وحُسن الذّكر، فتمّ ذلك بعون الله في شهر ذي الحجة سنة ستّ وأربعين وثلاث مائة على يد مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبد الله بن بد، عمل سعيد بن أيوب».

ثمّ دخل إلى صحن المسجد المكشوف، المعروف بفناء البرتقال، ومنه عبرَ إلى الحرم، وأخذ يسير للأمام وهو يجول بعينيْه في غابة الأعمدة المصنوعة من المرمر والرّخام وحجر اليشب والحجر السماقي، والتي يعلو قمّتها تيجان منقوشة، يعبر بينها أقواس يتناوب في بنائها الحجارة الحمراء والصّفراء بتناغم فريد، ثمّ وجد نفسَه يسير في اتجاه المحراب

وهو يعدّ النّوافذ السبعة التي تعلوه، وترمز إلى السّماوات السبع، وعندما وصلَ إليه وقفَ مبهورًا بروْعة وإبداع تصميمه، وجمالِ النقوش الذهبية والبرونزية التي تزيّن تقويصته، وكأنّها شعاعٌ إيماني ينبعث من داخله، وقبل أن يغادر المسجدَ حلّق ببصره في سقفه، فوجد جدرانه قد نُقشت عليها آياتٌ من القرآن الكريم، وزيّنت بزخارف مؤطّرة، وبلوحات جداريّة زخرفيّة من الفسيفساء ومن الزّجاج المطلي بالميناء، ومنها ما رصّع بالفضّة والذّهب في مشهدٍ بديع يأخذ مَن يشاهده إلى عالم من الرّوعة والخيال، ويعود به قرونًا إلى الوراء، وكأنّه يسمع أصوات التّكبير والتهليل، ويشعر بازدحام المصلّين وهُم يتسارعون من هنا وهناك، ويتراصّون لأداء الصّلاة خلف أشهر أئمّة عصرهم أو خليفتهم، مشهد يسرقُ منك روحَك لحظاتٍ لتحلق خفيفة في زمن المجدِ والعزّة والإيمان، وقت عظمة وريادة الأندلس.

خرج *بلاس* وقلبُه يخفق بشدّة كعصفورٍ ذبيح، وأمواج أفكاره تتلاطم قائلة:

– يا إلهي، ما كلّ هذا الزّخم وهذه الأفكار من زيارةٍ واحدة لهكذا مكان!! إنْ كان هذا المعلم التّاريخي الآن هكذا، فكيف كانت الأندلسُ في عصر خلفائها وأعظمِ ملوكها؟!

التقى صديقه الذي كان ينتظرُه خارج المسجد، وعلى وجهه كانت ترتسم لوحةٌ هي مزيجٌ من الحيرة والدّهشة والإعجاب والشّرود العميق.

سأله *إلوي باكيرو* متحيّرًا لرؤيته ملامحَ وجهه المبعثرة بين منعطفات التّاريخ الكثيرة:

– ها... كيف كانت زيارتك؟

أجابه *بلاس* ململمًا شتاتَ نفسه:

– *اوه ديوس*، يا الله يا لروْعته وحُسن بنائه، إنّه حقًّا إرثٌ يفتخر به.

فقال *إلوي باكيرو* متفاخرًا:

– إذًا، ماذا لو رأيتَ آثارَ وموقعَ مدينة الزهراء النّاصرية الملوكية؟

فسأل *بلاس* مستغربًا:

– عنْ أيّ مدينة أثريّة تتحدّث أنت؟

أجاب *إلوي باكيرو*:

– سأخبرُك يا صديقي لا تتعجّل، صبرك... أتحدّث عن ضاحية الزّهراء التي كانت تعتبرُ من أشهرِ المشيّدات العمرانية في حقبة الإمارةِ العربية والخلافة الأمويّة، تلك التي تقع إلى الشرق من قرطبة وقد شيّدها الخليفة الأمويّ عبد الرحمن النّاصر؛ تخليدًا لاسْم زوجته، ويقال إنّ بناءها قد استغرق سنوات طويلة.

ثمّ سكت قليلًا وأكمل:

– ممممم.. ما رأيك لو كان لديك بعضُ الوقت أنْ نذهب لزيارتها والاستمتاع بعظمةِ حضورها، وسأكمل لك بقيّةَ حكايتها؟

كانَ الانجذابُ لمعرفة تفاصيل هذه الحضارة والثقافة العمرانية التي تركَها المسلمون على هذه الأرض وشعور الانتماء الغريب الذي انتابه لهذه الحضارة الذي تنامى لديه بعد زيارته لمسجد قرطبة؛ أكبرَ من أنْ يرفض رؤية الزّهراء الآن، فإنْ كان الجامع بهذه العظمة فكيف تكون الزّهراء، وهي مدينة الخليفة الأمويّ، فضوله دفعه للموافقة، وكأنّ يدًا قدريّة كانت تدفعه دفعًا لزيارة كتلك.

انطلقَ الصديقان نحو الضّاحية الشّرقية لمدينة قرطبة، حيث تقع تلك العروس الجبلية البهية.

وعبر الشّوارع والأزقّة والأحياء التي قطعوها من المسجد الجامع إلى الضّاحية الشرقية للمدينة، كان الانبهارُ جليًّا على وجه *بلاس* حاضرًا في كلّ منعطف، وعلى كلّ جدار، وقابعًا أمامَ كلّ باب وشرفة لمنزل قرطبي، فقد كانت المنازل قمّةً في الجمال والأناقة ورفعة الذوق، تغطي أصصُ الزّهور جدرانها، لترسم لوحة طبيعية امتزجت فيها كلّ الألوان، وأكملت صورتها الحيّة عبقَ روائح تلك المزروعات من ورد دمشقي وريحان وكباد وياسمين شامي، أتى مع وفود السّكان من المشرق قبل مئات السنين ليظلّ عبقه روائح شذيّة عطرة في أنوف المستعمرين، قرطبة عاصمةُ الخلافة الأمويّة كانت مسرّةً للنّاظرين، فتنة للأعين التي تعرف قيمة الفنّ والجمال، ناهيك عن أشجار النارنج والبرتقال المنتشرة على أرصفة الشّوارع التي تضفي جوًّا من الحنين إلى حقبة من زرعوها واعتنوا بها، تداعبها نسماتُ المدينة كأنّها تواسيها وتخفّف عنها لفقدها أحبّتها وأهلها.

عندَ بلوغهما مشارف الزّهراء كانا يقفان أمام أعمدةٍ ممتدّة على مساحة شاسعةٍ، عظيمةِ الطّول والبنيان، كان الصّمتُ سيدَ الحضور أمام فخامة وعظمة تاريخية مثل التي أمامهما.

كان *بلاس* أوّلَ مَن كسر دائرة السّكوت سائلًا:

– يا إلهي، أهذه هي الزهراء؟

أجاب صديقه مع ابتسامة تحمل أسفًا:

– بل هي آثارها.. إنّها الأطلال يا صديقي.. بقايا حضارة تئنّ إلى الآن وسطَ صفحات منسيّة من تاريخ يشتهي الظّهورَ من جديد إلى النّور، إلى العلن، كما ظهرت الزهراءُ من تحت التراب.. من بين الأنقاض.

لطالَما أعجب بلاس بأسلوبِ صديقه القرطبي، وجَمال عباراته المنتقاة، كيف لا.. وهو السّياسي، وقبلها هو الكاتبُ والشاعرُ المرهفُ الحسّ.

تحدّث بلاس هامسًا؛ خوفًا من تلاشي هذا السّحر:

– أخبرني بقيّة القصة.. هيّا أكمل.

جاءتْ بقيّة قصة الزهراء بعد تنهيدةٍ عميقة، محمّلة بكلّ الأسى، كأنّ الرّوح ستخرُج بعدها، لا مجرّد كلمات مسترسلة...

– علمت أنّ معماريًّا إسبانيًّا اسمه *فلاسكيز* قد نقّب على بعض آثار المدينة سنة 1910م، والتي تشتمل على ثلاثِ مدن متدرّجة، تنحدر نحو الوادي الكبير، انظرْ من ها هنا (وأشار بيده ناحية الانحدار كأنّه هو مَن

وضع مخطّطَ المدينة)، ولكلّ منها سورها، ويقال إنّ النّاصر ابتنَى لنفسه قصرَه العظيم والمسمّى دار الرّوضة، تخيّل معي هنا.. كان القصرُ– وقيل إنّ– حيطانه كانت من الذّهب والرّخام السّميك الصّافي، وفي وسط القصر انظرْ هناك تحديدًا في وسطه كان صهريجٌ عظيمٌ مليء من الزّئبق، وأبوابُه من العاج والأبَنوس المرصّع بالجواهر.

كان الشابّ يتحدّث بطريقةٍ درامية يعلو صوتُه معها وينخفض حسب الرّواية، ويقفز حول بلاس شارحًا من هنا وهناك، وقد رفع ذراعيه مفتوحةً للسّماء كأنّه يحتضنُها مكملًا:

– وكانت الشّمسُ تضرب أشعّتها من خلالها في صدر المجلس، فيصيرُ من ذلك نورٌ يأخذ الأبْصار، وزيّن مجلسه في قصر الزّهراء بتماثيلَ من الذّهب مرصّعة بالجواهر في دار الصناعة بقرطبة، وأقام مجمّع منحوتاتٍ في قصره هذا، وجلب إليه بركةً منقوشة في دمشق، ومذهّبة، فيها نقوش وتماثيل على صور إنسان قيل إنّها لا تقدّر بثمن.

وأخذَ يركض ويدورُ مستأنفًا قصّته:

– هنا، نصب النّاصر منحوتاتٍ من الذّهب الأحمر، مرصّعة بالدرّ النّفيس الغالي، تمثّل أسدًا وغزالًا وتمساحًا يقابلها ثعبان وعُقاب وفيل، وعلى الجانبين ركّزت حمّامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر، وكلّها يخرج من أفواهها الماء.. تصوّر كلّ تلك التّماثيل اللّامعة يخرج منها الماءُ عذبًا صافيًا، تخيّل صوتَ المياه في مكانٍ مثل هذا.. أوه ديوس، يا الله..

تكلّم *بلاس* أخيرًا:

-*تيانيس رازون*، معك حقّ.. كانت، ومازالت، رمزَ عظمة، لكن ما كلّ هذه الأعمدة، وسببُ هذه الكثرة فيها؟

أجابه *إلوي باكيرو* قائلًا:

– يقال إنّ قصر الرّوضة كان يقوم على1200 عمودٍ من الرخام، وإنّ سقفَ مجلس الحكم فيه وجدرانَه كانت من الرّخام المطعم بالذّهب، وله ثمانية أبواب ضخمة مطعّمة بالأحجار الكريمة، تخيّل أنّ الناصر كان يجلسُ في مجلسه ذاك محاطًا بكلّ تلك الفخامة والأبّهة، وهو يستقبل الوفود والسّفارات الأوروبّية محاطًا بحاشيتِه وأكبرِ رجال دولته، قيل إنّ مجلسه وهيبةَ حضوره كانت تدخِلُ الرّعبَ والخوفَ في نفوس السّفراء الأجانب.

فجأة، أمسك يدَه، وأخذَ يركض وهو يسحبُه خلفه، فدخل من باب مقوّس يقوم على أعمدةٍ مليئةٍ بالزّخارف والنّقوش قائلًا:

– مِن هنا كانت الوفودُ تفدُ على مجلس الناصر.

وخطا خطوتيْن للأمام، ثمّ قال:

– وتدخل هكذا وهُم منبهرون ومندهشون من عظمةِ الزّهراء وفخامتها.

وبقي السّحرُ يلفّ المكان، ويحيط بهما، ككرة بلوريّة ترى من خلالها عوالم مختلفة من الماضي السّحيق، إلى أنْ عاد الصّديقان بعد إتمام جولتهما إلى كاسترو ديل ريو، وكان الصّمت رفيقَهما الثّالث، وكأنّ كلًّا منَهما يسير

في عالمه الخاصّ، وعاد *بلاس* شخصًا آخر غير الذي كان قبلَ دخول مسجد قرطبة وزيارة الزهراء.

عادَ *بلاس* ليتابع فعاليات المؤتمر، وإحساسٌ جديد يغمره بالفخر والاعتزاز بإرثِ أجداده الأندلسيّين، فقد كانت جولتُه وروعةُ ما شاهد من عظمةٍ مازالت أحجارُها شاهدًا يروي عظمةَ تاريخها وعظمة مَن أسّسوها ومرّوا من هنا، نقطة فاصلة، ساهمتْ في نفض الغبار عن تربة جذوره وعن حقيقة هويّته، وعن الحضارة العظيمة التي ينتمي إليها.

كانت اجتماعاتُ المؤتمر مُثمرة، وأضافت الكثيرَ لأفكار بلاس، وأثناء فاعليتها تعرّف على *«غارسية بارياس»*، كان رجلًا مرموقًا، يتجاوز السّتين من عمره، ذا شاربٍ ولحية منمّقة شديدة البياض، يرتدي بدلة فخمة تدلّ على رقيّه، وكان كاتبًا وأديبًا، ويعرف بلاس من خلال مشاهدته له وهو يلقي خطاباته الحماسية بالنادي الثقافي بإشبيلية، وبعد حديثٍ شيّق دار بينهما نشأت علاقة ودٍّ سَرعان ما تطوّرت إلى صداقة شجّعت *غارسية* على دعوة *بلاس* ليرافقه إلى منزله ليقضي عطلة نهاية الأسبوع في ضيافته فوْر انتهاء المؤتمر. رحّب *بلاس* بالدعوة، ومع انتهاء المؤتمر اصطحبه *غارسية* معه في سيّارته الفخمة إلى بلدة *بينيافلور* القريبة من إشبيلية؛ حيث يسكن مع أسرته.

الفصلُ الثّالث

سهمٌ الحبّ

أمامَ باب المنزل، كانت زوجةُ غارسية وابنتُه في استقبالهم، فرحّبت الأمّ به بحرارة، أمّا الابنة *«أنغوثيات»*، فمنذُ اللّحظة الأولى التي التقت فيها أعينهما، أحسّ بلمعةٍ في مقلتيها النّجلاوين، وكأنّها سعيدة بلقائه، وأثناء تناولهم وجبةَ الغذاء التي أعدّتها الأمّ بإتقانٍ فائق كان *غارسية* يتكلّم ويحكي لهم عن أحداثِ المؤتمر والأصْدقاء القدامى الذين قابلهم بعد عمْرٍ طويل بفخرٍ واعتزاز، *وبلاس* يستمع إليه ويسترقُ النّظرة تلو الأخرى إلى *أنغوثيات* صاحبةِ العينيْن السوداويْن، كأنّها عيون المها، بذاك البريق المتلألئ فيهما، وكأنّ سحرَ الشّرق كلّه انحصر داخلهما، وقد زاد في ذاك السّحر والتألق تاجُها الأسود النّاعم الذي كانت خصلاتُه تداعب كتفيها في خجلٍ مستتر، ينسدلُ على جانبي وجهها القمحيّ اللون الذي يختزن فيه شموس مشرقة كستارة مخمليّة من الحياء.

أحسّ بلاس مِن تسارع دقّات قلبه أنّه رشقَ بسهم الحبّ في منتصفه، وأنّ سلطانَ الهوى دقّ بابَ هذا الفؤاد البريء وتربّع دونَ استئذان على عرشه، أمّا *أنغوثيات* فابتسمتْ عندما شعرت بنظراتِ *بلاس* المرتبكة.

وبعدَ أنِ انتهوا من الطّعام أكّد غارسية على ضيفِه أنْ يتصرّف بحرية كأنّه في منزله، ثمّ استأذنه ليذهبَ ليستريح من تعب الرحلة.

أمّا *بلاس* فخرجَ إلى الشّرفة المطلّة على حديقة المنزل ليستنشق الهواء، فوجدَ *أنغوثيات* جالسةً على كرسي خشبي، فوقفت مرحّبة به عند رؤيته قادمًا نحوها، ثمّ قالت:

- والدي شديدُ الإعجاب بك، كثيرًا ما كان يحدّثنا عنك وعن خطاباتك الحماسية الموفقة.

ردّ *بلاس* بحياء:

- هذا شرفٌ لي، فوالدُك رجلٌ أفتخرُ بمعرفته وباستضافته لي في منزله الجميل وبين أسرته اللطيفة.

وسَرْعان ما نشأ حديثٌ مملوء بالألفة بينهما، ومضى وقتٌ طويل، ونسي *بلاس* عناءَ السّفر من متعة الكلام مع *أنغوثيات*.

وفي صباح اليوم التّالي، وبعد تناول وجبة الإفطار، استأذنت أنغوثيات والدَها بأن تصحبَ بلاس في جولةٍ بالحديقة المحيطة بالمنزل، فوافق الأب، ورحّب بلاس؛ فخرجا على الفور، والأمّ تتابعهما من وراء النافذة والابتسامةُ المصحوبة بالقلق ترتسم على وجهها.

أخذا يتجوّلان ببطء، ثمّ توقّفت *أنغوثيات* وقالت له:

- ما رأيك في *بينيافلور*؟

ردّ *بلاس* قائلًا:

- بلدةٌ جميلة وهادئة، وأجمل ما فيها هو منزلُكم المملوء بالودّ والحبّ، أمّا أجمل ما في هذا المنزل فهو أنت.

ابتسمتْ *أنغوثيات* في خجل، وأدارت وجهَها فالتفّ *بلاس* حولها كي يراها وهو يقول:

- أتدرينَ أنّي لم أذقِ النّوم طوال الليل؟

سألته منزعجة قائلة:

- لماذا!! هل ضايقك أحدٌ بالمنزل؟

أجابها قائلًا:

- أزعجني قلبي الذي كان يخفقُ بقوّة ليبلغني بشيء لم يحدثْ لي من قبل.

قالتْ وهي تنظر إليه بخجل:

- بماذا؟

فقال:

- بأنّي أحبّ...

احمرّ وجهها، ونظرت للأرض وهي تقول:

- أبهذه السرعة؟

ردّ بلاس في الحال:

- المشاعرُ الصّادقة لا تحتاج لوقت طويل.

فقالت بتلقائيّة:

- أتّفق معك.

نظرَ إليها في عينيْها فسألها:

- تتّفقين مع كلامي، أم مع مشاعري؟

ابتسمتْ، ووجهُها يشعّ جَمالًا زاده الخجلُ فتنة، وقالت:

- لقد تأخّرنا؛ فلنعدْ إلى المنزل.

عادا إلى المنزل، ولكن ليس كما خرجَا، الآن عرفت مشاعره الصادقة الرّقيقة التي ولدت ونمتْ بسرعة، وعرف ترحيبَها ومبادلتها له هذه المشاعر الراقية.

فوْرَ عودة *بلاس* إلى إشبيلية، ومع لقائه الأوّل مع غارسية، دعاه لتناول مشروبٍ ساخنٍ بمقهى هادئ، وصارحه بأحاسيسه تجاه ابنته ورغبته في الارتباط بها، فرحّب الأب بسعادةٍ وحماس، فكان يرى في *بلاس* الابنَ الذي لم ينجبه، والذي يحقّق ما لم يكنْ متاحٌ له تحقيقُه في شبابه، ويترجم أحلامَه وأفكاره إلى واقع قابل للتنفيذ بشيء من الإرادة والتّوفيق وبعض التّضحيات، لكنّه صارحه أنّ عائلة زوجته لها موقفٌ غير مرحّب بنشاطه القومي، فهُم أحفاد *«أنطونيو بارياس كرة»*، الثري الكتالوني والذي ورثوا عنه تعصّبهم للكنيسة الكاثوليكية، ويروْا في تطلّعاته السّياسية مجابهةً لها، ولكنّ غارسية وعده بالتغلب على هذا الرفض وتمسّكه به كزوج مستقبليّ لابنته.

لكنّ تلك العقبة لم يكنْ من السّهل على غارسية أنْ يتجاوزها بتلك السّهولة، أو أنْ يقنع أهلَ زوجته بأنّ شابًّا أندلسيًّا سينضمّ إلى أسرتهم

الصّغيرة ويصبح فردًا منهم، وهو ليس أيّ شابّ عادي، فهو في الجهة المتمرّدة في نظرهم، الجهة التي ستزعزع وستؤثّر سلبًا على مصالحهم الشّخصية قبل المصلحة العامّة للحكومة الاسبانية التي يوالونها، شابّ يناضل بقوّة وصلابة إرادةٍ من أجل إحقاق الحقّ واستعادة كرامة الأندلسيّين بعد اضطهاد وتهميش دام طويلًا، وبعد استغلال الحكومات المتوالية لخيرات إقليمهم، وقمعٍ أهله، وسلبهم أبسط حقوقهم.

كانت تلك الأفكارُ التي تدور في رأسه، والتي صاحبته في طريق عودته إلى *بينيافلور* من مشادّات كلامية، ومقدّمات، وردّة أفعال من طرف أهل زوجته بخصوص هذا الموضوع تنغّص عليه فرحتَه بعثوره على شابّ صالح يصلح زوجًا لابنته الوحيدة، خصوصًا بعد أنْ أخبرته زوجتُه بأنّها لاحظَتِ الانجذابَ القوي بين ابنتها *وبلاس*، وأنّ *أنغوثيات* تبدو سعيدة بهذا، وهنا قرّر الأبُ المحبّ أنْ يدافع عن سعادتها، وأنْ يساندها ويقف في وجه زوجتِه المدعومة من أهلها، والتي استشعرَ من حديثها عن بلاس عدمَ رضاها عن الموضوع، ربّما لأنّها تعرف مُسبقًا كيف سيكون ردّ فعلِ عائلتها، ولكنّه عزم عند عودته على مفاتحة زوجته بالأمر، وإقناعها كي تسانده في إقناع أهلِها، لكنْ قبل ذلك سيزفّ الخبر الجميل لابنته الحبيبة أوّلًا.

وبالفعل، فوْرَ أنْ وصل منزله أخبرَ *أنغوثيات* برغبة *بلاس* في أن تصبح شريكة حياته، فكانت علاماتُ قبولها وسعادتها التي لم يفلحْ خجلها في إخفائها الدّافعَ الأكبر ليشرعَ في خوض غمار معركته مع معارضي هذه

الزّيجة، والتي انتهت برضوخهم لرغبته كأب، فتكلّل جهده بإتمام خطبة ابنته ببطلِه الأندلسي بكنيسةٍ قريبة من منزله في حضور أهلِ زوجته التي غطّت مشاعرُ سعادتهم بمشهد الشّابّيْن المحبّيْن على مشاعر اعتراضهم على هذا الارتباط.

ومع بداية شتاء عام 1919، شارك بلاس- بعزيمته المعهودة- في اجتماع «المجلس الإداري الأندلسي التّأسيسي» الذي كان يرأسه القيادي القومي الذي كان محطّ احترامه وتقديره *«ديونسيو باستور»*، وكان لهذا المؤتمر تأثيرَه الفعّال في تنامي الفكر القومي الأندلسي المتصاعد.

وكان بلاس يتردّد على منزل *غارسية* ليرى خطيبتَه وينعم بقضاء أجمل الأوقات بصحبتها بدعم ورعايةٍ من والدها، حتّى جاء يوم الـ 19من شهر فبراير لعام 1919ً فاجتمعت أسرةُ *بلاس* القادمة من قشريش وأسرةُ *أنغوثيات* وأهلُها والأصدقاء المقربّون إليهم في منزل غارسية الذي كان في أبهى زينته للاحتفال بزواج الحبيبيْن في جوٍّ تغمره الألفة والمحبة والسعادة.

مع انتظام حياةِ *بلاس* برفقة زوجةٍ ودودةٍ محبّة عاد هذا بأثرٍ إيجابي ملموس على أعماله الأدبية، فهي كانت دائماً ما تحفّزه وتشجّعه وتحرص على أنْ توفّر له الجوّ المثالي للبحث والكتابة، ولم يكن يعكّر صفو الودّ العائلي إلّا حضور عمّها في تجمّعاتهم الأسرية، والذي كانت مشاغل منصبه كعامل أشبيلية تمنعُه من الانتظام في زيارة أخيه، ولكنّ حضوره كان يربِكُ الجميع، فكان اتجاهُه السياسي مخالفًا لشقيقه *وبلاس*، ويرى

عبثيّة القضية الأندلسية، وكان نقاشُه معهما صداميًّا وليس تفاهميًّا، ولكن بلاس بحكمته وذكائه المعهود كان يتحاشى دائماً هذا الحديث وينسحب في هدوءٍ محافظًا على مشاعر غارسية الذي كان يكنّ له كلّ الاحترام.

في شهر مارس لنفس العام، عاود بلاس زيارةَ قرطبة لحضور «مجلس العلاقات بين المراكز الأندلسية»، ثمّ أقدم في منتصف نفس العام على خوْض منافساتِ انتخاباتِ مجلسِ النّواب في مقاطعة غسان تحت شعار «الدّيمقراطية الأندلسية»، وخلال حملته الانتخابية أظهرَ- بمنتهى الشّجاعة- أهدافَه المنشودة، فصرّح في منشورٍ انتخابيّ قائلًا:

- سيسترجع الشّعبُ والفلاّح الأندلسي أرضَه، أراد الذين يعيشون من دم الأمّة أم لم يريدوا، أراد ذلك الإقطاعيّون وزعماء السوء الذين يخاطرون بحياة الأمّة ويطردون جماهير الشعب الجائعة جسمًا وروحًا، الهاربة من ظلمهم، يشدّها الجوع والألم إلى الموانىء للهجرة أم لم يريدوا .

وأمامَ حشدٍ من أهالي غسان خطَبَ قائلًا:

- نريدُ حرية الأندلس داخل اتّحادٍ أيبيري، حتّى تتمكّن الأندلس من اختيار طريقة حياتها بنفسها، واختيار طريق تقدّمها بنفسها، دونَ أن يحكمها قانونٌ أجنبي عنها وعن مصالحها .

بهذه التّصريحات الجريئة، استعدى *بلاس* حكومةَ مدريد التي كانت تتحكم في نتائج الانتخابات عبر سيطرتِها المالية والإقطاعية ممّا ترتّب عليه خسارته في الانتخابات للمرّة الثانية.

وفي نفس العام، عاود المنافسةَ الانتخابية.. ولكنْ عن إشبيلية بعد أن كوّن ائتلافًا بين الجمهوريّين الاتحاديّين والقوميّين الأندلسيّين والاشتراكيّين المستقلّين، وحصل على 1331 صوتًا فقط، وبدأت السّلطة الحاكمة تكشف عن معاداتها لنشاطه مدعومةً من اليمين، فاتّهمته هو وأتباعَه القوميّين الأندلسيّين بالتآمر على أمن البلاد ووحدتها، ومنعتهم من دخول البرلمان بعد محاصرتهم بالشّائعات الكاذبة وشراء ضمائر الضّعفاء من أتباعهم، وتحريضهم على الاستهزاء من مبادئ القومية الأندلسية.

أثناءَ هذا النّضال السّياسي المتصاعد، كان *بلاس* يسخّر أوقات فراغه في الكتابة عن الشّخصية التي كانت تملك عقله وتستحوذ على إعجابه، ودائمًا ما كان يشعر بانتمائه لها؛ وهو المعتمد بن عباد.

شهد العامُ التالي لزواجه تقدّمًا هامًّا في حياته؛ حيث أسّس بلاس دارَ نشر ومكتبة *«أبانتي»* أو «التقدّم» تيمّنًا بما يحرزه من تقدّم في قضية بلاده، والتي قدّم من خلالها كتابه «**المعتمد ملك إشبيلية الأخير**» الذي خرج في صورةِ قصّة مسرحية، استطاع من خلالها التعريفَ بجذور الهوية الأندلسية الإسلامية، ودفعَ القارئ إلى التعاطفِ مع الإسلام والانتماء لحضارته، فكان صياغةً درامية لمتنٍ تاريخي اخترق فيه بلاس عصرَ ملوك

الطّوائف ليقدّم شخصيات أندلسية تتحرك في فضاء المسرحية خارجَ حضورها التّقليدي والمألوف في الكتب التاريخية، حيث تأخذ القارئ في رحلة تبدأ في مراعي الفضة بإشبيلية، في يوم سوق من أيام الرّبيع في النصف الثّاني من القرن الحادي عشر الميلادي، وتنتهي عند قبْر المعتمد بن عباد في بلدة أغمات بالمغرب في منتصف القرن الرّابع عشر الميلادي.

وقد حقّق هذا العملُ الأدبي نجاحًا ملحوظًا، وحاز اهتمامًا كبيرًا بين المثقّفين الأندلسيّين، فكان المعتمد بطلُ القصة ملكًا أصليَّ الانتماء الأندلسي، وآخرَ مَن مثّل المواطنة والثقافة التي عاصرها بجدارة ولمعان، وكتب لهذا العمل المُتقن النجاحَ والانتشار، ممّا شجعه على إصدار مجموعةٍ من الكتب كلّها تحمل صبغةَ وروح الأندلس، فأصدر مؤلّفه الثاني «**الشّاطئ وهيئة الأمم**» و«**ادّعاء الأندلس أمام مؤتمر السلام**» و«**الديكتاتورية التربوية**»، ويومًا بعد يوم أضحت مكتبة *«أبانتي»* بيتًا يجمع مثقّفي الأندلس؛ ممّا شجّع *بلاس* على تأسيس «**مركز الدراسات الأندلسي**».

وفي عام 1921، ظهر كتابان آخران *لبلاس* هُما «**قصص الحيوانات**» الذي من خلاله تجسّد الحيوانات أدوارَ البشر، فتحثّ القارئ على الارتباط بأرضه والدّفاع عنها، أمّا الكتاب الآخر فكان بعنوان «**الاختيار والدّين والأخلاق**» والذي أظهر إيمانَ بلاس بالإله الواحد الذي يرفض وجودَ وسيطٍ بينه وبين عباده، فبرز خلال صفحات هذا المؤلف

المبادئ الإسلامية التي ورثها بلاس عن أجداده، والتي طمست عبر قرون من القمع والاضطهاد، والتي تسكن في عمقِ وجدانِ كلّ أهل الأندلس.

لم يكدِ العامُ ينصرم بأيّامه التي تحمل أنينَ اضطراب الأوضاع السياسية في إسبانيا بين ثناياها، على أنّ ذلك لم يمنعْ من انتشار المراكز الأندلسية في مدنِ وقرى الإقليم، والتي أشاعت الفكر الأندلسي في شتى المجالات الثّقافية والاجتماعية في كلّ أرجاء الأندلس، وزادت آمال وطموحات القوميّين الأندلسيّين، كما بدأ *بلاس* يدرس إنشاء روابط ثقافية تشمل كلّ الأمّة الأندلسية الموجودة في مدن جنوب إسبانيا، وفي المهجر في بلاد المغرب العربي وأمريكا الجنوبية والمكسيك، وبدأ يخطّط لتفعيل هذه الرّوابط.

ولكنْ كان لهذا النّشاط السياسي المكثّف أثرُه السلبي على علاقته بزوجته التي كانت تخشى عليه من الأخطار المُحيطة به، كما كانت تشعر بغربة؛ فكانت تفتقد ألفتَه التي تعوّدت عليها في مستهلّ حياتهم الزوجية، والتي فقدتْها تدريجيًّا مع ازدياد أنشطة والتزامات زوجها، فالآنَ *بلاس* يقضي معظمَ وقته بين الاجتماعات والتّحضير للمؤتمرات والمؤلفات، ففي بداية شهر يوليو لعام 1922، وأثناء تجهّز *بلاس* لنقل عمله إلى بلدة إيسلا كريستينا التّابعة لمقاطعة ولبة والواقعة قرب الحدود البرتغالية هربًا من رقابة السّلطات الإسبانية التي بدأت تضيّق عليه؛ تفشّى الجفاءُ في علاقة الحبيبيْن، وسئمت *أنغوثيات* تجاهلَ *بلاس* لها، وانشغالَه المستمرّ

عنها؛ فقرّرت هجره رغم تعلّقها الشديد به، إذ ربّما عند غيابها يدرك تقصيره تجاهها، هكذا كان تفكيرها.

وأمامَ فشل جميع مساعي *بلاس* في إثنائها عن هذا القرار؛ اضطرّ أن ينتقلَ إلى إيسلا كريستينا بمفرده متأثّرًا بغياب حبيبته ورفيقة كفاحه، ولكنّ إحساسه بالمسئولية تجاه قضية وطنه أجبرتْه على المواصلة، ومع ذلك لم يمرّ يومٌ دون أن يبعث *لأنغوثيات* برسالةٍ بريدية مملوءة بعبارات الحبّ والعتاب الرّاقي، وكان يستعين بأبياتٍ لشاعر قرطبة البارع «ابن زيدون» في وصفِ حبيبته **ولادة بنت المستكفي** بعد أن يترجمها للإسبانية، لعلّها ترقّ وتعود إليه.

في الأشْهر الأخيرة من عام 1922، وأثناءَ تواجد *بلاس* في مكتبه الجديد، وصله خطابٌ من أخيه *إيغناسيو* يخبرُه بضرورة حضوره إلى مدريد؛ لأنّ والده اشتدّ عليه المرض ويرغبُ في رؤيته، فعاد مسرعًا إلى منزله، وأعدّ حقائبه.. ثمّ سافر إلى مدريد، ونزل بدار أخيه حيث يرقد والدُه طريحَ الفراش، وتمرّضه أمّه خنيثة.

وكان الوالدُ يشعر بدنوّ أجله، فأراد أن يختمَ حياته بين أسرته، فبوصول *بلاس* ارتفعتْ معنويّاته، وتحسّنت حالته لفترة، وتمكّن *بلاس*- بتشجيع من أهله- مِن استئجار مكتبٍ ليزاول به مهنةَ المحاماة في حيّ فوينكار القريب من منزل أخيه الذي سعى- بإيعازٍ من أبيه وأمّه- لإبعاد شقيقه عن الأندلس؛ خوفًا عليه من نتائج الصّراعات السياسية التي تعصف بالبلاد.

بيْدَ أنّ السّماء في ذلك اليوم الذي وافق الثّالث عشر من يناير عام 1923 محمّلة بالنّذر، وقد تلبّدت بغيوم حجبت ضوء الشّمس عن التسلل ليداعب أرضَ إسبانيا، وكأنّه يشاركها التخوّف من أحداث ذلك اليوم الذي تحوّلت البلاد إلى الحكم الدّيكتاتوري بعد سيطرة «*بريمودي ربيرا*» على مقاليد الحكم، والذي ترتّب عليه قمعُ جميع الحريات، فتمّ إغلاق أهمّ المراكز الأندلسية، كما تمّ استهداف القوميّين الأندلسيّين، وتوجيه لهم تهمةَ معاداة الدّولة، وتمّ تحْييد كلّ القوى المناهضة لسيطرة الكنيسة، وعجز بلاس عن متابعةِ الأحداث الجارية في الأندلس لالتزامه بمرافقة والده المريض.

وفي ليلة 24 من فبراير لعام 1923، استدعى الأبُ ابنيه *بلاس وإغناسيو* إلى غرفته، ودار بينهم حديثٌ مُمتع، حكى لهما فيه نوادر من طفولتهما، وذكر لهما تفاصيلَ كانت قد تبخّرت من ذاكرتهما، وصارحهما بمدى حبّه لهما، وتعلّقه بهما، وأنّه فخور بأنْ أنجب أبناء صالحين أحْسنَ تربيتهم وإعدادَهم لمواجهة صعاب الحياة ومتطلباتها القاسية.

ولكن في الصّباح تفاجأ الجميعُ بأنّه قد سلّم روحه إلى خالقها.

فحضرَ الأقاربُ من مالقة لتأبينِه، وبعد إتمام مراسم الدّفن اجتمعوا جميعًا في منزل *إغناسيو*، وطالبوا *بلاس* بتجنّب العودة إلى إشبيلية تحاشيًا لبطشِ الحكومة الإسبانية التي أضحتْ لا تعطي أيّ مساحة من الحرية لمعارضيها.

وافقَ *بلاس* على مطلب عائلته، ولكنّه أصرّ على البقاء في الإقليم الأندلسي الذي لا يقوى على فراقه، فعاد في شهر أغسطس من نفس العام إلى مكتبه ببلدة إيسلا كرستينا ليبعدَ عن البطش الذي كان يطول كلّ رموزِ وقيادات الأندلس، وتابع عملَه بها كموثق عدل، كما استطاع أن يوفّر مسكنًا مناسبًا في الحيّ الملكي القريب من الميناء، وانسحب من العمل السّياسي، ونصح أصدقاءه وأتباعه بذلك حتّى تهدأ الأوضاع.

لم يتوقّف بلاس ليلةً واحدة عن إرسال خطابٍ يغمره الودّ والمحبّة إلى حبيبته *أنغوثيات*.

وأثناءَ تواجده بالمنزل بعد أنْ عاد من عمله سمع طرقًا رقيقًا على الباب، ففتحه فوجدَها واقفة، وبجوارها حقيبةُ سفر، وتنظر إليه بعينيْها السّاحرتيْن اللّتيْن تحْبسُ فيهما دموع حنينٍ توشك أنْ تسقط على خدّيها، فوقفَ مذهولًا من المفاجئة، ولكنْ سَرعانَ ما تدارك نفسَه، ومدّ ذراعيه ليضمّها إليه، فارتمت في حضنه وانفجرتْ في البكاء.

فقال لها وهو يربّت على خصلات شَعْرها:

- *مي كريدا*، هوّني عليكِ يا حبيبةَ عمري، ها قد اجتمعْنا معًا مجدّدًا ولنْ يفرقنا أيّ شيء مرّة أخرى عدا الموت.

وسَرْعان ما عادَ الحبيبان إلى الألفةِ والمودّة التي كانت سمةَ بدايةِ حياتهما الزّوجية، كما بدءا بعد فترةٍ وجيزة يتأقْلمان على الحياة في هذه البلدةِ الهادئة التي كانت تطلّ على المحيط الأطلسي، فكانت غنية بثروتها السّمكية، وأيضًا الثّقافية، وباستعادة حبيبتهِ، ودون أن يقصّر في حقّها تهيّأ *لبلاس*

جوّ مناسبٌ للإبداع مكّنه من إنتاج أعمال أدبيّة مُتقنة، فأصدر مؤلّفه المسرحي «**المنصور**» الذي يروي سيرةَ الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر، وكتاب «**جذور الفلامنكو وأسرار كانتي هوندو**»، وهو كتابٌ برهنَ فيه عن الجذور الإسلامية للأغنية الفلامنكية والهوندية التي نشأتْ كتعبيرٍ سمعيّ وجسدي عن آلام وصيحات شعبِ الأندلس الذي قاسى من إرهابِ محاكم التّفتيش المجرمة، وتسلّط الدولةَ الإسبانية، فكانت هذه الفنون من خيوط الهويّة الأندلسية التي تربط حاضرها التّعس بماضيها المجيد، وعن طريق تواصله مع صديقِه خيل بن أمية بالخطابات التي كانت لا تنقطع بينهما، والذي كان يعمل صحفيًّا في جريدةِ *لا هيغوريتا*، تمكّن من نشرِ بعضِ مقالاته التي كان عائدُها يساعده على المعيشة، وكان من حينٍ إلى حينٍ يذهب رفقةَ زوجته لاستكشاف المناطقِ الحدودية المُتاخمة للبرتغال ليتحسّس الأماكن التي نشأ فيها المعتمد بن عباد، رفيق عقله ومُلهمه في كفاحه، وكان في أوقات فراغه يتردّد على كازينو اسمه «**الوحدة**»، الذي أطلق عليه اسمَ «**كازينو الفقراء**» بعدما لاحظَ ضيق حال روّاده.

فكان إنِ انْتهى من عمله؛ يعود إلى زوجته ويأخذُ القسطَ الوافر من الرّاحة، ثمّ يتوجّه إلى هذا الكازينو الذي كانت أجواؤه ملهمةً لكتاباته.

وأثناءَ ما كان منهمكًا في الكتابة على أنغام الطّرب الأندلسي الفلامنكي، سمع صوتًا يقول بلكنةٍ غريبة:

- أنا لا أصدّق عيناي.. هل أنا حقًّا أقف أمامَ دون *بلاس* إنفنتي شخصيًّا؟

رفعَ *بلاس* عينيه من أسفل نظّارته الصّغيرة، فوجد شابًّا متوسّطَ القامة أصلع، ذا شاربٍ مختصر، وعينيْن كأنّهما مروج الأندلس بلونهما العشبيّ المتألّق، فقال له:

- *ؤلا* ، مرحبًا بك.

ردّ الشابّ التحية وقال:

- أتسمحُ لي بالجلوس؟

جذبَ *بلاس* الكرسي المجاور له، وأشار له أن يجلس قائلًا:

- *بور سوبويستو*، بالتّأكيد، تفضّل.

جلس الشابّ، ثمّ قال:

- أنا *روبير سيراط*، من كتالونيا، وبالتّحديد من جيرونة، وأنا من أشدّ المعجبين بأعمالك الرّائعة ومقالاتك التي تحرّك حتّى أقسى القلوب، والتي تعدّت الحدود الأندلسية ووصل صداها إلى كتالونيا والباسك، ولاقت استحسانَ وتأييدَ كلّ الأوساط الانفصالية المطالبة بحقوقها المسلوبة في جميع أرجاء البلاد.

ابتسم *بلاس* وقال:

- *جراسياس*، شكرًا.. وأهلًا بك، ولكن أيّ رياح أتت بك إلى الغرب الأندلسي؟

أجاب *روبير*:

– عملي هو الذي أبعدني عن أوطاني وأحبابي كلّ هذه المسافة، فأنا أعملُ بالتّجارة بين بورتو وطنجة.

هنا أعطى *بلاس* كلّ اهتمامه *لروبير* فقال:

– إذًا تزورُ المغرب؟

ردّ *روبير*:

– سي، دون *بلاس*، نعم؛ فعملي يجعلني أتجوّل دائمًا بين أعمدة هيراقل، فقدَمٌ عند نهاية أوروبا والأخرى عند بداية أفريقيا.

فسأل *بلاس* بفضول:

– وما رأيُك في المغرب؟

أخذَ *روبير* نفسًا عميقًا، وكأنّه يستحضر طيفًا جميلًا، ثمّ قال:

– سأحدّثك عن طنجة التي أعرفها جيدًا، فلم تتَح لي الفرصة لزيارة مكانٍ آخر سوى ميناء *كازابلانكا* ولم أدخل مدينته، أمّا طنجة، فما أجملَها من مدينة، فهي إكسيرُ الحسن الذي يلتحف بروح الشّرق السّاحر وأصالته، والذي سكب عليه أرقى عطور الغرب فنتج عن هذا المزيج رائحةٌ تأخذ بالألباب، وتسكن العقول والقلوب، تشاهد فيها فنَّ المعمار الأندلسي الإسلامي مع روْعة البناء الإسباني المعاصر.

قاطعَه *بلاس* وقال:

– موى بيان، رائع، ولكنْ ألا تتمنّى زيارة مدنٍ أخرى في أعماق المغرب؟

أجاب *روبير* بحماس:

– سي، بالتأكيد؛ فالمغرب بلادٌ جميلة، ويقولون إنّ لكلّ مدينة من مدنها سحرَها الخاصّ ومذاقَها المميّز وشخصيّتَها الفريدة.

نظرَ له *بلاس* نظرةً يائسة، ثمّ قال:

– ولكنْ للأسف.. من الصّعب زيارة هذه البلاد في ظلّ الحرب المحتدمة في الرّيف المغربي بين عبد الكريم الخطابي ورجاله وجحافل الجيش الإسباني والفرنسي.

اعتدلَ *روبير* في جلسته، وقال بثقة:

– دون *بلاس*، إنْ عقدت العزمَ على القيام بزيارة المغرب فبإمكاني تدبيرُ طريقة آمنة لانتقالك إليها، كلّ ما عليك هو السّفر معي إلى لشبونة، والإبحارُ منها إلى الجنوب بحريّة، فالبرتغال محايدة في هذا الصراع القائم.

هنا ارتسمت على *بلاس* علاماتُ الفرح، فقال:

– أنا فعلًا أحلم بزيارة هذه البلاد منذ زمن، إذًا نتقابل غدًا هنا في نفسِ هذا الميعاد لنخطّط لهذه الرحلة.

ردّ *روبير* بابتسامةٍ ممزوجة بعلامات الفضول:

– *داكويردو*، اتّفقنا دون *بلاس*، ستجدني في انتظارك.

عادَ *بلاس* إلى منزله، وفوْر دخوله احتضنَ أنغوثياث، وقال لها مبتسمًا:

- *فوي آ إير آ إل*، سأذهب إليه.

ثمّ دخل غرفةَ مكتبه مسرعًا، وهي تتبعه بفضولٍ وتقول:

- مَن هو؟

فأمسكَ بكتابه «**المعتمد ملك إشبيلية الأخير**»، وقال:

- أخيرًا وجدت وسيلةً للعبور إلى المغرب، سأذهب إلى أبي القاسم ابن عباد.

اختفتْ علاماتُ الدّهشة من وجهها، ثمّ قالت:

- *موى بيان*، جيّد جدًّا، هذا حلمك القديم، ولكنّي أخشى عليك من هذه المغامرة.

قال لها وهو يربّت على كتفها برقّة:

- اطمئنّي، وجدت حلًّا لهذه المعضلة، ولكنْ ما هذه الرائحة الطيبة؟

قالت بدلال:

- العشاء كادَ يبرُد.

فقال لها:

- إذًا إلى العشاء يا محبوبتي.

وفي جوف الليل، بقيت عينا *بلاس* معلّقتيْن بالنافذة وهو يتخيّل رحلته إلى المغرب، ويرسم تفاصيلها في خياله، حتّى استطاع النّومُ بعد عناء طويل أن يتغلب عليه.

وفي مساء اليوم التّالي، توجّه *بلاس*- بنشاط- إلى الكازينو في الميعاد المتّفق عليه، فوجد *روبير* واقفًا عند مدخله ممسكًا بحقيبة جلدية لونُها بنيّ داكن، وما إنْ لمح *بلاس* حتّى قال:

- *هولا هولا* ، مرْحب دون *بلاس*، ما أدقّ مواعيدك!

ردّ *بلاس*:

- أهلًا صديقي الكتالوني، تفضّل بالجلوس.

وفوْرَ جلوسهم بادرَ *روبير* بالحديث:

- دون *بلاس*، أنتَ رجلٌ عملي، وتحرّكاتك دائمًا محسوبة، ولست الشّخص الذي يستهلك وقتَه في السّياحة والتجوّل، إذًا ما هو سرّ رغبتك الشّديدة في زيارة المغرب؟

رمقه *بلاس* بإعجاب، ثمّ قال:

- سؤال ينمّ على فراسة صاحبه، هذا هو الرّفيق المثالي لرحلتي، فإليك جوابي على سؤالك، لقد قرّرت أن أستأنفَ الرحلات التي قام بها آباؤنا الأندلسيّون لفترةٍ من الزمن إلى ضريح واحد من أهمّ الأفراد الذين مثّلوا روح أرضنا، الأندلس، المعتمد بن عباد الملك الحقيقي لإشبيلية، قرطبة، مالقة، ومناطق الغرب البرتغالية، لعلّ آخرَ مَن زاره هو ابن الخطيب وزيرُ سلطان غرناطة في القرن الخامس عشر، هناك حقائق أبحثُ عنها من سنين، وعندي يقينٌ أنّي سأجدها في أغمات؛ حيث يرقد ملكي في سلامٍ بين أحفاده، إخواننا الأندلسيّين.

نظرَ إليه *روبير* بإعجاب قائلًا:

– فهمتُ الآن، إذًا فلنذهب إلى المغرب لتصلَ إلى غايتك النبيلة، وأستمتعُ أنا بصحبتك، وباكتشاف هذه البلاد الجميلة.

ثمّ فتح حقيبته وأخرجَ منها ورقة كبيرة ووضعَها على الطاولة، فكانت خريطةً مفصّلة لمنطقة إسبانيا والبرتغال والمغرب، وبدأ يشير عليها بأصبعه بجديّة خطَّ سيْر الرّحلة، وهو يقول:

– سنتحرّك من هنا إلى لشبونة، ومن مينائها سنُبْحر على متن باخرة ركّاب إلى مدينة كازابلانكا، ومنها سنأخذ القطارَ المتّجه إلى مراكش.

فقاطعه بلاس مستفسرًا:

– وكيف نصل إلى أغمات؟

ردّ *روبير* بثقة:

– بالتّأكيد سأجد لك وسيلةً لبلوغ أغمات، فكما ترى على الخريطة هي لا تبعدُ عن مراكش سوى بضع كيلومترات.

ارتسمَ على وجه *بلاس* نظرةُ تقدير *لروبير* وقال:

– أحسنتَ يا صديقي.

واتّفقا على ميعاد الرّحلة ليكون الثّاني عشر من سبتمبر لنفس العام 1924، واستمرّت جلستهم في مناقشةِ بعض تفاصيل وترتيبات الرّحلة.

الفصلُ الرّابع

إلى المغرب

مرّتِ الأيام، وجاء صباحُ اليوم المتّفق عليه، فتوجّه *روبير* إلى منزل *بلاس* الذي كان يقفُ مع زوجته في انتظاره عند الباب، وفوْر وصوله استدارَ *بلاس* إلى *أنغوثيات*، ونظر إليها بحنان وقال:

– *مي آمور*، حبيبتي، أشكرُك على دعْمك لي، ستكون صورتك الجميلة دائما مرسومة أمام عينيّ، سيكون صوتُك ونيسَ عقلي في رحلتي، وسينبض حبّك مع دقّات قلبي، سأحرص على العودة سريعًا، فلتكوني في انتظاري.

نظرتْ إليه بعينيها البرّاقة محاولةً أن تخفي قلقَها وخوفَها عليه، وقالت:

– أنا معك أينما ارتحلت.

ثمّ ازداد لمعانُ عينيْها من أثر دمعةٍ محبوسة في قبضة رموشها السوداء فقالت:

– كنْ شجاعًا، حقّق هدفك، ولكن تجنّب المخاطر.. وعدْ إليّ ظافرًا بحلمك القديم، وستجد حبيبتك في انتظارك تعدّ الدّقائق والساعات من لحظة مغادرتِك حتّى وصولك بسلام الله.

قبّل رأسَها برفق، ثمّ قال لها:

-*آستا برونتو مي كريدا موخير*، سرعان ما سأعود إليك يا زوجتي الحبيبة.

ثمّ غادر مسرعًا إلى السّيارة لينهي معاناةَ الوداع، فركب بجوار *روبير*، ومِن نافذة السّيارة رمقَها بابتسامة تشعّ حبًّا وشوقًا، فوجدها تمسح الدمعة التي سقطت رغمًا عنها وهي تبتسمُ له ملوّحةً بيدها برقّة.

تحرّكت السيارة مُبتعدةً، وعينا *بلاس* معلّقتان بزوجته حتّى اختفى المنزل بين أشجار الطّريق مُعلنًا بداية الرّحلة إلى لشبونة.

مرّ الوقت، وبلاس مُقلٌّ في الكلام مع *روبير*، فكان عقلُه مزدحمًا بالأفكار، بين زوجته التي تركها وحيدةً والأحداثِ المضطربة في إسبانيا، وما هو مُقْدم عليه في رحلته التي لا تبعد عن كوْنها مغامرة، أمّا *روبير* فكان منشغلًا بقيادة السيارة، وبفراسته.. أدرك أنّ رفيقة يحتاج إلى التأمّل فآثرَ الصّمت.

مرّتْ ساعات السّفر على هذا النّمط حتّى عبرا الحدود إلى البرتغال فبدأتْ تظهر على الطريق بلداتٌ أندلسية جديدة على *بلاس*، فأصبح كالطّفل يرمق كلّ بناءٍ أو تجمّع يمرّا عليه بفضول حتّى بدتْ ملامح مدينة لشبونة تظهرُ في الآفاق، وبعدها دخلا بالسيارة بين طرقات المدينة التي تأخذ في الارتفاع والانخفاض كحروف النّوتة الموسيقية في تناغم خلّاب مع ألوان البنايات المتدرّج كاللوحة السريالية المتقنة، يطغى الطّابع الأوروبي لمنشآت المدينة على نظيره الأندلسي، بعكس

المدن التي عاشَ بها بلاس كمالقة وغرناطة وإشبيلية، ورغم ازدحام المدينة كان يسودها هدوءٌ ساحر لا يعكّر صفوَ المستمتع بمشاهدة جمالها. مرّ روبير بالسّيارة على قلعة *سان* جورج الشهيرة، ثمّ توجّه صوب مطعم *الافاما* بالحيّ العربي العتيق المواجه للميناء وهو يقول *لبلاس*:

– لا يمكن لزائرِ لشبونة أن يفوّت فرصة تناول وجبة *الباكالاو* الشّهية المكوّنة من حساء الخضار وسلطة الخضار وسمك القد المملّح، فهي أشهر وجبةٍ في البرتغال، فهنا يعدّون أفضل أطباق منتجات البحار في أوروبا كلّها.

بعد تناولِهما وجبة الغذاء قال *روبير*:

– فلنتناول الشّاي الساخن حتّى يصل صديقي المغربي خليل، فهو الذي سيدبّر لنا مكانًا على متْن السّفينة المُبحرة إلى *كازابلانكا* هذا المساء كما نسقّت معه في آخر اتّصال هاتفي دار بيننا.

ردّ *بلاس* مبتسمًا:

– كلّما يمرّ الوقت يزداد إدراكي أنّي أحسنت اختيار الرفيق؛ بل المدبّر والمنظّم لهذه الرحلة، ولكن قلْ لي: هل تعلم أنّ تسمية الوجبة التي تناولناها يعودُ لأصلٍ عربي؟

ردّ *روبير*:

– لا لمْ أكنْ أعلم، ولكن ما أريدُ أن أعرفه دون *بلاس*، ما سرّ اهتمامك بكلّ ما هو عربي؟

اعتدلَ *بلاس* في جلسته، وأجابه قائلًا:

- استفسارُك السّريع هذا ليس له إجابة مختصرة عندي، سنحتاج وقتًا طويلًا لأسردَ عليك ردًّا مقنعًا.

فقال *روبير* وكلُّه فضول:

- ونحنُ نملك الوقت بما أنّنا أسيريْ هذا المطعم إلى أنْ يصل خليل.

فنظرَ إليه *بلاس* معجبًا بإصراره ثمّ قال:

- إذًا سأجيبك، إنّها قصّة طويلة ممتدّة عبر مئات، بل قلْ آلاف السّنين، تبدأ أحداثُها منذ ألف عام قبل الميلاد في الفترة التاريخية المسمّاة بالعصر الحديدي، عندما جاء قومٌ من الجنوب من القسم الأفريقي من البحر المتوسط ودخلوا شبه الجزيرة الإيبيرية واستوطنوا أجزاءها الجنوبية والوسطى وحول حوض نهر أيبيرة، ثمّ تمّ تعميم اسمهم بالأيبيريون على شبه الجزيرة كلها، وكان قد سبق قدومَهم شعبٌ آخر هو التريسوس الذين جاءوا من جزرِ البحر المتوسط وبلاد اليونان، وسكنوا حوض الوادي الكبير في العصر البرونزي، وكانوا من نفس جنس الأيبيريين، وكانوا مسالمين ويعْرفون الكتابة، وهم مَن ابتدعوا مصارعة الثيران، وكانوا أرقى شعوبِ غرب أوروبا في هذه العصور المبكرة، ثمّ جاء وافدٌ جديد من وسط أوروبا وهُمُ السلت، فدخلوا البلاد من ناحية الشّمال مخترقين جبال البرت، وتصارعوا في البداية مع الأيبيريين، ثمّ استقرّت الأمور بينهم، وتزاوجوا في ما بينهم في الأجزاء الوسطى من شبه جزيرتنا، وأطلق عليهم بعد اندماجهم السّلت الأيبيريين، وأنشئوا عاصمةً لهم

سمّوها *نومانثيا*، أمّا بقية أطراف شبه الجزيرة فبقيتْ مقسّمة بين قبائل سلتية وأيبيرية وترتيسوسية، واستمرّ الوضع هكذا حتّى وصلت بشائر أهل الشّام.....»

قال *روبير* متعجّبًا:

- أهل الشام؟

فرَدّ *بلاس* قائلًا:

- نعم، إنّهم الفينيقيّون الكنعانيّون العرب القدامى، فبعد أنْ أسّسوا مدنًا تجاريّة على طول السّاحل الجنوبي للبحر المتوسط، عبروا إلى شبه الجزيرة واستوطنوها، فكانوا أوّلَ شعب متمدّن يعمر هذه الأرض، فهُم مَن أسّسوا مدينة ترشيش، وهو اسمٌ عربي قديم يعني في القاموس السّرياني الحجرَ الكريم أبيضَ اللون، والتي على أنقاضها بُنيت مدينة *جادش* الباقية حتّى اليوم والمعروفة باسم قادس، والتي تعني الحظّ والبركة، وهُم أيضًا مَن بنوا قرطبة وتعني القرية الطيبة، وغرناطة وتعني الشّمس المشرقة، وبما أنّ السّاحل الغربيّ لبلادنا الذي تراه الآن كان نهايةَ امتداد حضارتهم فقد أطلقوا عليه اسمَ سفا؛ أي شفا، ويعني بالعربية حدًّا أو طرفًا، وكانوا ينطقون الفاء باء؛ فأطلقوا على الفينيقيّين الذين شيّدوا المدنَ والمرافئ هنا اسمَ إسفان، والنّون للجمع؛ أي إسبان المستخدم الآن»

وتابعَ *بلاس* كلامَه قائلًا: «يا صديقي، إنّ بلادنا منذ القدم جزء من المشروع العربي القديم بجعل البحر المتوسط بحيرة فينيقية، فكانوا

أوّلَ مَن أقاموا في بلادنا حضارة ومدن وموانئ، وتزاوجوا مع أهل شبه الجزيرة الذين كانوا لا يزالون في العصر الحجري القديم، فارتقوا بهم إلى المدنيّة، وبقيت العربية القديمة هي لغة الحضارة في هذه البلاد، وهذا يا صديقي ما تكرّر مرّة أخرى مع قدوم العرب في ثوب الفتح الإسلامي ليخرجونا من عصور الظّلام إلى ريادةَ أوروبا كلّها.

أنهى *بلاس* كلامه، فوجد *روبير* منبهرًا من كمّ هذه المعلومات التي تلقّاها فقال:

– دون *بلاس*، من الواضح أنّك تلمّ جيدًا بتاريخ بلادنا، والحقّ.. يُعجبني أسلوبك السّلس في سرد الأحداث، فإني أطمع أنْ أستغلّ الوقتَ في أنْ تكمل لي ماذا بعد الفينيقيين حتّى الوصول الثاني للعرب الفاتحين.

ردّ *بلاس* مبتسماً:

– لا عليك يا صديقي، فأنا أعرف جاذبيّة التاريخ، سأكمل لك بكلّ سرور، ... في عام 639 ق.م جنحت سفينةُ أحدِ البحارة اليونان حتّى وصلت به إلى أعمدة هيراقل، مضيق جبل طارق الآن، فعبرَ بسفينته المضيقَ إلى ساحل شبه الجزيرة من ناحية المحيط الذي نطلّ عليه من مجلسنا هذا، حتّى وصل بسفينته إلى مصبّ نهر الوادي الكبير بالقرب من مدينة قادس، وتمكّن من جمع ثروة كبيرةٍ من البضائع التي جلبَها من هنا من كئوس برونزية وفضة ونحاس، وبعدها توالت وفودُ الإغريق محاولين منافسةَ الفينيقيين في تأسيس مراكزَ تجارية لهم في بلادنا، إلّا أنّهم فشلوا

واكتفوا بتأسيس مدينة *مرسيلية* بفرنسا، وبقي تحت سيطرتهم بعضُ المواقع في بلادك *قوطونية*، بعد ذلك أسّس الفينيقيون مدينة قرطاجة في تونس الحالية كمحطّة توقّف؛ حيث حازت على إعجابهم فطوّروها حتّى أصبحت زاهرةً، وسرعان ما قويت وتحوّلت إلى عاصمةٍ لإمبراطورية سيطرت على غرب البحر المتوسط لعدّة قرون. ولمّا كانت المدن الفينيقية هنا تشعر بالعزلة فقد استدعى سكّانها إخوانهم القرطاجيّين للعيش معهم، فسرعان ما سيطروا على البلاد، وأصبحوا أسيادَها، وبسطوا نفوذهم على جميع السّواحل الشرقية ووسط شبه الجزيرة بطريقة سلمية حيث اختلطوا بالسكّان وتزاوجوا معهم وعقدوا معهم معاهدات ودٍّ وصداقة، كما انتزعوا جزرَ البليار من الإغريق بعد معركة علالية سنة 535 قبل الميلاد، وكانت إبيزا أهمَّ قواعدهم في هذه الجزر.

ثمّ ظهرت على السّاحة قوّة عُظمى جديدة هي الإمبراطورية الرّومانية، والتي رغبت في التوسّع ومنافسة القوة القرطاجية في الحوض الغربيّ للبحر المتوسط، كما سعَتْ لوقف التوسّع الترابي القرطاجي؛ ممّا أدّى إلى الصّدام بين القوّتيْن من خلال ثلاثة حروبٍ ممتدّة سُميت بالحروب البونية التي بدأت عام 264 قبل الميلاد وانتهتْ بتدمير قرطاجة وإحراقها، وأثناء هذه الحروب قامتْ روما بغزو بلادنا وضمّتها إلى أملاكها سنة 207 قبل الميلاد، فأصبحت شبه الجزيرة مقاطعةً رومانية، وتمّ إجلاء القرطاجيّين منها، ولكنّ سكّان البلاد قاوموا هذا الغزو، وخاضوا حربيْن ضدّ الرّومان؛ الأولى سنة 167 والثانية سنة 154 قبل الميلاد، فشهدتْ هذه الحروبُ قسوةً مُفرطة

من الرّومان ومذابح ضدّ المدنيّين، وبعد إحكام سيطرتهم على البلاد نقلوا إليها ثقافتهم وفنونهم، وصبغوها بالصّبغة اللاتينية بهدف إفقاد السكان الأصليّين لغتهم الأمّ، واستمرّ هذا التحويل حتّى عام 19 ق.م بعد ذلك ظهرتِ المسيحية في البلاد على يد مبشّرين، كان أولهم الحواري شنت ياقب المدفون حاليًا في مدينة *سانتياجو* التي سميت باسمه تقديسًا له، ولم يكتملِ انتشارُ هذا الدين في البلاد إلّا عام 312 ميلاديّة، ومع بداية ضعف وانهيار الإمبراطورية الرومانية بدأت قبائلُ البرابرة الجرمان في اختراق حصونها الشمالية وانْهالوا على الأراضي الإيطالية انهيالَ السّيول، وبعدها عانت روما من الحروب الأهلية، وفي القرن الثالث الميلادي عبرت هذه القبائل إلى أراضي فرنسا، ثمّ إلى إسبانيا، وأوّل مَن وصل بلادنا مِن هذه القبائل هُم الوندال، ثمّ لحقت بهم قبائل السّويف، ففي عام 409 م عبروا جبالَ البرت، وانتصروا على القوّات الرومانية، ثمّ توغّلت جموعهم في بلادنا ناشرين الرّعب والخراب وسفك الدماء والحرائق؛ ممّا خلّف الأوبئة والمجاعات، ومات عددٌ لا يحصى من السّكان، ثمّ قسّموا البلاد فيما بينهم، وبعد ذلك دعمت روما القوّة الجديدة المتمثّلة في القوط الغربيّين الذين انتصروا على الوندال والسويف، وأجبروهم على النّزوح إلى شمال إفريقيا عام 429 ميلاديّة، واستتبّ الأمر للقوط بعد أن ضمّوا مملكة السويف إلى مملكتهم عام 585 للميلاد، وأصبحت شبه الجزيرة كلّها مملكةً موحّدة تحت الحكم القوطي، واتّخذوا مدينة ماردة عاصمة لهم، ولكنّهم صادفوا معارضةً من سكّانها الكاثوليك حيث كان القوط يتبعون المذهب الأريوسي الذي يؤمن بالطبيعة الإلهية الواحدة، وكان

قد ظهرَ خطرٌ آخر تمثّل في نموّ قوى البيزنطيين الذين بسطوا سيطرتهم على كلّ الشمال الأفريقي، ثمّ تطلّعوا نحو إسبانيا؛ فبسطوا نفوذَهم على الجنوب والجنوب الشّرقي للبلاد ممّا دفع القوط لنقل عاصمتهم إلى طليطلة بعيدًا عن خطرهم حتّى استطاعوا بعد سبعين عامًا استردادَ ما احتلّه البيزنطيّون، وبعدها بعامين- وبالتحديد سنة 587 م- حوّل الملك القوطي الدولة من المذهب الأريوسي مذهب القوط الأقلية إلى الكثلكة مذهب الأكثريّة سعيًا منه لتفادي تكرار المشكلات بين السّلطة والكنيسة، وفي الوقت الذي تمّت فيه فتوحاتُ المسلمين لبلدان الشمال الأفريقي كان قد دبّ الضّعف والانحلال في دولة القوط حيث كان نظامُ الحكم ملكيًّا بالانتخاب، فكان يتجمّع النبلاء ورجال الدين بعد وفاة الملك لاختيار خليفة له، ونظرًا لطبيعة القوط القبليّة سعى بعضُ الملوك لتحويل النّظام إلى وراثيّ ممّا فتح بابًا للطامعين في الحُكم للتّنافس، حتّى تحوّل تاريخُ المملكة القوطية في أواخر عهد دولتهم إلى سلسلةٍ من الدّسائس والمكائد والصّراعات الدّاخلية، ممّا أضعف وأنهكَ البلاد حتّى اعتلى عرش البلاد *رودريك* آخر ملوكهم، والذي آلَ إليه الحكمُ في الوقت الذي وصل فيه المسلمين إلى أوْج فتوحاتهم في الشّمال الأفريقي، وسيطروا على بلاد المغرب الأقصى جميعًا عدا مدينة سبتة التي استعصت عليهم، ثمّ بعد ذلك...

فقاطعه *روبير* بصوتٍ مرتفع مستَبْشرًا، فقال:

- ثمّ أخيرًا وصل صديقي العزيز، خليل دو طنجة في موعده كما عوّدني دائمًا، مرحبًا بك صديقي، دعني أعانقك.

فعانقه خليل وهو مبتسم، بينما كان *بلاس* يفحّصه بنظرات خاطفة، فهو شابّ في أواخر الثّلاثين، يرتدي زيًّا أوروبّيًّا، ولكنّه لا يخفي ملامحه المغربيّة الأصيلة الممزوجة ببعض السّمات الأندلسية، حيث كان له عينان لونُهما مزيج بين الأخضر والبنّي، شعرُه ناعم يغطّي أذنيه، وجبهته وبشرتُه قمحيّة اللّون، رشيقٌ ومتوسط الطّول، يجيد الإسبانية ولكنْ بلكنةٍ عربيّة محبّبة، وضحَتْ وهو يقول:

- *ؤلا* ، أهلًا بك صديقي *روبير*، وأهلًا بك دون *بلاس*، تمنّيت لقاءك من كثرة حديث *روبير* عنْك في الفترة السابقة.

قال *بلاس* وهو يسحبُ الكرسي المجاور له:

- تفضّل بالجلوس.

فَردّ خليل:

- *لو سينتو دون بلاس*، لا وقتَ لدينا، يجب أن نتحرّك حالًا لنضع السّيارة في المرءاب المجاور للميناء، ثمّ نتوجّه مباشرة للسفينة قبل أن يسرقنا الوقت، فكلّ شيء جاهز في انتظار وصولكم.

فهَمّ *بلاس* واقفًا وهو يقول:

- إذًا، هيّا بنا يا رفاقي.

فحدّث خليل نفسه بصوتٍ منخفض بالعربية قائلًا:

- توكّلنا على الله.

فسمعَه *بلاس* حيث كان يفهَمُ الكثيرَ من الجُمل العربية بحكم دراسته وتعمّقه في الثقافة العربية الإسلامية قبل وأثناءَ تأليفه كتابه عن المعتمد، فأخذ يفكّر أثناءَ توجّههم إلى الميناء في مدى بساطة ودقّة ومغزى هذه الجُملة التلقائيّة التي تلخّص معاني إيمانية عميقة، فوجد نفسه يقول في سرّه:

- *سي ديوس*، نعم ربّي، توكّلنا عليك يا الله.

صعد الشّبان الثلاثة على متن السفينة، *وبلاس* يشتعل حماسًا من الداخل فهذه هي المرّةُ الأولى التي يُغادر فيها بلادَه وشبه الجزيرة الإيبيرية، وإلى أين؟ إلى مثوى رفيقِه الدّائم من الزّمن الموازي لزمنه «المعتمد بن عباد»، «نعم.. إنّها رحلةُ البحث عن اليقين، الحقيقة التي تراكم عليها الغبارُ لعدّة قرون، وحان وقتُ استخراجها ومعرفتها حقّ المعرفة...» هذا ما كان يحدّث *بلاس* به نفسّه أثناء تواجده في الغرفة الصغيرة المشتركة بينه وبين رفيقه الكتالوني التي دبّرها لهم خليل على ظهر السفينة، وهو ينظرُ للميناء من نافذةِ الغرفة الصّغيرة المستديرة، بينما يقوم *روبير* بترتيب أغراضه ووضْعِ حقائبه بالطّريقة المعتادة، فكان يداوم على هذه الرّحلة بحُكم عمله مع خليل، وأثناءَ ما بدأت السّفينة في التخلّص من شوامى الرّباط على رصيف الميناء معلنةً بدء الإبحار إلى الجنوب طرق خليل باب الغرفة الصغيرة، ففتح له *روبير*، فقال خليل:

- كلّ شيء على ما يرام؟

فرَدّ *بلاس*:

- نعم سيّد خليل، *موتشاس جراسياس*، أشكرك على كلّ شيء.

فرَدّ خليل:

- *دنادا دون بلاس*، لا داعي للشّكر؛ فهذا واجبي تجاه صديقي ورفيقي المحترم، فلتأخذا قسطًا من النوم والرّاحة، وغدًا صباحًا ستجدونني في انتظاركم لنتناول طعام الإفطار معًا، ثمّ ننعم بالجوّ المُشْمس على سطح السفينة وسط نسائم المحيط.

الفصلُ الخامس

أنا معافري

استيقظَ بلاس في صباح اليوم التّالي وكلّه نشاط، وأسرع في ارتداء ملابسه، فكان يتوقُ لمشاهدة الصّباح كيف يكون وسط المحيط، فصعد إلى سطح السفينة رفقة *روبير*، فوجد «خليل» في انتظارهم، وفوْر أن رآهم قال لهم:

- *بوناس دياس دون بلاس اي دون روبير*، صباحكم جميل.

فردّوا عليه التحية، ثمّ أرشدهم إلى قاعة الطّعام، وبدأوا في تناول وجبة الإفطار وسط جوّ خلّاب هادئ، لا يتخلّله إلّا أصوات طيور النورس التي ترافقُ الرّحلة محاولة التقاط أيّ طعام يسقط في البحر مع صوت التّوربينات البخارية المحرّكة للسفينة.

وبعدَ انتهائهم من تناول وجبة الإفطار دعاهم خليل لتناول القهوة في مكانٍ كان قد اختاره لهم بالقرب من مؤخّرة السفينة، وعند جلوسهم بادر خليلٌ بسؤالٍ وكأنّه كان قد جهّزه *لبلاس* منذ علمه بنيّته القيام بهذه الرّحلة، فقال:

- دون *بلاس*، ألا ترى أنّه من الغريب إقدامك كإسباني على رحلة كهذه في عمق المغرب في ظلّ تفجّر الأوضاع واحتدام المعارك بين القائد عبد الكريم الخطابي والقوات الإسبانية والفرنسية في الرّيف المغربي؟

فنظرَ له *بلاس* نظرةً فاحصة، وكأنّه يريد أن يتأنّى في الإجابة، ثمّ قال:

- سيّد خليل، أوّلًا أنا لست إسبانيًّا، «أنا أندلسي»، ثانيًا كلّنا يعلم أنّ الوجود العسكري الإسباني في بلادكم وجودٌ استعماري ليس للمدنيّين في بلادنا أيّ ارتباط به، بل بالعكس نحن كأندلسيّين ضحايا لهذا الطّمع الاستعماري مثلكم تمامًا، ويربطنا بكم روابط الدّم والأصل والمصير المشترك، فإنْ فتّشت في أصولك وأصولي فربّما تجد درجةَ قرابة ما بيننا، أو ربّما كان أجدادي رفقاء لأجدادك كما نحن رفقاؤك في هذه الرحلة الرّائعة الآن.

فرَدّ خليل:

- نعم، أتّفق تمامًا معك، فالقرى والبوادي الممتدّة من حدود مدينتي طنجة شرقًا إلى حدود تطوان امتدادًا حتّى مدينة شفشاون تنتمي معظمُها لقبيلة أنجرة الأندلسية، فعندما نزح أفرادُها من الأندلس استقرّوا بهذه الفيافي الخضراء الممتدّة على طول الشواطئ الجنوبية لمضيق جبل طارق لتشابهها مع سهول وهضاب غرناطة وإشبيلية وباقي مناطق الجنوب الأندلسي التي جاءوا منها منتظرينَ عودتهم يومًا ما إلى موطنهم الأصلي، والكثير منهم مازال يحتفظ بمفاتيح دار أجدادِه بالأندلس، وللعلم.. أنا معافري، هذا اسمُ عائلتي التي تنتسب للقائد طريف بن مالك المعافري أحد قادةِ موسى بن نصير فاتح الأندلس، فجدّي كان دائمًا يجمع أطفال العائلة وأنا معهم بعد صلاةِ الجمعة في دار العائلة أعلى جبال طنجة، ويحكي لنا بطولات الجدّ الأكبر في فتوحات بلاد الأندلس.

فقال *بلاس*:

- وهل مازلت تتذكّر هذه الحكايات؟

أجاب خليل:

- نعم، بالتّأكيد أنت تعلم ذاكرة الأطفال وتعلّقهم بقصص البطولات، فما بالك لو كانت القصّة المرويّة تحكي سيرة جدّك الأكبر.

فرَدّ *بلاس* بلهفة:

- إذًا، هل من المُمكن أن تحكيها لنا تمامًا كما كان يرويها جدُّك؟

أجاب خليل بثقةٍ وهو يبتسم:

- طبعًا دون *بلاس*، مثله تمامًا.

أخذَ خليل رشفةً من فنجان القهوة، ثمّ أسند ظهره إلى الكرسي الخشبي، وأخذ نفسًا عميقًا، وكأنّه يستحضر القصّة بكلّ تفاصيلها؛ بل وكأنّه يتقمّص شخصية جدّه، ثمّ قال:

- كان جدّي اسمُه شرودي المعافري، كان رغمَ كبر سنّه قويّ البنيان، ذا لحيةٍ كبيرة بيضاء، لا أنسى نظراته الثاقبة عندما كان يحدّثني بمزيج من الحزم والحنان، فكان دائما ما يحرص على أنْ يبثّ في أبنائه وأحفاده قيمَ الإيمان والبطولة والرجولة والشهامة التي أعتبرها مرجعي إلى الآن رغمَ مرور زمن على رحيله رحمه الله، فكنّا نذهب برفقته إلى المسجد لنستمعَ لخطبة الجمعة ونصلّي، ثمّ نلتفّ حوله ليختبرنا فيما حفظناه من آيات القران الكريم، وإنْ وجد مستوانا مُرضيًا يكافئنا بأنْ يصحبنا معه إلى

غرفته بالمنزل، ويوزّع علينا الحلوى، ثمّ يجلس على أريكته ويبدأ يقصّ علينا الحكايات ونحن نشاهد تفاصيلَ أحداثها من بين ثنايا وجهِ المسنّ وعينيْه العشبية الخضراء.

***

"بسم الله الرحمن الرحيم، والصّلاة والسّلام على أشرف الخلق أجمعين، سيّدنا وحبيبنا محمد رسول الله للعالمين، أمّا بعد يا أحفادي الرّائعين، سأحكى لكم بإذن الله قصّة جدّنا الأكبر مع الأبطال الفاتحين، فبعد أنْ أحكم جندُ الله السيطرةَ على بلاد المغرب الأقصى، وفتح الله على سيدي موسى بن نصير مدينتنا الحبيبة طنجة عام 89 هجريّة، حوّلها إلى مركزٍ عسكري لتوجيه القوات للمناطق المجاورة فدانتْ كلّها للإسلام، عداً مدينة سبتة التي استعصت عليهم، فكان يحكمُها ملك حكيمٌ اسمه *يوليان*، بعد ذلك تطلّع القائد موسى بنظره إلى الشّمال فعبرت آمالُه وأحلامه لنشر دين الله بحرَ الزقاق المؤدي إلى بلاد الأندلس، وكان قد برزَ من بين قادة موسى شابّ أمازيغي أشقر، وسيم، ولكن الأهمّ من ذلك يا أحبابي أنّه كان فارسًا عظيمًا، دخلَ الإسلامُ إلى قلبه فأزاح منه كلّ شوائب الجاهلية مِن تعصّب قبلي وحبٍّ للدّنيا وفتنِها، فأصبح أهمَّ قوّاد موسى بن نصير عن جدارة، فعيّنه واليًا علي طنجة قبل أن يعود إلى القيروان بتونس الحالية، فكان طارق يطلع موسى على كلّ ما كان يردُه من أخبار تصله من أهل الأندلس، وكان الوضع هناك متردٍّ نتيجة للصّراع المحتدم بين الملك القوطي لذريق وأولاد الملك السابق *غطيشة*

المغتصب حقّهم وممتلكاتهم، كما كانت تصلُه استغاثات يهود الأندلس الذين كانوا يعانون من الاضطهاد، وعندما يا أحبابي تنقطع سبلُ الدّنيا مع توفر الإخلاص لله تعالى؛ تتدخّل الإرادة الإلهية لتميل كفّة الحقّ فتطيح بكفّة الباطل ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، فبينما كان طارق بن زياد يبحثُ عن وسيلة تمكّنه من العبور لفتح الأندلس، إذْ به يصله رسول من *يوليان* يطلب منه العونَ لينتقم من *لذريق* الذي تعدّى على شرف ابنتِه بارعةِ الجَمال *فلورندا* عندما أرسلها له لتتربّى في البلاط الملكي تربيةَ الأميرات، فدعى *يوليان* طارق لغزو الأندلس ووعَدَه بتعاون *آل غطيشة* مع المسلمين، وعلى الفوْر عرض طارق على قائده ومعلمه موسى بن نصير الأمرَ فاستبشر خيرًا، وسارع للقاء *يوليان* ليتعرف منه على أحوال الأندلس والخدمات التي سيدعمُهم بها لتسهيل عملية الفتح، ثمّ كتب موسى للخليفة الأموي في دمشق الوليد بن عبد الملك ليطلعه على عرض *يوليان*، ويستأذنه للعبور للأندلس فخشي الخليفة أنْ يقع المسلمون في فخّ فيفنى جيشُهم بتلك الأراضي البعيدة المجهولة، فأرسل ردًّا على رسالة واليه موسى قال فيها: «أنْ خضها بالسّرايا، حتّى تختبر شأنَها، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال»، فراجعه موسى برسالةٍ قال في محتواها: «إنّه ليس ببحر، وإنّما هو خليج، يتبيّن للناظر ما وراءه»، وهنا أذن له الوليد بن عبد الملك، إلّا أنّه شرط عليه شرطًا كان القائد موسى بن نصير قد فكّر فيه مُسبقًا، وهو ألّا يدخل بلاد الأندلس حتّى يختبرها بسريّة من المسلمين، وصلت رسالةُ الإذن من الخليفة الوليد بن عبد الملك فجهز موسى بن نصير سَرِيّة من أربعمائة مقاتل ومائة فارس، وجعل على

رأسهم جدكم طريف بن مالك، والذي يعود نسبه إلى قبيلة برغواطة الأمازيغية التي كانت تسكن الإقليم المواجهَ لساحل المحيط شمال وادي أم ربيع، حول منطقة مدينة الرباط.

وهنا يا أحفادي يأتي دورُ جدّكم البطل، أوّل مسلم تطأ قدمه أرضَ الأندلس الحبيبة في مهمّة عسكرية سريّة، ففي رمضانٍ عام 91 هجري، والموافق للعام 710 ميلاديّة عبرَ بقوّاته على متن أربع سفن تابعين *ليوليان* إلى «جزيرة *بالوماس*»، التي سمّيت فيها بعد باسم «طريفة» تخليدًا لبطولة جدّكم الذي نفّذ مع رجاله عدّةَ حملاتٍ استطلاعية ناجحة، واستطاع خلالَها بأنْ يلمّ بأوضاع البلاد ونقاطِ ضعفها، ممّا يسّر على موسى بن نصير وضعَ خطّة الفتح بإحكام.

وعلى الفور، بدأت تجهيزاتُ الفتح في سِرّيّة تامّة، وتمّ إعداد قوة عسكريّة من سبعة آلاف مقاتل، مُعظمُهم من البربر الذين حسن إسلامُهم، وعلى رأسهم طارق بن زياد، الذي كان على معرفة وثيقة بأوضاع سكّان الأندلس بحُكم مجاورة القبائل التي ينتمي إليها لهم وتعاملهم التجاري معهم، ثمّ يا أحفادي عبَرَ طارق ورجالُه المضيق يومَ الاثنين الخامس من رجب للعام 92 من الهجرة والموافق لـ 29 أبريل للعام 711 للميلاد، على متْنِ أربعِ سفن تجارية تابعة لحليفهم *يوليان*، فنزل الأبطالُ أمام جبل *كالبي* الذيَ اتّخذه طارق مركزًا وقاعدةً لانطلاق قوّاته، ومنذ ذلك اليوم وحتّى الآن سمّي الجبل باسمه، «جبل طارق»، فكما تروْن يا أحبابي الأعمالُ العظيمة لا تأتي بالتهوّر أو بالاعتماد على

الصّدفة؛ بل بالتّخطيط والإعداد الجيد ثمّ التوكّل على الله، فبعد أنْ أمّن طارق مؤخرةَ جيشه وخطّ اتّصاله مع قواعده في شمال أفريقيا بادرَ بطلُنا بإرسال قوّة عسكرية يقودها عبد الملك بن أبي عامر سارتْ بمحاذاة السّاحل حتّى فتحت مدينة قرطاجة ثمّ مدينة الجزيرة الخضراء المقابلة لجبل طارق، وعندما علم *لذريق* ملك القوط بتقدّم قوّات المسلمين في اتّجاه قرطبة توجّه إلى عاصمته طليطلة لإدارة الموقف، ثمّ أرسل جيشًا بقيادة ابن أخته *بنشيو* لمواجهتهم، فالتقى الجمعان بالقربِ من الجزيرة الخضراء، وأنزل الله نصرَه على رجاله، وقتل بنشيو، وفرّ مَن بقي مِن جنوده لينقلوا الرّعب الذي واجهوه لملكِهم، وعلى الفور بدأ *لذريق* في حثّ النبلاء والإقطاعيّين على حشدِ القوّات بمَن فيهم خصومه أبناء *غيطشة* المتحالفين مع *يوليان* سرًّا، فتجمع لديه جيشٌ ضخم يضمّ ما بين أربعين إلى مائة ألفِ مقاتل، توجّه بهم جنوبًا لمواجهة المسلمين، فلمّا وصلتْ أخبارُ هذا التحرّك لطارق أرسل إلى قائده موسى بن نصير في المغرب يطلب منه أن يدعمَه بقوّات إضافية، وعلى الفوْر أمدّه بخمسةِ آلاف مقاتلٍ على رأسهم جدّكم البطل الشّجاع طريف بن مالك.

وفوْر وصول المدد توجّه الأبطال شمالًا لمواجهة الأعداء، ثمّ عسكر طارق بجيشِه على الضّفة اليسرى لنهر برباط حول بحيرة خندة الواقعة جنوب غربي الأندلس، والتي يقطعها نهرُ برباط عبر وادي لكة، ووصل *لذريق* بجيشه وعسْكَر على الضّفة اليمنى للنهر، وجاء معه بحبالٍ يحملها بغال، تخيّلوا لماذا يا أحبابي؟ ليربطَ بها المسلمين بعد أنْ يهزمهم ويعود بهم وهُم عبيدٌ له، ولكنْ للمواقف الشّداد رجالُها، وهنا وقف البطلُ المغْوار

طارق، وبصوته القويّ المستمدّ من قوّة إيمانه بالله ورسوله، وقفَ يخطب في جيشه خطبته الشّهيرة التي ألقاها قبيلَ المعركة الفاصلة التي عُرفت بمعركة وادي لكة، تلك التي ذكرها المقري في كتابه ناقلًا ما جاء فيها على لسان طارق نفسه وخلّدها التاريخ، والتي يقول فيها: «أيّها الناس، أين المفر؟ والبحرُ من ورائكم والعدوّ أمامكم، فليس لكمْ من الله إلّا الصّدق والصبر، واعلموا أنّكم في هذه الجزيرة أضْيَع من الأيتام في مآدب اللّئام، وقد استقبلتم عدوّكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتُم لا وزرَ لكم غير سيوفكم، ولا أقوات لكم إلّا ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمرًا؛ ذهبت ريحكم وتعوّضت القلوب من رعْبها منكم الجراة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلانَ هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطّاغية، فقد ألقته إليكم مدينتُه المحصّنة، وانتهاز الفرصة فيه لمُمكنٌ لكم إنْ سمحتم بأنفسكم للموت، وإنّي لم أحذّركم أمرًا أنا عنه بنَجْوة، ولا حمَلتُكم على خطّة أرخصُ متاع فيها النّفوس إلّا وأنا أبدأ بنفسي، واعْلموا أنّكم إن صبرتُم على الأشقّ قليلاً، استمتعتم بالأرفة الألذّ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فيما حظّكم فيه أوفرُ من حظّي، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحِسان من بنات اليونان الرّافلات

في الدّر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التّيجان، وقد انتخبكم الوليدُ بن عبد الملك من الأبطال عربانًا، ورضيكم لملوكِ هذه الجزيرة أصهارًا وأختانًا، ثقة منه بارتياحكم للطّعان، وإسماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكن حظّهِ معكم ثوابَ الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، ويكون مغنمها خالصًا لكم من دونه، ومِن دون المسلمين سواكم، والله تعالى وليّ إيجادكم على ما يكون لكم ذكرًا في الدّارين، واعلموا أنّي أوّلُ مُجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأنّي عند ملتقى الجمعان حاملٌ بنفسي على طاغية قومه لذريق فقاتلُه إنْشاء الله تعالى، فاحملوا معي، فإنْ هلكت بعده فقد كُفيتكم أمرَه، ولن يعوزكم بطلٌ عاقل تسندون أمركم إليه، وإنْ هلكت قبل وصولي إليه فأخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا بالله من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنّهم بعده يخذلون.».

هنا تحوّل الاثنا عشر ألفَ مقاتلٍ إلى جمع من الأسود المغْوارة المتحفّزة للانقضاض على قطيع المائة ألفٍ المنقادينَ *للّذريق*، ثمّ بدأت المعركة الفارقة في تاريخ بلاد الأندلس يوم الأحد 28 من رمضان للعام 92 هجريّة الموافق 19 من تموز للعام 711 ميلاديّة، وانقضى رمضانُ وبدأ

عيدُ الفطر على الأبطال، والقتالُ مازال محتدمًا لم يُحْسم بعد، وصبرَ المسلمون صبرَ الجبال، وجاهدوا في الله حقّ جهاده حتّى أنزل الله نصره في اليوم الثامن من القتال على جنده، وهزم القوط، وفرّ مَن بقي منهم بما فيهم ملكُهم الذي اختفى بعد ذلك، ولم يعرف مصيره المشئوم.

أمّا المسلمون فارتقى منهم ثلاثةُ آلاف شهيد إلى الرّفيق الأعلى، أولئك الذين رُويت بدمائهم الطاهرة أرضُ هذه البلاد ليخرجوها من ظلماتِ القوط إلى نور الإسلام، وحازَ المنتصرون على غنائم وفيرة من معسكر الأعداء، وعلى الفوْر كتب طارق إلى قائده موسى بن نصير بالقيروان ليبشّره بالنّصر الذي جعل الطّريق مفتوحًا للتقدّم في عمق البلاد. ولمّا وصلت أخبارُ هذا النّصر إلى أهل المغرب وفدوا على طارق متطوّعين للمشاركة معه في الفتوحات، ومستغلًّا ارتفاع معنويات جنده وارتباك وذعر أعدائه؛ بدأ طارق حربَ المدن، فسارع بفتح مدينة شذونة ثمّ توجّه بجيشه صوب قرطبة، وفي طريقه إليها فتحَ مدينة مورور القريبة من إشبيلية، ثمّ ضرب حصارًا على مدينة أستجة التي احتشدَ فيها فلولُ جيش القوط المهزوم، وساعده على إحْكام هذا الحصار حليفُه *يوليان* الذي قدِمَ بجيش من الجزيرة الخضراء، وبعد عدّة أشهر يئسَ المحاصرون من الدّفاع عن المدينة ففرّوا منها صوبَ مدنٍ أخرى فدخلَها جيشُ طارق، وبها انضمّ إليه كلّ السّاخطين على ظلم الحكم القوطي، ومنهم يهودُ المدينة الذين تطوّعوا بإرشاده لأيسَرِ الطّرق للتوغّل في البلاد، وبعدها أصبح الطّريق ممهّدًا لفتح قرطبة، إلّا أنّ طارق فضّل

الزحف نحو طليطلة عاصمة القوط لمباغتتهم قبل تنظيم صفوفهم، وتحالف المتنازعين على الحُكم بها عليه، فدفع طارق بن زياد قوّةً عسكرية مؤلفة من سبعمائة فارس يقودهم القائدُ مغيث الرومي صوب قرطبة فمكّنه الله من فتحِها بعد أنْ حاصرها، فكان يحميها أربعمائة مقاتلٍ فقط، بعد أن فرّ منها جميع نبلائها، أمّا طارق فعبَرَ نهر الوادي الكبير وتوجّه صوبَ الشّمال عبر الطّريق الرّوماني القديم المسمّى بطريق هنيبعل، ولمّا بلغ طليطلة دخلها دونَ قتال حيث فرّت منها حاميتُها رفقة كلّ زعماء وقادة القوط، فترك فيها حاميةً عسكرية وخرج لملاحقتهم فتوغّل في منطقة وادي الحجارة، وفتح قلعة هنارس، ثمّ رجع إلى طليطلة ليقضي فيها فصلَ الشّتاء، أمّا موسى بن نصير فقد استخلف ابنَه عبد الله على القيروان، وتوجّه صوبَ الأندلس على رأس جيش قوامُه ثمانية عشر ألف مقاتلٍ معظمُهم من القبائل العربية اليمنية وكثيرٌ منهم قرشيّون من قواد القيروان البارزين ورجال دينٍ وعدد من أولاده، فعبروا المضيقَ وعسكروا في الجزيرة الخضراء، وبعد دراسة الوضع على الأرض، قرّر موسى بن نصير التحرّك نحو غرب الأندلس، وقبل مغادرته للجزيرة الخضراء أمرَ ببناء مسجد الرّايات الذي يعدّ- يا أحبابي- أوّلَ مسجدٍ تأسّس في أوروبا كلّها، وتقدّم جيش موسى، وفي طريقه لأشبيلية أعادَ إخضاع شذونة بعد أن حاصرَها، ثمّ فتح قلعة رعوان، أمّا قرمونة شديدةُ التّحصين فقد فتحها موسى بحيلةٍ ذكيّة حين أرسل صوبَ أسوارها بعض الجنود مدّعين أنّهم فلول قوطية مهزومة من المسلمين، ففتحوا

لهم الأسوار المنيعة، ومع دخول اللّيل هاجموا حرّاسَ الأبواب وفتحوها فتدفّق داخل المدينة جيشُ موسى وسيطرَ عليها، أمّا إشبيلية فقد فتحها الله على موسى وجندِه بعد حصار لعدّة أشهر، استبسل فيه جيشُ القوط في الدفاع عن المدينة نظرًا لأهميّتها البالغة بعد طليطلة، ثمّ توجّه المسلمون صوب ماردة التي احتشدَ فيها أنصارُ *لذريق* وبقايا جند القوط، وضرب الفاتحون حصارًا مُحكمًا عليها تخلّلته عدّةُ معارك شرسة بين الطّرفين، ولمّا يئس المُدافعون عن المدينة من طول مدّة الحصار وإصرارِ المسلمين على النصر؛ سلّموا المدينة لموسي بعد أن أمّنهم على حياتهم وحريّتهم الدينية، ولمّا تناهى إلى مسامعه حدوثُ تمرّد في إشبيلية أرسلَ قوّة عسكرية بقيادة ابنه عبد العزيز للسّيطرة على الأوضاع هناك، فأنجزَ المهمّة، وأمّن المدينة بأنْ هاجم البلدات السّاحلية، لبلة وباجة وأكشونبة، وقضى على أيّ مقاومة بها، ثمّ عاد إلى إشبيلية ليحكم سيطرتَه عليها، وبعد أنْ أراح موسى جنده في ماردة لمدّة شهرٍ استدعى طارق بن زياد ليقابله فالتقى الفاتحان العظيمان في مكانٍ يُدعى المعرض بين نهري التيتار وتاجه، وعقد القائدان مجلسًا عسكريًّا لتقييم الأوضاع، ووضع تصوّرٍ للمراحل التّالية من الفتوحات، فاستقرّا على ضرورة إتمام فتح المناطق الشّمالية الممتدّة من سرقسطة في إقليم أراغون شرقًا حتّى جليقية على المحيط الأطلسي غربًا، وذلك لتأمين المدن المفتوحة في وسط وجنوبِ بلاد الأندلس، فتوجّه المسلمون صوب سرقسطة التي تفاجأ أهلُها بقدومهم، ففتحوا لهم أبوابَ المدينة بعد أن أمّنهم موسى على نفوسِهم وممتلكاتهم، ثمّ بسط

المسلمون سيطرتَهم على وشقة ولاردة وطركونة وبرشلونة، وبهذا الفتح تمّ القضاء على ما تبقّى من القوات القوطية في هذه المناطق.

وأثناءَ التجهّز للزّحف نحو إقليم جيليقية قدِمَ مغيث الرّومي من دمشق؛ حيث كان موسى بن نصير قد أوْفده إلى الخليفة ليبشّره بانتصارات المسلمين في الأندلس، فعاد يحملُ معه أمرًا من الخليفة إلى موسى وطارق بوقْف الفتوحات والعودة إلى دمشق، فوضّح موسى إلى مغيث الرّومي أهميّة إكمال الفتوحات حتّى يزول الخطر عن المسلمين في باقي بلاد الأندلس، فوافقه مغيث، ورافقه هو وطارق في زحفهم تجاه جيليقية، فتقدّم طارق صوب مدينة أمارية ففتحها، ثمّ فتح أستورقة، وموسى يتبعه بقوّاته ليؤمّن ما فتحه، ثمّ اجتمعا في أستورقة واخترقا جبال كنتبرية، ودخلا شمال أشتوريس ففتحا حصن لوغو، وفرّت حاميته إلى منطقة جبليّة تسمّى صخرة *بلاي* أقصى شرق أشتوريس، فتوجّه طارق بقوّاته مسرعًا لإتمام فتح المنطقة، فدانتْ كلّها له إلّا هذه الصّخرة، وأثناءَ ما كان موسى منهمكًا في اقتحام نواحي جيليقية، وبعد أنْ فتح مدينة لوغو أتاه رسولٌ ثان من الخليفة يأمرُه بوقف الفتوحاتِ والعودةِ فورًا إلى دمشق، ذلك قبل أن يتمكّن من فتح ما تبقّى من إقليم جيليقية، فاستجاب موسى لأمر الخليفة، وبعد ثلاثةِ أعوام من ملاحم الجهاد في هذه البلاد الحبيبة وبالتّحديد في العام 95 هجريّة الموافق العام 714 ميلاديّة، عاد موسى وطارق إلى دمشق بعد أنْ ضربا لنا- يا أحبابي- أرْوعَ أمثلة الشّجاعة وحُسن التّخطيط وقوّة الإيمان وصدق النّوايا، بعد أن جعلهما الله سببًا

ليصل نورُ هدْيِه إلى هذه البلاد لتنهض بحضارة عظيمة تضيء أوروبا كلّها، وتوقظها من ظلمات العصور الوسطى».

أنْهى خليل قصّته، وكأنّ روح جدّه الرّاحل قد حلّت في جسده، وصارت تنطقُ على لسانه، ارتسمتْ على ملامحه أماراتُ فخرٍ واعتزاز، وعيناه تجوبان وجْهَ *بلاس* مراقبًا ردّة فعلِه هو *وروبير* اللّذان يحدقان إليه بإعجابٍ صامت دامَ أكثرَ من الوقت المألوف، لم يقطعه غيرُ *بلاس* قائلًا:

– *موي بيان*، أنت رائعٌ دون خليل، جعلتنا وكأنّنا نجلس بجوار الأحفاد المستمعين إلى حديث جدّك رحمه الله.

ردّ خليل وهو يتأهّب للوقوف:

– *موتشاس جراسياس*، شكرًا جزيلًا دون *بلاس*، يسرّني إسعادك، أمّا الآن، فما رأيُكم بأنْ نقوم بجولةٍ على سطح الباخرة حتّى نصل لمقدمها، فالمنظرُ في الأمام رائعٌ حيث تخترق سفينتنا الأمواج في طريقها إلى بلادي.

أجابَ *بلاس وروبير* في نفس الوقت:

– *فاموس*، هيّا بنا.

الفصلُ السّادس

نسائمٌ بالمحيطِ.. ومعاركٌ بالرّيف

خلا سطحُ السّفينة إلّا من بعض البحّارة الذين يقومون ببعض أعمال الصّيانة الرّوتينية في هدوءٍ وإتقان، فهُنا بحّار يقوم بتلميع جرسِ السّفينة النّحاسي، وهناك الآخرُ يقوم بتصفية وترتيب «شوامي» الرّباطَ، وبعيدًا الثّالث يقوم بكنْس الأرضيّة الخشبية للسطح الرئيسي، أمّا *بلاس* فكان يتجوّل ببصره في كلّ ركنٍ، وخليلُ بحُكم خبرته في السّفر الدّائم على مثل هذه السّفن كان يشرحُ لَه مكوّنات السّطح من معدّات بحرية وفلايك وعوّامات نجاة، وممْشى مرتفع خاصّ بالقيادة ومدْخنة يخرج منها عادمُ وقود الماكينات، وانتهتِ الجولة عندَ وصول الشبّان الثلاثة إلى مقدِم السّفينة، فأعجب *بلاس* بصفحةِ المحيط الأزرق الواسع الممتدّ أمامه، ذاك الذي تمخُرُ عبابَه السّفينة مُحدَثةً تيّارات زبديّة علي جانبيها، ونسائمه المحمّلة برائحة الملوحة تعطي جوًّا من الشّعور بالراحة والانشراح اللّذيذ، إضافة إلى أصوات طيورِ النّورس المرافقة للسفينة في هذه الرّحلة لتكتمل الصورة، وتصبح أجواء بحرية بامتياز، خاصّة بالنّسبة *لبلاس* التي كانت أولى رحلاته خارجَ حدود وطنه، فبعد أنْ ملأ رئتيْه برائحة البحر، قال مؤكّدًا:

– فعلًا يا أصدقائي، المنظرُ مِن هنا رائع، مِن هنا أشعرُ أكثرَ بتقدّم السّفينة وسط المحيط الواسع، ولكن قلْ لي دون خليل، لماذا عندما قلت بلادي لمحتُ في ملامحك علاماتِ الأسى؟

ردّ خليل:

- *ديسكوبل*، اعْذرني دون *بلاس*، فبالي مشغولٌ بما يحدث في ريف المغرب القريب من مدينتي طنجة، فلي أصدقاءُ انْضمّوا إلى المعارك بجانب عبد الكريم خطابي، وأنا أخشى عليهم، فالقتال شرسٌ هناك، وكما تعلم لا مكانَ للرّحمة في مثل هذا الصراع.

فرَدّ *بلاس*:

- وما آخرُ الأوضاع؟ هل وصلَك جديد؟ وهلّا حدّثتنا بما تعرفه عن القائد عبد الكريم الخطابي؟

فأجاب خليل:

- نعم، *كون جوستو*، بكلّ سرور، فعبدُ الكريم ابنُ زعيم قبيلة بني ورياغل ذاتِ الأصول البربرية، درسَ العلوم الشرعية واللغوية في جامعة القيروان، ولم يكنْ عدوًّا لإسبانيا في بادئ الأمر؛ بل انخرطَ في النّظام الحكومي الإسباني، فعيّن كبير قضاة مدينة مليلية، وكان ذلك في عام1914 م، ولكنْ بعدها بخمس سنوات حدثَ أوّلُ صدام له مع السّلطة الإسبانية عندما تمّ حبسه في سجن شفشاون لمدّة عام بتهمةً التّآمر مع القنصل الألماني، ومناهضة الاستعمار أثناءَ الحرب العالمية، وبنهايتها استعاد عبد الكريم منصبَه، ولكنْ خشيةَ من انتقام الفرنسيّين منه عادَ إلى أجدير مسقطِ رأسه، فأثار حفيظته ما لاحظه من انتشار عملاء إسبانيا في منطقة نفوذ قبيلته، بني ورياغيل، بل وأعطتِ السّلطة الاستعمارية لنفسها حقَّ التّنقيب على المعادن في هذه المنطقة.

قاطعَه *بلاس* قائلًا:

- فعلوا بكم ما اعْتادوا فعلَه بنا في *أندلوسيا* .

فهزّ خليل رأسه مؤيّدًا لكلام *بلاس*، ثمّ قال:

- هنا، قرّر عبد الكريم القتالَ لنيْل الاستقلال، ففي عام 1920م بدأ مع والده وأخيه توحيدَ كلّ قبائل الريف المغربي مشكّلًا حكومة مستقلّة سمّاها جمهورية الرّيف، ولم يتنكّر لسلطان مراكش كما يدْعون عليه بهتانًا بدليلِ منْعه لأنصاره من الدّعاء له في خطبة الجمعة، فكان يهدف بحكومتِه عدمَ الاعتراف بالحماية الفرنسية على المغرب، وليس الاستقلال بإقليمه وحده، وفي التاسعة والثّلاثين من عمره تولّى مقاليد الأمور في منطقة الريف خلفًا لوالده، فقرّر مواصلة الجهاد وطرَدَ الإسبان من البلاد، وبدأ الصّدامُ حين قرّر الجنرال *سلفستر*- قائدُ قطاع مليلة- الزّحفَ بقوّاته المؤلّفة من أربعة وعشرين ألف جنديّ مجهّزين بالأسلحة الخفيفة والمدفعيّة الثقيلة صوْبَ منطقة الرّيف، فتعمّق فيها دون مقاومة تُذكر، حتّى احتلّ مدينة أنوال، وذلك قبل ثلاثة أعوام، وهنا بدأ رجالُ عبد الكريم بمهاجمة كلّ المواقع التي احتلّها الإسبان، وحاصروها حصارًا شديدًا، مانعين وصولَ أيّ إمداد لها من القوّة الرئيسية المُتَمركزة في أنوال، والتي طوّقها رجال الرّيف البواسل، وحين حاول هذا الجنرال المغرورُ سحبَ قوّاته من المنطقة لينجوا بهم، فاجأه عبد الكريم بقوّاته، وهنا حدثت معركةُ أنوال الحاسمة؛ حيث سحق المجاهدون القواتِ الإسبانية الذين أقرّوا بأنّهم خسروا خمسة عشر قتيلًا يتقدّمهم جنرالهم

سلفستر، ووقع في الأسر خمسمائة وسبعين جنديّ وضابط، بالإضافة إلى الغنائم والأسلحة التي حازها رجال عبد الكريم، وشجّع هذا النّصر باقي قبائل الرّيف على مطاردة الإسبان أينما وجدوا، وفي خلال أسبوع واحدٍ انحصرَ وجودهم في مدينة تطوان، وبعض حصون منطقة الجبالة.

هنا، قال *بلاس* معقّبًا على ما قاله خليل:

– نعم، وهذه الهزيمة السّاحقة كانت من أهمّ أسباب الانقلاب العسكري الذي حدثَ في إسبانيا العام السّابق بقيادة بريمودي *ريفيرا*.

فأكملَ خليل:

– نعم، ولكنْ رغم ذلك لم تعلن الحُكومة الجديدة بإسبانيا إنهاء احتلالها للمغرب؛ لذلك استأنف عبد الكريم الخطابي جهادَه، فأثناء حديثنا هذا هو يتابعُ هجماتِه على مدينة تطوان وضواحيها، وأيضًا الآن في مدينتي طنجة هناك زعيمٌ آخر من أصول أندلسيّة مثلك دون *بلاس* اسمُه الريسولي يقود حركةَ مقاومة أخرى ضدّ الإسبان.

فسأل *بلاس*:

– الرّيسولي؟ لم أسمعْ عنه من قبل.

فرَدّ خليل:

– هو أحمد بن محمد بن عبد الله المكي بن أبي بكر الريسولي، إنه قائدٌ شجاع، يقود الآن المقاومةَ من قلعة محصّنة في شفشاون.

هنا دخل *روبير* في الحديث محدّثًا *بلاس*:

- نعم، وذلك ما جعلنا- أنا وخليل- نبتعد في تخطيطنا لهذه الرّحلة من المرور بطنجة حرصًا على سلامتك، وفضّلنا الوصول لمراكش عن طريق *كازابلانكا*.

استمرّ الحديث بين الشّبان الثلاثة دونَ انقطاع حتّى غابت الشمس، وبعد أنْ تناولوا وجبةَ العشاء في قاعة الطّعام عادوا لنفس مكانهم بمقدم السفينة ليكملوا أحاديثهم في أجواءِ ليلِ المحيط السّاحر الذي يزيّن سماءه مشهدُ النّجوم المتلألئة بوضوح، مستغلّة غياب أضواء المدن التي تحجب سطوعها، وامتدّت سهرتُهم حتّى غلبهم النّعاس فتوجّهوا إلى غرفهم الصّغيرة استعدادًا لموصلة رحلةِ يوم غد.

في الصّباح، استيقظ *بلاس* عندما طرقَ الباب البحّارُ المكلّف بتنبيه الرّكاب بقرب الوصول، وكانت حقائبه بجوار مدخل الغرفة، فقد كان متشوّقًا لرؤية المغرب، البلاد التي أحبّها قبل أن يزورها، أمّا *روبير* فكان غارقًا في نوم عميق، فبحُكم الخبرة يعرف جيدًا الوقت المتبقي الكافي لتجهيز كلّ شيء، ولكنَّه استيقظ وبدأ يرتّب متعلقاته، ويضعها بنظام مُتْقن في حقيبته، ثمّ صعدَ الرّفيقان إلى السّطح بعد أنْ لاحظا توقّفً صوتِ المحرّكات، وسمعا الصّوت والاهتزاز المصاحب لانزلاق جنزير المخطاف وارتطامه بقاع البحر، وبعد أنْ وجدا «خليل» في انتظارهما، جال بلاس بنظره حول السّفينة فتفاجأ بأنّ البحر مازال يحيط بهم من جميع الاتجاهات، والميناء يكاد يظهرُ عند الأفق، فهنا سأل مستفسرًا:

- هل سنكمل المسافةَ المتبقّية سباحة للميناء؟

هنا، انفجر خليل و*روبير* من الضّحك من أسلوب *بلاس*، وتعبيرات وجه المُندهشة، ثمّ أوضحَ له خليل الأمرَ قائلًا:

-*كلاروكي نو*، بالطّبع لا.. دون *بلاس*؛ فنحن في انتظار مراكب نقل الرّكاب الصّغيرة التي ستحملنا للميناء، فهذه السّفينة كما تعلم تجاريّة في الأساس، وستكمل رحلتها إلى غرب إفريقيا.

وهنا قال *روبير*:

- إذًا، دعونا نأكل شيئًا ونشرب القهوة التي يجيدون إعدادَها قبل وصول المراكب.

فردّ *بلاس*:

- *فاموس مي اميجوس*، هيّا بنا يا أصدقائي.

ومرّ الوقت، ووصلت المراكبُ الصّغيرة التي اتّفق خليل مع ريس إحداها على تكلفة نقلهم للميناء، ثمّ أنزلوا حقائبَهم فيها، وبدأت إبحارَها صوب الميناء بسرعة وخفّة تفوق الباخرة التي غادروها.

مع اقتراب المركب من الميناء، ورغم الدرفلة المتزايدة وتمايل المركب بتأثير ارتطامها بالأمواج، إلّا أنّ *بلاس* كان محدقًا للسّاحل مترقّبًا للحظة الوصول، فبدأتْ تظهر معالمُ المدينة أوضحَ فأوضح، فها هي المدينة المكسية باللّون الأبيض بسبب تجمّعات البنايات والأخضر حيث الأشجار المرتفعة والحدائق المنتشرة، وعندَ وصولهم.. وبعد إنهاء

إجراءات خروجِهم من الميناء تفاجأ *بلاس* أنّه أمام مدينة قمّة في الرقي والذوق، ربّما أكثر جَمالًا وأناقة من مالقة وإشبيلية، فقال لرفقائه وهو يجول ببصره ناظرًا للبنايات أوروبيّة الطّابع المعماري، صدقَ مَن سمّاها باريس العرب.

بعدَ خروجهم من الميناء، طلب *بلاس* من خليل التوجّه لمكتب بريد لإرسال تلغراف لزوجتِه لطمأنتِها على سلامة وصوله، فأوقف خليل تاكسي وتحرّكت السّيارة عبر طريق رئيسي يمرّ يمينًا بباب مراكش وهو سوقٌ عتيق عربيّ الطّراز المعماري، ويسارًا ببنايات غربية يوجد بأسفلها مقاهي شبيهة لمثيلاتها بإشبيلية، ومحلّات حديثة أوروبية الطابع، وبعدَ أن أرسل *بلاس* التلغراف توجّهوا إلى محطّة القطار، وفور وصولهم اشترى لهم خليل التّذاكر، وأجلسهم باستراحة المحطّة لينتظروا ميعادَ رحلة مراكش، وهنا قال لهم:

- الآنَ فقط أستطيعُ الانصراف إلى أعمالي وأنا مطمئنّ عليكما، *أستا برونتو*، نلتقي قريبًا يا أصدقاء، ورحلة موفّقة، في حفظ الله وتوفيقه.

فرَدّ *بلاس وروبير*:

- *أستا برونتو أميجو*.

وأكمل *بلاس* قائلًا:

- *موتشاس جراسياس* خليل، شكرًا جزيلًا.

مرّت دقائقُ *وبلاس وروبير* جالسان في صمتٍ منتظرين وصول القطار حتّى قطعَ صمتهم صوتُ النّادل المسنّ وهو يقول:

– شنو حبّ الخاطر؟

فبادر *روبير* مترجمًا *لبلاس*:

– يقول لك ماذا تريدان أنْ أقدّمه لكما؟

قبل أن يجيب *بلاس* قال النّادلُ بصوته المتقطّع بحُكم كبر سنّه، وظهره منحنٍ للأمام:

– إسبان؟ *بيان فينيدو*، مرحبًا.

فرَدّ *بلاس*:

– لسنا إسبان، أنا أندلسيّ ورفيقي هذا كتالوني.

فتمتمَ النّادل بصوتٍ منخفض قائلًا:

– إسبان إذًا.

فضحكَ *بلاس وروبير* من عفويّته، فتشجّع وقال لهم:

– إسبان.. فرنسيّين.. برتغاليّين؛ الكلّ يأتي ثمّ يرحل، ولكن تبقى المدينة، الآن ماذا أقدّمه لكم؟

فنظرَ له *بلاس* نظرته الفاحصة المُعتادة، ثمّ قال:

– فنجانان من القهوة.

فرَدّ النادل:

- **وخ، دقائق وآتيكما بها.**

وبعدَ دقائق من الانتظار أعلنتِ القهوة عن حضورها، تسبقُها رائحتها تلك التي تتهادَى مع الخطوات البطيئة للنادل العجوز.

وضعَ النّادل القهوة على الطّاولة التي تتوسّط مجلسهم الصغير، فاستنشق *بلاس* رائحتَها بعمق كأنّه يستنشق معها تاريخ المدينة، فلاحتْ على شفتيه ابتسامةٌ رقيقة قال بعدها:

- كأنّ رائحة القهوة تختصرُ تاريخ هذه المدينة العريقة.

فابتسمَ النّادل بدوْره ردًّا على ما قاله *بلاس*، وهو يضع الفنجانين على الطّاولة بحرصٍ بيدِه المرتعشة، ثمّ صبّ القهوة وهو يقول:

- وهل يعرف إسبانيّ تاريخَ مدينة مغربية عريقة كمدينة أنفا؟

جاءَ صوتُ *بلاس وروبير* محمّلًا بكلّ معاني الدّهشة والاستغراب قائلًان:

- مدينة أنفا؟ عن أيّ مدينة تتحدث؟

فتحرّك النادل ببطء ليقف منتصبًا بين كرسي *بلاس وروبير*، وكأنّ شموخَ مدينته انبعث في جسدِه المسنّ ليعيد إليه عنفوان شبابه، ثمّ قال:

- أنفا... كان اسم المدينة التي أسّسها الأمازيغ الزناتيون على هذه الأرض، وذلك في القرن الثّامن الميلادي، وفي عهد الدولة المرينية كان

سكّان مدينة صغيرة بهذا المكان يعتمدون على التّجارة مع إسبانيا والبرتغال ودول أخرى، وكان أيضًا جزءٌ كبير منهم بحّارة مَهرة، يقومون بالقرصنة ومهاجمة السّفن البرتغالية طبعًا بدافع الانتقام لإخوانهم الأندلسيّين، حتّى هاجمت القوات البرتغالية المدينة، بالتحديد عام 1486 ميلاديّة، فقاموا بتدميرها ثمّ شرعوا بعد ثلاثين عام ببناء قلعةٍ منيعة على أرضها، ولكن المرينيّين حالوا دونَ ذلك بعد أنِ انتصروا عليهم، ثمّ مرت الأيام واندثرتِ المدينة، ولم يبقَ منها سوى ضريح سيّدي علال القيرواني، حتّى أعاد بناءها حكّامُ الدّولة العلوية، وبالتّحديد في عهد السّلطان سيدي محمد بن عبد الله، فشيّد فيها قلعة ضخمة شديدة التّحصين للدفاع عنها، وأصبح اسمُها الدار البيضاء، ومع بداياتِ القرن التّاسع عشر الميلادي ازدهر قطاع التجارة بالمدينة وكان قمّة هذا الازدهار في عهد السلطان العلوي مولاي الحسن الأوّل، فأصبحت مكانًا لجذب أمهرِ الحرفيّين والتجّار، ثمّ قامت ثورةٌ بالمدينة عام 1907م ضدّ الهيمنة الفرنسية على الأراضي الزّراعية، وأيضًا على انتهاك حرمة المقابر من أجل شقّ خطّ السّكة الحديد، ولا أخفي عليكم أنّي كنت من أوائل المنضمين لها، ثمّ تطوّرت الأحداثُ إلى مواجهة مع القوات الفرنسية ومحاولة لصدّ هجومها على المدينة والمناطق المجاورة لها، وظهر زعيم في منطقة خنيفرة بجبال أطلس المتوسّط أذاق الفرنسيّين المرَّ قبل أن يحكموا سيطرتهم على البلاد، اسمُه موحا أوحمو الزياني والذي عيّن قائدًا على قبيلة زيان خلفًا لشقيقه، وهو في العشرين من عمره؛ حيث اشتهر بفروسيّته وولائه الشديد للسلطان مولاي الحسن الأوّل، فقام بحشد القبائل لمواجهة الوجود الفرنسي،

واشتبك معهم في معارك الشاوية ومدوية، ورغم خيانة بعض القبائل له إلّا أنّه استأنف النّضال، وأظهر هو ورجاله بسالة في مقارعة الجيش الفرنسي في معارك القصبية عام 1913م، الأمر الذي دعا الجنرال الفرنسي *ليوطي* إلى استمالته بالرشاوي والهدايا والوعود، ولكنّ هذا البطل أبى أنْ ينضمّ لقافلة الخونة والعملاء، فهنا قرّر القائد الفرنسي سحقَ جميع قبائل زيان في معاقلها، وللأسف ساعده في حصارهم القبائل التي والتْ فرنسا فتمكّن الغزاة من السّيطرة على خنيفرة بعد عناءٍ دام عامًا، وبعد أنْ نال الكثيرُ من الفرسان الزيانيون الشهادةَ انسحبَ موحا بمَن بقي مِن رجاله إلى جبال أطلس المجاورة، وبدأ يشنّ حربَ استنزاف ضدّ الفرنسيّين حتّى انقضّ عليهم بكلّ قوّاته في موقعة الهري، وأحدث فيهم مذبحة، وبعد ذلك استمرّ هو ورجاله في مقاومة الاستعمار الفرنسي حتّى توفّاه الله منذ ثلاثة أعوام وهو يراقب سيرَ أحداث أشرس معاركه معهم وهو في عمر الرابعة والسّبعين حيث تلقّى رصاصة في عنقه بالخطأ من أحد أبنائه، وبانتهاء المقاومة ترسّخ الاحتلال الفرنسي في البلاد.

وهنا قال *بلاس*:

– هذا البطلُ ورجالُه يذكّروني بما قام به أبطالنا الأندلسيّون من أعمال شجاعة في مقاومة الغزو الفرنسي لبلادنا في القرن التاسع عشر.

فأكملَ النّادل كلامه قائلًا:

– دائمًا ما تيحيا روحُ الأمم بتضحيات الأبطال، أمّا إكمالًا لقصّة الدّار البيضاء فبالتّزامن مع تلك الأحداث كان يحدثُ تطوّر كبير للمدينة

يرجعُ في الأساس إلى إنشاء الميناء الذي يعدّ الأكبر في البلاد عام 1912م، فتحوّلت من مدينةٍ صغيرة إلى أكبر مركز اقتصاديّ وماليٍ مرتبطٍ بفرنسا، ذلك بالتّزامن مع بداية ظهور المباني الكبرى والطّرق الواسعة، وأصبحت المدينة واجهة عصريّة تجذب استثمارات الأوروبيّين حتّى أنّه منذ أربعة أعوام احتضنت الدّارُ البيضاء الرّالي الأوروبي لسباق السيارات.

هنا عقّب *بلاس* قائلًا:

- نعم، فعلًا قبل وصولنا، لم أكنْ أتخيّل أنّ هذه المدينة بهذا القدر من التمدّن والتحضر والجَمال، أشكرك على معلوماتك القيمة وقهوتك المتقنة.

ردّ النّادل المسنّ، وهو يستعدّ لمغادرة طاولتهم:

- **العفو، متشرّفين.**

الفصلُ السّابع

الأندلسُ الأمويّةُ على إيقاع السّكة الحديدية

وصلَ القطار داخلَ المحطة فهَمّ *بلاس* و*روبير* ليتوجّها إلى عربتهما حاملَيْن حقائبهما، وداخل العربة بحثًا عن غرفتهما المدوّنة على التذكرة فوجدا فيها شابًّا في نفس عمرهما، فوضعَا الحقائب وجلسا في المقاعد المواجهة له، كان الشابّ مغربيًّا ذا بشرةٍ بيضاء، له ذقنٌ صغيرة مهذبة سوداء، وشعر أسود ناعم قصير يميلُ إلى الوراء وعينان سوداوان، يرتدي جلبابًا مغربيًّا أبيض، مطرّزًا بخيوط صفراء تميل إلى اللون الذّهبي، وعندما تقابلت عيناه بعين *بلاس* قال بابتسامة رزينة:

- مرحبًا بكم.

فردّ *بلاس*:

- شكرًا، هل أزعجناك بجلوسنا معك في الغرفة؟

فردّ الشّاب المغربي:

- بالطّبع لا، فالمكان يتّسع لنا جميعًا، ولكنّ لكنتَك تنمّ على أنّك إسباني.

فردّ *بلاس*:

- أنا أندلسي من مالقة، واسمي *بلاس* إنفانتي، وهذا صديقي *روبير* من كتالونيا.

فردّ الشّاب المغربي:

- **متشرّفين**، أمّا أنا فاسْمي ياسين الفيلالي من فاس.

قطعَ حديثهم صوتُ صفّارة عامل المحطة، والذي تلاها بوقُ القطار معلنًا بدء تحرّكه، وبعد عدّة دقائق بدأ صوت القطار ينتظم بعد أن وصل إلى السّرعة الثابتة للرّحلة في الوقت الذي كان فيه *روبير* قد دخل في نوم عميق.

فتابع ياسين كلامَه قائلًا:

– ولكنْ.. ما سبب سفرك إلى مراكش؟

ردّ *بلاس*:

– إنّها قصّة طويلة عنوانُها المعتمد بن عباد، فأنا مهتمّ بسيرته، وأريد أنْ أكمل بعض المعلومات التي تنقصني عنه، وماذا عنك سيّد ياسين؟

فردّ ياسين:

– أنا ذاهبٌ للاطمئنان على أستاذي وقدوتي بجامعة القرويّين، فهو يسكنُ بمراكش، وهو الآن مريض، وكلّفني بأنْ أنوبه في تدريس بعض الموادّ حتّى يتعافى، وأنْ أباشر بعض مصالحه في الدار البيضاء.

فقال *بلاس*:

– إذًا، أنت أستاذٌ في أقدم جامعة في العالم على حدّ معلوماتي، هذا شيء يدعو للفخر.

ردّ ياسين:

– نعم هي فعلًا الأقدمُ والأعرق، فقد تأسّست عام 859 ميلاديّة، حين شيّدتها السيدة الفاضلة فاطمة الفهرية القريشية المنحدرة من نسلِ

عقبة بن نافع فاتح تونس ومعظم الشّمال الإفريقي، وذلك بعد أنْ هاجرت من القيروان في تونس إلى فاس عاصمة الأدارسة آنذاك، وكذلك هي أوّلُ جامعة أنشأت الدّرجات العلمية، وما يسمّى الكرسي العلمي المتخصّص، والكثير من علماء بلادك الأندلس في قمّة مجدها كانوا يفدونَ إلى جامعة القرويين للانتساب إليها وتحصيل الدّرجات العلمية فيها وتبادل الخبرات في المجالات العلمية، وظلّت قطبًا تعليميًّا هامًّا ومركزًا للمعرفة العلمية والدينية فاستقطبت العديدَ من العلماء والفلاسفة العظماء مثل ابن رشد وابن باجة، ومؤرخين مثل ابن خلدون، وأطباء فلاسفة مثل ابن ميمون، وجغرافيّين مثل الشّريف الإدريسي، ومتصوّفة مثل ابن حزم وعبد السلام بن مشيش، بالإضافة إلى علماء غربيّين درسوا فيها مثل *سيلفستر* الثّاني الذي شغل بعد ذلك منصب بابا الفاتيكان فنقل بعد عودته إلى أوروبا الأعدادَ العربية التي تستخدمونها الآن في بلادكم.

نظرَ إليه *بلاس* باهتمام وقال:

– هذا رائعٌ سيّد ياسين، جعلتني أتشوّق لزيارتها.

أجابه ياسين قائلًا:

– مرحبًا بك في أيّ وقت.

تساءل *بلاس* قائلًا:

– أشكرك، ولكنْ ما هو تخصّصك بالجامعة؟

ردّ ياسين وقال:

– أنا أستاذُ تاريخ إسلامي.

فقال *بلاس*:

– رائع، إذًا تعرف الكثيرَ عن التاريخ الأندلسي.

ابتسمَ ياسين وهو يقول:

– طبعًا، فهو من الموادّ الأساسية التي أدرّسها لطلابي بالجامعة.

ابتهجَ *بلاس* لردّ ياسين، وقال في فرح:

– رائع، فتاريخُ الأندلس من أهمّ اهتماماتي، فهل من الممكن أن أظفرَ من خلال مجالستك بأنْ تحدّثني عن أجزاء هامّة منه؟

فأجاب ياسين:

– طبعًا، بكلّ سرور، أيّ مرحلة ترغب أن نتحدّث عنها؟

فردّ *بلاس*:

– أتمنّى أن تُطلعني على تاريخ الأندلس ما بعد إتمام الفتح الإسلامي لها.

فقال ياسين:

– يسعدني ذلك، فليس أحبّ إليّ من الحديث عن الأندلس وتاريخها.

وبدأ ياسين يحكي...

***

بعد أن أتمّ الله فتحَ بلاد الأندلس على يد القادة العظماء طارق بن زياد وموسى بن نصير، ومنذ استدعائهما إلى دمشق، بدأ عهدُ الولاة حيث توالى على حُكم الأندلس عددٌ من الولاة كانوا يعيّنون من قبل الخليفة الأموي أو والي إفريقيا، وفي بعض الأحيان كانت تستدعي الظروف الطّارئة أنْ ينصبه أهلُ الأندلس حتّى يتمّ تعيين والٍ من دمشق أو القيروان، وكانت الخلافةُ تحرص على الاعتماد على العرب من عشيرتهم والقبائل الحليفة لهم في تولّي الوظائف الهامة والولاة بطبيعة الحال، ونظرًا للارتباط الإداري بين الشمال الأفريقي والأندلس كان والي القيروان يحرصُ على تعيين ولاة من عشيرته أو من الموالين له، وكان كلّ والٍ يصطحب جماعته وأبناءَ قبيلته معه إلى الأندلس، وأحدث التحوّل الاجتماعي المتَسارع في البلاد ارتباكًا سياسيًّا، فحدث تضارب في المصالح بين الفاتحين الأوائل الذين استقرّوا في المدن الكبرى والوديان الخصبة وبين العرب الوافدين، كما ظهر التعصّب بين القبائل القيسية واليمنية وبين العرب عامّة والبربر، وكان أوّلُ ولاة الأندلس هو عبد العزيز بن موسى بن نصير بتكليفٍ من والده الفاتح العظيم، فكان قد تعلم منه فنّ الإدارة، وورث منه قوّة الإيمان وصلابة العقيدة، فأحسن إدارة البلاد، وأكمل الفتوحات، وأمّن الحدود، وأسّس ديوانًا لتطبيق الشريعة، وأشرك السكّان الأصليّين في إدارة بلادهم، وحبّب إليهم الإسلام، وشجّع على التّزاوج معهم، ودمجهم في المجتمع الجديد؛ فتزوّج من *إيجيلونا* أرملة *لذريق*، وسمّيت فيما بعد بأمّ عاصم نسبةً إلى ولدها منه، ورغم حرصه على عدم الابتعاد عن جنده إلّا أنّه لم ينجح في تهدئة تذمّرهم أو التّوفيق بين القبائل حتّى كانت

نهايته علي يدِ وزيره وبعض قادته حين قتلوه وهو يصلّي في مسجد إشبيلية بعد حُكم دام سنة وسبعة أشهر، ثمّ خلفه أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير عام 97 هجريّة الموافق 716م لمدّة ستة أشهر حتّى عيّن والي القيروان الحر بن عبد الرحيم القفي واليًا على الأندلس، وكلّفه بالتحقيق في اغتيال عبد العزيز بن موسى، وهو الذي نقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة في قلب البلاد، ودامَ حكمُه عامين وثمانية أشهر عملَ خلالهم على إخماد الفتن بين العرب والبربر، وضبط الجيش، وعمل على استقرار البلاد حتّى خلفَه السّمح بن مالك الخولاني الذي عيّنه الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز الذي فصل الأندلس إداريًّا عن ولاية أفريقيا، وجعلها تابعة للخلافة مباشرة، نظرًا لأهمّيّتها واتّساع شئونها، فأمر خامس الخلفاء الرّاشدين واليه بأنْ يحقّق العدل والاستقرار، فعرف عنه الحكمة والتعقل، ممّا أكسبه ثقة الأندلسيّين، فطوّر نظم الحكومة وإدارة الجيش ونفّذ إصلاحاتٍ إداريّةً واقتصادية، واهتمّ بالعُمران الإسلامي المتميز، وبعد عامين وأربعةِ أشهر من ولايته نال الشّهادة في معركة طلوشة أو *تولوز* بالفرنسية خلال إحدى غزواته في غالة أو فرنسا الحالية، فاختار الجندُ رفيقَه في هذه الحملة عبد الرحمن الغافقي واليًا عليهم، بعد أنْ نجح في الانسحاب بالجيش والعودة إلى قرطبة، واستمرّت ولايته شهرين حتّى تمّ تولية عنبسة بن سحيم الكلبي عام 103 هجريّة الموافق 721م، فعمل على خلق توازنٍ بين القبائل العربيّة المتنافسة، كما اجتهد في الجهاد ضدّ نصارى الشّمال والمناطق المتاخمة لجبال البرينية، حتّى نال الشهادة وهو عائدٌ من إحدى غزواته بعد ولاية دامت أربعَ سنوات وثمانية أشهر.

وبعد وفاته مرّت الأندلس بمرحلةِ اضطرابات وخلافات متفاقمة بين القبائل العربية وتمرّد البربر وتفكّك الجيش حيث تناوب على الحكم خلال سبعةِ أعوام سبعة ولاةٍ فرضتهم التعصّبات القبلية هم: عذرة بن عبد الله الفهري، ثمّ يحيى بن سلامة الكلبي، ثمّ حذيفة بن الأحوص القيسي، ثمّ عثمان بن أبي نسعة، ثمّ الهيثمّ بن عبيد الكلابي، ثمّ محمد بن عبد الله الأشجعي، ثمّ عين مرّة ثانية عبد الرحمن الغافقي، والذي كان من التابعين، وكان متجرّدًا من العصبية الجاهلية وحسن السيرة، ومجاهدًا فضبط البلادَ ورفع المظالم ووجّه الناس للجهاد، وقضى على الاضطرابات التي قام بها البربر، ثمّ توجّه بجيش من سبعين ألف مقاتل إلى ما وراء جبال البرينية، وفتح العديدَ من المدن في العمق الفرنسي في الوقت الذي كان ملكهم *شارل مارتال* يوحّد بلاد الغال لصدّ خطر المسلمين، فانتظرهم بالقرب من معاقله الشّديدة البُعد عن خطوط إمداد المسلمين، وفي طريق عبد الرّحمن الغافقي نحو باريس دخل بجيشه مدينة بواتيه فاصطدم بقوّات الفرنجة في المنطقة المعروفة بالبلاط وهو الطّريق المرصوف، واستمرّ القتال سجالًا لمدّة عشرة أيام، وفي اليوم الرّابع ونتيجةً لمناورة ناجحة من جيش الفرنجة حدثتْ خلخلة في صفوف المسلمين نجمَ عنها استشهادُ قائدهم عبد الرحمن الغافقي الذي ترك فراغًا لم يتمكّن أيّ أحدٍ من رجاله أنْ يملأه، فقرّروا الانسحاب ونفّذوه بعد ستة أيّام من القتال، عائدين إلى قاعدتهم بسبتمانية، وسمّيت هذه الموقعة ببلاط الشّهداء نسبةً إلى المكان وكثرة الشّهداء الذي وصل إلى عشرة آلاف شهيدٍ، ويسمّيها الفرنسيّون معركة بواتيه، وهي التي أوقفت المدّ الإسلامي في قلب

أوروبا، ثمّ جاء عبد الملك بن قطن الفهري واليًا لمدّة عامين قام فيهما بغزو أرض البشكنس، ثمّ خلفه عقبة بن الحجاج السلولي الذي قبض على عبد الملك في إطارِ حملة لتطهير البلاد من مثيري الفتن والاضطرابات، وكان حاكمُ صالح محبًّا للعدل، وتوّاقًا للجهاد، ولكنّه اضطرّ لإرسال جزءٍ كبير من قوّاته إلى إفريقيا لدعم واليها في قمع الخوارج الصّفرية، الأمر الذي أغرى نصارى الشّمال على مهاجمة البلاد، كما هزم عقبة أمامَ *شارل مارتال* في سبتمانية، فاستغلّ عبد الملك بن قطن الفهري هذه الأوضاع المضطربة فقادَ انقلابًا عسكريًّا في قرطبة، ويُقال أنّه قتل عقبة انتقامًا منه، ونتيجة للعنصرية الزائدة من العرب في المغرب قام البربرُ بثورة انتقلت بعد ذلك إلى الأندلس عام 123هجريّة 741 ميلاديّة، واشتعل الصّراع في أرجاء البلاد حتّى وصلت جحافلُ البربر حول قرطبة، فأنقذ الموقفَ جندُ الشّام الذين عبروا من سبتة بعد أنْ حاصرهم البربر الثّائرون بالمغرب، وبعد القضاء على الثّورة حدث صراعٌ جديد بين الشّوام الوافدين الجدد والأندلسيّين الحجازيّين، فهاجم الشّاميون قصرَ الحكم بقرطبة، واعتقلوا عبد الملك ونصبّوا قائدَهم بلج بن بشر مكانَه، فحشد الحجازيون قوّاتهم في سرقسطة، ولمّا علموا بمقتل عبد الملك زحفوا إلى قرطبة، واصطدم الطّرفان بالقرب من شمال العاصمة، وانتصر الشّاميون ولكنّ قائدهم بلج توفّي متأثّرًا بجراحه، فعيّنوا ثعلبة بن سلامة العاملي خلفًا له؛ تنفيذًا لأمر الخليفة هشام بن عبد الملك، فحاول في بادئ الأمر ضبطَ الفتنة، ولكنّه انجرف إلى مواجهات دمويّة مع خصومه، الأمرُ الذي دفع عقلاء الأندلس إلى الاستنجاد بوالي أفريقيا الذي عيّن عليهم أبا الخطار حسام

بن ضرار الكلبي، فاستلم إدارةَ البلاد في قرطبة، واتّخذ تدابير جيدة لإنهاءِ الفتنة، واستغلّت القوى النّصرانية في الشمال هذه الانقسامات فمدّت نفوذها جنوبًا على حساب المسلمين، وبعد أنِ استقرّت البلاد، وعاد الانتعاشُ الاقتصادي تخلّى أبو الخاطر عن حياديّته وانجرف وراء العصبية القبلية، وانحاز إلى اليمنيّين ضدّ القيسيّين الذين قادهم رجل اسمُه الصميل بن حاتم، فحشد قومه وحلفاءهم حتّى اشتبك الطرفان وانتصرَ القيسيون، وتمّ عزل أبي الخاطر وسجْنُه، وتعيينُ ثوابه بن سلامة الجذامي مكانَه بمباركةٍ من والي القيروان، فدامتْ ولايته عامين حتّى توفّاه الله فظلّت الأندلس أربعةَ أشهر دون والٍ بسبب التنافس السّياسي بين اليمنية والقيسية، حتّى توافقوا على تعيين يوسف بن عبد الرّحمن الفهري، والذي كان يتّسم بالورع والوقار والهدوء، كما كان حفيدًا لعقبة بن نافع فاتح الشّمال الأفريقي والمغرب، فدامَ حكمه تسعة أعوام، وهي أطولُ مدّة حكمها والٍ على الأندلس، عاصر خلالهم سقوط دولة الخلافة الأموية في دمشق، وكان ذلك في عام 132 من الهجرة والموافق للعام 730 من الميلاد، فحكم ستّةَ أعوام في ظلّ الخلافة العباسيّة، وخلال مدّة حكمه حرص على إخماد الفتن والصراعات القبلية، ومع ذلك تطوّر الصّراع إلى معركة دموية بالقرب من قرطبة انتهت بعد عناءٍ بانتصار القيسيّين الذين أمعنوا القتلَ في الأسرى اليمنية بأوامر من الصّمويل الذي كان هو المتحكّم الفعلي في اللعبة السياسية بالبلاد، وبعد أنِ استتبّ الأمرُ للقيسية اندلعت ثورةٌ لليمنية بقيادة عامر العبدري الذي أشاع أنّ الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور قد عهدَ إليه بولاية الأندلس حتّى استطاع يوسف

الفهري القبضَ عليه وقتله وإنهاء ثورته، وأثناء كلّ هذه الاضطرابات السّياسية والصراعات الداخلية كانت نواة المملكة النّصرانية التي مهّد لقيامها بلاي في شمال الأندلس، والتي أسّسها وتربّع على عرشها الملكُ ذو الأصل القوطي *ألفونسو* الأوّل قد قامت في أشتوريس، ثمّ قام هذا الملكُ بتوحيد نصارى الشّمال في جيليقية مع مملكته، وبدأ يمدّ حدود دولته جنوبًا كما حرّض النّصارى في إقليم ألبة في وادي الإبرو وإقليم نبرة في أراضي البشكنس الواقعان شرق مملكته؛ على الثّورة على الحكم الإسلامي، حتّى اطمأنّ من انسحاب المسلمين من هذه المناطق فأضحى خطّ المواجهة بين القوى النصرانية والمسلمين يتمثّل في ثلاثةِ ثغورٍ إسلامية مواجهة للثّغور النصرانية، هي: الثغر الأدنى في أقصى الغرب وقاعدته مدينة ماردة، والثغر الأوسط وقاعدته مدينة طليطلة، والثّغر الأعلى في أقصى الشمال الشرقي وقاعدته مدينة سرقسطة.

***

قاطعَه *بلاس* مشيرًا بيديه، كأنّه يريد أن يستفسرَ عن شيء، ثمّ قال:

- ولكنْ عندي استفسارٌ سيد ياسين، لماذا لم يتمّم المسلمون فتحَ شمال الأندلس قبل التوجّه لجنوب فرنسا والتمركز به؟

كان ردّ ياسين جاهزًا بحكم عمله الذي يحتّم عليه استعداده الدّائم للرّد على استفسارات الطلبة، فقال:

- ذلك لأنّ جنوب فرنسا كان تحت سيطرة القوط، الذين كانوا يشكّلون تهديدًا مباشرًا للمسلمين بالأندلس، وأيضًا لوعورة المناطق

الشمالية، وإهمال الولاة لخطورتها، ولكن للأسف حتّى التّواجد الإسلامي في جنوب فرنسا اضمحلّ مع مرور الوقت وتكرار هجمات القوط حتّى ضاع من المسلمين أهمّ قواعدهم في جنوب بلاد الغال المتمثّل في مقاطعة سبتمانيه. وفي أثناء ما كانت قرطبة وما تبعتْها من مدن أندلسية واقعة تحت سيطرة المسلمين تعاني من النّزاعات الداخلية والتعصّب القبلي، دخل الأندلس الأمير الأموي الفارّ من سيوف المسودة، عبد الرحمن الداخل الذي كرّس جهده لإخضاع كلّ زعماء الأندلس تحت لوائه.

فاستفسرَ *بلاس* قائلًا:

- الدّاخل؟ مَن هو؟ ولِمَ تلقّب بهكذا اسم؟ ومَن هُم المسودة الذي هرب من سيوفهم؟ ولِمَ؟

سعدَ ياسين بتهافت الأسئلة عليه من *بلاس*، وبأنّه حقًّا يريد أن يستزيد من المعرفة والتّاريخ الأندلسي، فابتسم مجيبًا استفساراته كلّها:

- جميلٌ تلهّفك هذا للمعرفة، سأطْلعك على قصّته كلّها، وبإذن الله أجيب عن كلّ استفساراتك.. أمّا المسودة، فلأنّ العباسيّين كانوا يرتدون السّواد، وكانت راياتهم سوداء بعكس الأمويّين الذين كان زيّهم وراياتهم بيضاء، وكان دخولُ عبد الرحمن للأندلس يعتبر بدايةَ مرحلة جديدة في تاريخها، فقد كانت معركة الزاب التي حدثتْ في 11 من جمادى الآخر لعام 132 للهجرة والموافق 25 يناير من العام 750 ميلاديّ قرب نهر الزاب الكبير، وهو أحد روافد نهر دجلة، بين خليفة الأمويّين مروان بن محمد وقائده يزيد بن عمر بن هبيرة، والعباسيّين تحت لواء عبد الله بن

علي وقائده قحطبة بن شبيب؛ إيذانًا بنهاية الدّولة الأموية وقيام خلافة العباسيّين الذين طاردوا كلّ أمراء ورموز الأمويّين، وأجهزوا عليهم، أمّا عبد الرحمن فقد نجا بأعجوبة بعد أنْ هرب قاصدًا المغرب ليحتمي بأخواله هناك، فأمّه كانت بربرية من قبيلة نفزة المغربية، فعبَرَ فلسطين متخفّيًا من أعدائه وانضمّ إليه مولاه المخلص بدر، ثمّ تابع طريقه مرورًا بمصر، ثمّ برقة، وبعدها طرابلس، فالقيروان، حتّى وصل المغرب الأقصى، وهناك تطلع لعبور المضيق للأندلس فسبقه خادمُه المخلص بدر الذي التقى بزعماء الشّاميين وأطلعهم على مأساة الأمويّين، كما رشح لهم الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام بن عبد الملك ليتولّى زعامة الأندلس، فقوبلت هذه الدّعوة بالقبول من أنصاره فعبرَ عبد الرحمن من العدوة المغربية إلى الأندلس، وكان أوّلُ نزوله بشاطئ المنكب، وهناك استقبله موالي بني أمية مرحبين مستبشرين، فدخلها وهو مفعمٌ بآمال تحقيق حلمه بتأسيس دولة أمويّة في هذه البلاد، إلّا أنّ بلوغ سدّة الحكم لم تكن سهلة دون عناء؛ فقد كانت الأندلس تحتَ سيطرة يوسف الفهري المنافس الأوّل له، والعثرة الأولى في طريق تحقيق طموحاته ونبوءة بني أمية بأنّ يحيى أميرٌ من سلالة الأمويّين، ملكهم في الغرب بعد زواله في الشرق، وفور عودة يوسف الفهري من سرقسطة بعد أن قمع حركة التمرّد بها اتّجه إلى قرطبة ليستعدّ لمواجهة منافسه الجديد على الحكم، وحدثت مفاوضات بين الطّرفين باءت بالفشل، فحشد عبد الرحمن بن معاوية اليمنيّين، والتفّ القيسيون حول يوسف الفهري،

والتقى الجمعان في موقعةٍ يقال لها موقعة المصارة، والتي كان النّصر فيها حليفًا لعبد الرحمن وأنصاره، وفرّ الفهري والصميل بعد الخسارة التي ألّمت بهم، وعلى أثر هذا النّصر دخل عبد الرحمن الدّاخل قرطبة، وأطلق عليه لقب «الدّاخل» لأنّه كان أوّل أمير من بني أمية يدخل حاكمًا لأرض الأندلس، فبايعه الناسُ، وبهذا بدأ عهد الإمارة الأموية بالأندلس على يد أميرها الهارب من بطش العباسيّين المسودة بالمشرق ليحيى ملكًا بعد أن أبيدَ هناك.. وبالجزيرة، في أرض غريبة أصبحت بعد ذلك شبيهةً بديارهم في أرض الشام، حتّى أنّه استقدم جلّ أنواع الأشجار والفواكه لتخضرّ بها أرض الأندلس وتزهر وتصبح جنّة الله في الأرض، ولكنّه لم ينسَ أبدًا حنينه إلى أرض أجداده، ومسقط رأسه، وظهر ذلك في بعض أشعاره كقوله: أيّها الرّاكب الميمّم أرضي

اقرأ منّي بعض السلام لبعضي

إنّ جسمي كما علمت بأرضِ

وفؤادي ومالكوه بأرضي

قدّر البيْنُ بيننا فافترقنا

فطوى البينُ عن جفوني غَمضي

وقضى الله بالفراق علينا

فعسى باجتماعنا سوف يقضي.

هنا قاطعه *بلاس* معجبًا بفصاحة الأمير الأموي:

– لم أكنْ أعلم أنّ أمراء الأندلس في تلك الفترة يملكون هذه الرّقة في كتاباتهم، أو أنْ يجيش في داخلهم كلّ ذاك الحنين لوطنهم الأم.

فعقّب ياسين قائلًا:

– عبد الرحمن تربّى في قصر جدّه هشام، وقد أخذ العلم والأدب من أهله وعلمائهم، وقد تشبّع بحبّ أرضه بالمشرق؛ لذلك أغلب أشعاره فيها الكثيرُ من الحنين إلى تلك الأرض.. هل من أسئلة قبل أن نكمل؟

هزّ بلاس رأسَه بالنفي، بينما عيناه تتوهّجان حماسًا لما يقوله ياسين الذي عادَ يحكي..

***

بدأ عبد الرحمن بن معاوية بعد أنِ استتبّ له أمر الجزيرة بالاهتمام بالجانب العمراني، فبدأ ببناء جامع قرطبة الذي يعتبر من أهمّ معالم الأندلس، فبدتْ شبه الجزيرة الأيبيرية معه منذ ذلك الحين كدولة جديدة تنبذ الصّراعات القبلية العنصرية، لا تتبع الخلافة بالمشرق بل أضحت دولة إسلامية مستقلّة، لها سيادتها الخاصّة ذلك في الوقت الذي نشأت فيه ثلاثة ممالك نصرانية بشمال الأندلس هم: مملكة أشتوريس ومملكة نبرة وإمارة قطلونية، وتوقّفت الفتوحات منذ ذلك الوقت، وانشغل المسلمون بتنظيم شئون دولتهم، وظهر منصب الحجابة والوزارة، كما تطوّرت التّنظيمات العسكرية، وظهرت البحرية الأندلسية، ونشأت علاقات جيدة مع الدّول الأوروبية مصحوبةً بالتّبادل العلمي والثقافي

الذي تفوّق فيه الأندلس، كما أسرع عبد الرحمن الداخل في قمع الثّورات التي قامت على مدار حكمه، أوّلها ثورة يوسف الفهري والصّميل بن حاتم، ثمّ ثورة هشام بن عورة الفهري، وأخطرها ثورة العلاء بن مغيث اليحصبي المدعومة من الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور الذي أعجب بمهارة عبد الرحمن القيادية واستبساله في الدّفاع عن إمارته الأموية في الأندلس فأطلقَ عليه لقب صقر قريش الذي اشتهر به عبد الرحمن عبر التاريخ والذي تابع مواجهة الثّورات التي اندلعت ضدّه بالشّدة والعنف، فقمَعَ عدّة ثورات يمنية متفرقة، ثمّ ثورة البربر بقيادة شقيا بن عبد الواحد المكناسي الذي اعتنق المذهب الشيعي وادّعى انتسابه لسيدنا الحسين فأطلق عليه الفاطمي، ثمّ ثورة الأعرابي والأنصاري اللّذيْن تعاونا مع *شارلمان* ملك الدّولة الكارولنجية الواقعة بشمال غرب ألمانيا الحالية. وبقمعه كلّ هذه الثّورات استطاع أنْ يعيد لدولة المسلمين في الأندلس هيبتها، فبعد فشل *شارلمان* غزو الأندلس وتكبّد جيشه خسائر فادحة؛ جنَحَ إلى السلم وأقام علاقاتٍ طيبةً ومعاهدة صداقة مع عبد الرحمن تجنّبًا لغزو بلاده، أما مملكة أشتوريس الناشئة في الشّمال فلم يتوان عبد الرحمن عن مهاجمتها كلّما سنحت له الفرصة رغمَ انشغاله بقمع الثّورات وضبط البلاد وفرض الاستقرار حتّى توفاه الله وقد تجاوز الرّابعة والخمسين من العمر، فخلفه ابنُه الأصغر هشام، وكان ذلك في عام 721 هجريّة والموافق للعام 788 من الميلاد، فبدأ هشام عهدَه برفض من أخويه سليمان وعبد الله تطوّر هذا الرّفض إلى مواجهة انتصرَ فيها هشام، وانتهى الأمر إلى استسلامهما فنفاهما إلى شمال إفريقيا، كما

قمع ثلاثَ ثورات متفرقة في سرقسطة وبرشلونة وتكارنا، ثمّ قام بغزوة في أراضي الإمبراطورية الكارولنجية وراء جبال البرينيه غنمَ جيشُه منها الكثير، كما ساعده الهدوء النّسبي الذي ساد الأندلس بعد تولّيه الحكم بأربعة أعوام على مواصلة الجهاد شمالًا ضدّ مملكة أشتوريس فتعدّدت الحملات، وتجلّت قوّة دولة هشام في انتصارات جيوشه المتوالية حتّى مُنيت بهزيمة أثناء عودتِها من إحدى الحملات ممّا أعطى لملك أشتوريس *ألفونسو* الثاني الثّقة بالنفس والاستعداد لمواصلة كفاحه لصدّ غزوات المسلمين القادمة، فتحالف مع جيرانه البشكنس والفرنجة، ولكن رغم حشده قوّات وفيرة أرسل إليه هشام حملةً انتقامية حقّقت انتصارًا ساحقًا حتّى اقتحم المسلمون عاصمة مملكة *ألفونسو* الثاني، ففرّ إلى قمم جبال أوروبا المجاورة تاركًا أسرته وذخائره ليغنمها المسلمون، فعزم هشام الإعداد لمهاجمة البشكنس والكارولنجيين الفرنجة، ولكن جاء أجلُه قبل أن يتمّ مشروعه، فخلفه ابنُه الحكم بن هشام أو الحكم الأوّل بعد مبايعته بالإمارة بوصيّة من والده، وكان ذلك في 8 صفر من العام 180 للهجرة والموافق للعام 796 من الميلاد، وكان عمرُه آنذاك ستةً وعشرين عامًا، فاستهلّ حكمه بتوجيهه لحملةٍ عسكرية بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث لغزو ألبة والقلاع، فغنم منها الكثير، إلّا أنّ فترة حكمه اتسمت بكثرةِ الفتن والتمرّدات، لكنّه استطاع إخضاع كافة الثورات الداخلية التي قامت في عهده، والتي كان أخطرها وقعة الرّبض التي كادت تسقط عرشَه، ففي عام 189 من الهجرة تسرّبت إلى الحكم أخبار مؤامرة يدبّرها بعضُ فقهاء قرطبة وأقربائه أمثال عيسى بن

دينار ويحيى بن يحيى اللّيثي ويحيى بن مضر القيسي، والذين كانوا من السّاخطين على سلوكِه وطريقة حكمه، فقام بالقبض عليهم وأعدمَ 72 فردًا منهم، كان من بينهم «يحيى بن مضر القيسي» و«أمية» و«كليب» ابنيّ الدّاخل مؤسّس الدّولة الأمويّة بالأندلس، وجدًّا الحكم بن هشام، وقد فرّ يحيى اللّيثي وعيسى بن دينار من سخط الحكم عليهم الذي عرف بشدّته في قمعه للثّورات وقطعه في أحكامه، وهذا ما أدّى إلى قيام ثورة في قرطبة عام 202 للهجرة واجهها الحكم بمنتهى القسوة حتّى أفشلها فنكّل بالثّوار وهدمَ منازلهم وشرّدهم في أرجاء الأندلس، فرحل الآلاف عن المدينة فعبرتْ جماعةٌ إلى المغرب الأقصى بترحيب من الأدارسة واتّجهت جماعةٌ أخرى منهم تبلغ ما يقارب15 ألفًا إلى مصر، وأسّسوا في مدينة الإسكندرية إمارةً أندلسية مستقلّة، ثمّ ما لبثوا أن غادروها إلى جزيرة أقريطش أو كريت عام 212 هجريّة، وأسّسوا بها إمارةً دامت زهاء قرنٍ وثلث، وواكب هذه الاضطرابات الدّاخلية بالأندلس فقدان بعض المدن مثل جرندة وبرشلونة، فكانتا النّواة الأولى التي تكوّنت منها كونتية برشلونة، تلك التي غنمها *شارمان* ملكُ الدّولة الكارولنجية بعد عدّة محاولات منه لنزع المدينة الحصينة من المسلمين، إلّا أنّ الحكم استطاع أن يردع *لويس ابن شرلمان* عن غزو مدينة طلوشة، ولكنّه- رغم محاولاته- فشلَ في استرداد برشلونة، لكنّ هذا لم يمنعه من مواصلة صدّ الخطر الصّليبي والتقدّم لغزو أراضيهم، فأرسل حملةً ناجحة إلى مملكة أشتوريس هدفتْ إلى تخريب المناطق الشّمالية وإشعار *ألفونسو* الثاني بقوّة المسلمين، ولكنّ الحملات التّالية باءت بالفشل باستثناء إغارة تمّت على

جليقية، كما تحالف الأستوريسيين والفرنجة ثانية، فأرسل الحكم حملةً على بنبلونة عام 200 للهجرة والموافق للعام 816 من الميلاد، فكان القتال سجالًا بين الطّرفين، وكانت هذه الحملةُ خاتمة لنشاطه الجهاديّ ضدّ ممالك الشّمال فتوفّاه الله بعدها بستّة أعوام، وورث ملكه ابنه عبد الرحمن الثاني أو الأوسط، الذي كان عهده انطلاقة جديدة لحضارة رائدة ومتفوّقة، فقد كان الذي نشأ نشأةً مليئة بالعلم والتربية الحسنة، فتعلّم على يد أبيه السياسةَ والقيادة، وكان يرسله في الحروب على رأس الجيش، وكان محبًّا للأدب والعلم، ويُكثر من تلاوة القرآن وحافظًا للحديث، وكان عادلًا في الرّعية جوادًا كريمًا عكس أبيه؛ لذلك اجتمع في بلاطه رجالُ الدّين والأدب والعلم والموسيقى أمثال يحيى بن الحكم الغزال وعباس بن فرناس، والشّعراء أمثال عباس بن نصح وعبد الله بن الشمر، والموسيقيّون أمثال علي بن نافع الملقّب بزرياب القادم من بغداد بفنون الموسيقى الشرقية، كما اهتمّ عبد الرحمن الثّاني بمنشآت الحكم فشيّد القصور والمساجد، وطوّر جميع الخدمات بالبلاد من جسور وأحواض للمياه، فوضحت الشّخصية المعمارية الأندلسية في عصره الذي اتّسم بالاندماج الاجتماعي بين مختلف الأعراق، فأصبح عهدُه أسعد عهودِ الأندلس، حتّى سمّاه المؤرخون أيّام العروس، وبرغم كلّ هذا لم تكنْ فترة حكمه خاليةً من الثّورات والفتن، فبعد تولّيه الحكم بأيام قامت ثورةٌ عليه عُرفت بثورة الذّميين التي كانت نتيجة لظلم والي البيرة للناس الذين خرجوا وتجمّعوا أمام باب الأمير مطالبين بالعدالة والإنصاف، فخرج إليهم وحدّثهم إلّا أنّهم أبوا، فأطلق عليهم بعدَ ذلك جمع من

الجنود فقاتلوهم قتالًا شديدًا راح ضحيّته معظمهم، كما خرج عليه عمّ أبيه والمسمّى عبد الله البلنسي مرّتين فقمع ثورته، فاضطرّ الأخير إلى ترك الأندلس وغادر إلى المغرب وماتَ هناك، وثار عليه أيضًا أهالي حصن ماردة في عام 213 من الهجرة، فأرسل جيشًا للقضاء على الثورة ففشل، إلّا أنّه نجح في إخمادها بعد عدّة سنوات استنزفت خلالها قوات الجيش وثروة البلاد، فهدم سورها، وألقى بحجارتِه في النهر، ولم يكن نضاله ضدّ الثّورات الداخلية فقط؛ بل كان عهدُه جهادًا متواصلًا ضدّ الكارولنجيّين والأشتوريسيين لا يفرغ من هؤلاء إلّا يقارع أولئك، كما أرسل عدّه هجمات لاستعادة برشلونة، ولكنّها لم توفّق في تحقيق هدفها لاستبسال الفرنجة في الدّفاع عنها، وليس ذلك فقط فقد دخل في صراع أيضًا مع النّورمان الذين شكّلوا خطرًا حقيقيًّا هدّد عرشه، ففي عام 225 للهجرة دخل النورمانديون الفايكنج من جهةِ المحيط عبر لشبونة فهاجموا إشبيلية وهدموا سورها، واستباحوها ما يقارب من العشرة أيّام، فحاصرهم عبد الرحمن الثّاني، وهزمهم، واستطاع إخراجهم من المدينة ومِن كلّ الأندلس، فأعاد على أثر هذه الحادثة بناءَ سور إشبيلية، وأنشأ أسطولًا بحريًّا أندلسيًّا عظيمًا للدّفاع وصدّ الخطر عن سواحل الأندلس الممتدّة، فقضى عبد الرحمن الثّاني 16 عامًا في الحروب والقضاء على الثّورات والفتن، وبعدها استطاع التفرّغ لإعمار الأندلس، فقامت نهضة عمرانية، ثقافية وعسكرية عظيمة في عهده، فعمّ الخير على كلّ الناس حتّى لم تعدْ تجد متسوّلًا واحدًا في البلاد، وجدّد جامع قرطبة، وازدهرت حركةُ العمارة والزخارف التي كان يحبّها، ورصف الطرقات،

وجعل الإنارة ليلًا، حتّى أصبحت الأندلس درّةَ عقدِ بلاد المسلمين، وكان أوّل مَن أدخل بها كتب الأوائل، ونشط الاقتصاد والزراعة في كلّ ربوع الأندلس، وعلى أثر هذا التقدّم والنهضة التي شهدها عهده تطلّع النّصارى للأندلس على أنّها رمزُ العلم والحضارة؛ فاعتنق الكثيرُ منهم الإسلام وهو ما أغضب القساوسة والرهْبان فظهرت بذلك حركةُ الرّهبان التي أثارها مستعربو قرطبة.

***

فقاطعه *بلاس*:

- مستعربون؟

فردّ ياسين:

- نعمْ هذا المصطلحُ يطلق على النّصارى الذين تأثّروا بالثقافة العربية واندمجوا فيها، ولكنّ حقدَ رهبان قرطبة بسبب انكماش نفوذهم دفع أحدَهم، ويدعى *إيلوخيو*، على قيادة تيار متطرف انتحاريّ يدعى الاستشهاد الصّليبي، يقوم أفراده بسبّ الدين الإسلامي ومقدّساته في أماكن عامّة حتّى يحكم عليهم بالإعدام، فيعتبروا شهداء قدّيسين ماتوا من أجل عقيدتهم، فبادر عبد الرحمن الثاني إلى دعوة أساقفة دولته إلى عقد مجمع كنسيّ ليحدّ من هذه الظاهرة التي تهدّد جوّ السّلم والتّسامح الذي كان يسود المجتمع الأندلسي، ونتج عن اجتماع الأساقفة استنكارهم لهذه الظّاهرة فاعتبروها تخالفُ تعاليم الكنيسة، ومع ذلك استمرّ *إيلوخيو* على تحدّيه لحكومة قرطبة حتّى تمّ نفيه إلى بنبلونة، ولمّا عادَ منها ليستأنف فتنته،

كانت نهايتُه على يد الأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني الذي كان قد تولّى الحكم خلفًا لوالده الذي توفّي عام 238 للهجرة والموافق للعام 852 للميلاد، ولقب بمحمّد الأوّل والذي رشّحه للحكم الفتيان الصّقالبة الذين تمتّعوا بنفوذ كبير داخل قصر الحكم.

فاستفسرَ *بلاس* قائلًا:

- الصّقالبة؟

فأجاب ياسين في الحال:

- نعم هُم عبيدٌ وأرقّاء، أصبحوا أحدَ عناصر المجتمع الأندلسي والمغاربي خلالَ العصور الوسطى، فكانوا من الخدم والمماليك الذين جلبهم النّخاسون الجرمان واليهودُ أطفالًا من بلاد الفرنجة وحوض الدّانوب وبلاد اللونبارد ومختلف ثغور البحر المتوسط، وتمّ بيعهم في الأندلس، وتطوّر وضعُهم تدريجيًّا حتّى أصبحوا يديرون شئون القصور الملكيّة الأموية، وهم مَن فضّلوا محمد الأوّل على أخيه لما كان يتميّز به من خبرات إدارية وعسكرية وكان وثيقَ الصّلة بوالده فتولّى الإمارة مدّةً تضاهي التي قضاها والدُه في الحكم، وباستثناء ارتفاع حدّة التّوتر بمناطق الثغور ومحاولات المولدين الخروج على النّظام نعمَتِ الأندلسُ في ظلّ حكمِه بالهدوء والاستقرار وسيادة الدولة.

فعاودَ *بلاس* الاستفسار قائلًا:

- أعتذرُ لمقاطعتك ثانية، ولكن ماذا تعني المولدون؟

فأجاب ياسين قائلًا:

- أطلقَ هذا المصطلحُ على الجيل التّالي لجيل الفتح الذي كان نتاجًا لتزاوجِ الفاتحين بالسكّان الأصليّين، فبعد عدّة أيّام من تولي محمد الأوّل الحكمَ بقرطبة قام المولّدون والمستعربون بثورة في طليطلة فأسرع محمد الأوّل لقمعها، ومع تطوّر الأحداث تلقّى الثّوار دعمًا عسكريًّا من *أردونيو* الأوّل ملك أشتوريس الذي خلف *روميرو*، كما نالوا تشجيع البشكنس، ولكنِ استطاعت القوات الأموية دحرَهم، والسّيطرةَ على طليطلة، كما تمّ قمع ثورة عبد الرحمن بن مروان الجليقي الذي كان قد تحالف مع *ألفونسو* الثالث خليفة *أردونيو* الأوّل، ولكنّه خضع في النّهاية لسلطة قرطبة، فعيّن حاكمًا على بطليموس ونواحيها، كما أفشل محمد الأوّل المحاولات المتكرّرةَ للثّائر المولد عمر بن حفصون، وقمع ثورة بني قسي التي تجدّدت في المناطق الشمالية، ولم تثنِه هذه الثورات عن الإغارة على مملكة أشتوريس، كما استطاعت قوّاته البحرية اليَقِظة من صدّ هجمات النورمان الفايكينج التي تجدّدت، كما تمكّنت قواته البرية من دحْرهم عند الجزيرة الخضراء ولمّا فرغ منهم اهتمّ بضبط أطراف بلاده فحصّن الثغور وأنشأ حصون ثغريّة جديدة قوبلت بتطوير التّحصينات من طرف الأشتوريسيين، وتلا ذلك عدّة حملات ناجحة قام بها محمد الأوّل على مملكة أشتوريس حتّى جنح الطّرفان للسلم، فتمّت معاهدة سلام بينه وبين *ألفونسو* الثّالث؛ فسَادَ الهدوءُ بين المملكتين فيما تبقّى من فترة حكمِه، حتّى جاء أجلُه بعد أنْ نجح في إعادة توحيد ربوع الأندلس فورثَ ملك دولته الفتية ابنُه المنذر الذي كان أبرزَ أبنائه تأدية للمهامّ التي

كلّف بها في مجابهة نصارى الشّمال وقمع الثورات، فعندما جاءه خبرُ وفاة والده عادَ إلى قرطبة حيث كان يحاصر حصن الحامة الذي كان يتحصّن به عمر بن حفصون وحلفاؤه، فتسلّم مقاليد الإمارة في العام 273 للهجرة والموافق للعام 886 من الميلاد، ولوْلا قِصَر مدّة حكمه التي كانت أقلّ من عامين لتمكّن من محْو كلّ الثورات والحركات الانفصالية، فخلال فترة حكمِه القصيرة استطاع أنْ يقضي على أعوان عمر بن حفصون الذي كان يسعى لتكوين مملكةٍ له في جنوب الأندلس، ولكنّه أثناء حصاره له ببربشتر فاجأه المرضُ الذي تسبّب في وفاته فخلفه أخوه عبد الله، وكان ذلك في العام 275 من الهجرة والموافق للعام 888 من الميلاد، والذي دام حكمُه خمسةً وعشرين عامًا، جابَه خلالها ثوراتٍ متتاليةً ومحاولات انفصالية حالت دون تفرغه لمواجهة نصارى الشّمال، فتهدّدَ كيانُ الدّولة الأموية بالأندلس لولا ثباته وشجاعة قوّاده، ولكن حكمه الفعلي انحصر في قرطبة وما حولها وبعض المدن التي استقلّت بالحكم كانت تتبعه شرفيًّا وبعضها كانت تتحمّل عبء الدّفاع عن حدودها مع نصارى الشّمال، ذلك في الوقت الذي كان *ألفونسو* الثالث يستغلّ هذه الأوضاع في تقوية مملكته، وتحصينها وتعميرها، كما نشأت إمارة نبرة أو نافار في بلاد البشكنس جنوب غرب جبال البرينيه وعاصمتها مدينة بنبلونة، وكانت علاقتها جيدة مع الأندلس في ظلّ حكم عبد الله الذي تزوّج من ونقة أو در ابنة فرتون الحاكم النّفاري، كما كانت برشلونة قاعدة الثّغر القوطي سبتمانية قد تحرّرت من الوصاية الكارولنجية، وكانت تكنّ العداءَ للإمارة الأمويّة بقرطبة، وفي عهد عبد الله استطاع قائدُه عصام الخولاني

افتتاحَ جزر البليار، ثمّ خلف عبد الله في الحكم الشّخصية الأكثر جاذبية، وتألّقا في تاريخ الأندلس كله.

فقال *بلاس*:

- بالتّأكيد ستتحدّث عن عبد الرحمن الناصر.

فردّ ياسين:

- أيْ نعم سيّد *بلاس*، إنّه الأمير الذي نشأ يتيماً في كفالة جدّه عبد الله الذي اكتشف فيه ذكاءً ونجابةً وقوّةَ شخصية، فاختاره ليكون وليّ عهده حيث وجد فيه الشّخص المناسب لضبط البلاد وتوحيدها وإعادة مجدها؛ فأعدّه لهذه المهمّة خيرَ إعداد، فدرس في قصر جدّه علوم الأدب والفروسية، وأتقن مهاراتِ السياسة، وكان جدّه يكلّفه بأنْ ينوبه في المناسبات الرّسمية، فأصبح الشخص الأكثر تأهّلًا للإمارة، فتمّت البيعة له في نفس يوم وفاة جدّه في مستهلّ ربيع الأوّل للعام 300 للهجرة والموافق للعام 912 للميلاد، وكان عمرُه حينئذ ثلاثةً وعشرين سنة، وكانت ولايته من الغريب لأنّه كان شابًّا، وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون، فاحتازها دونهم وكان أوّل مَن بايعه أعمامُه وهُم: أبان والعاصي وعبد الرحمن ومحمد وأحمد، وتلاهم إخوةُ جدّه العاصي وسليمان وسعيد وأحمد، وبايعه بعد ذلك عامّة النّاس بوجوه متهلّلة وصدور منشرحة، وألسنةٍ داعية وشاكرة لله عزّ وجلّ على ما قلّده من أمرهم، وأصاره إليه، وكانت الأندلس عندما تولّى الناصر إمارتها مضطربةً بالمخالفين مضطرمةً بنيران المتغلّبين، فالبلاد كلّها- عدا قرطبة- كانت قد اختلفت

على الأمويين، واستولى أهلُ النّفاق والشّقاق على كورها ومعاقلها، وبذلك فإنّ أميرنا كانت تنتظره مهمّاتٌ صعبة ومسئوليات جسيمة، لم تقعد به همّتُه على القيام بها، فتطلّع فور تولّيه الحكم بمنتهى الجديّة إلى تنفيذ خطّة محكمة لإعادة وحدة البلاد، والقضاء على كلّ الثّورات والحركات الانفصالية بالتسامح فيما مضى، شريطة إعلان الولاء لسلطته المركزية بقرطبة أو الوعيد بالبطش لكلّ مَن يعبث بأمن ووحدة البلاد، فاستجاب له بعضُ الثّائرين، ولكنْ عمر بن حفصون وحلفاؤه أصرّوا على استمرار تمرّدهم؛ فشنّ عبد الرحمن حملةً استمرّت ثلاثة أشهر استردّ خلالها سبعين حصنًا تابعًا لهم، ثمّ أرسل الحملات العسكرية في كلّ الاتجاهات لضرب معاقل الثائرين، فاستردّ مالقة في شعبان عام 300 للهجرة، كما استردّ كورة جيان في ربيع الآخر من نفس العام بعد أنْ أرسل إليها حملة بقيادة العباس بن عبد العزيز القرشي لقتال وتأديب الثّائر البربري الفتح موسى بن ذي النون وحليفه إدريس الباجي المشهور بإذربلش فهُزِما وقتل الأخير، ولم يكتفِ النّاصرُ بذلك بل أخضع إشبيلية أيضًا في جمادى الأوّل من العام 301 للهجرة، وعيّن سعيدًا بن المنذر القرشي حاكمًا عليها، وهكذا بسط الناصر سيطرتَه على معظم الأراضي الأندلسية، وفرض هيبتَه عليها، وبذلك ضيّق الخناق على الثّائر عمر بن حفصون، فأجبره على الاستسلام، فأعلن ولاءه لعبد الرحمن، وبذلك تمّ القضاءُ أخيرًا على أخطر ثورة شهدتها البلاد في ظلّ الحكم الأموي، كما قمع محاولات أبناء ابن حفصون إعادة الثّورات بعد وفاته، وأتمّ السيطرة على ما تبقّى من حصون كانت تابعةً لهم، كما استعادَ السيطرة الأموية على

لورقة ومرسية القديمة ولبة وماردة وشنترين وشنترية وشاطبة وبلسية وباجة وبربشتر، كما انتزع- أيضًا- بطليوس من صاحبها عبد الرحمن الجليقي، وكان ذلك في سنة 317 من الهجرة والموافق لسنة 930 من الميلاد، وأخضع طليطلة، وقضى على تمرّد سرقسطة التي أرسل لها جيشًا يقوده وزيره عبد الحميد بن بسيل ثمّ أتبعه بآخرَ تحت قيادة سعيد بن المنذر القرشي، ثمّ لحق بهم بنفسِه على رأس جيش ثالث داعمًا للجيشيْن السّابقين، وكان ذلك في رجب من عام 325 هجريّة، وبهذا دانت كلّ الأندلس لسلطانه وتوحّدت من جديد تحت لوائه، ولكن في خضم كلّ هذه المعارك وأثناء إخماده للثّورات المتتالية أقدم عبد الرحمن الناصر على اتّخاذ قرارٍ جريء إنْ لم نقل إنّه مصيري، لم يجرؤ على اتّخاذه أحدٌ من أسلافه من أمراء بني أمية في الأندلس.

فاستفسرَ *بلاس*:

- ما هو هذا القرار؟

أجابه ياسين سعيدًا بنقاشهما، وقال:

- بعد جهدٍ استمرّ لستّة عشر عامًا انتهى بالقضاء على كلّ الثائرين وقمع أخطر تمرّداتهم على الحكم في قرطبة، وتحديدًا في مستهلّ ذي الحجة من العام 316 للهجرة والموافق للعام 929 من الميلاد؛ أعلن عبد الرحمن الناصر عودةَ لقب الخلافة الأموية في الأندلس، ولأوّل مرّةٍ منذ سقوطها في المشرق الإسلامي على يد العباسيّين، فأضحى بذلك أوّلَ خليفةٍ أموي

وأمير للمؤمنين بالأندلس، بالإضافة إلى لقبه الشّرفي وهو الناصر لدين الله، وبذلك أصبحت قرطبة عاصمة الخلافة الأموية وحاضرة عصرها.

تساءل *بلاس* مجدّدًا:

– وما خطورة هذا القرار؟ وما أهمية هذا اللقب؟

عقدَ ياسين حاجبيه في جدّ، وقال:

– خطورةُ هذا القرار تتمثّل في أنّه بذلك قد أحيا الخلافة الأموية التي كانت قد زالتْ في دمشق، وحلّ محلّها الخلافة العباسية في بغداد، فبذلك أصبح للأندلس خليفة كما سبقتها الدولة العبيدية في القيروان قبل ذلك بعدّة أعوام بمبايعة خليفة لها، فتمزّق الرباط الرّوحي الذي كان يوحّد العالم الإسلامي ولو اسميًّا تحت لواء الخليفة العباسي ببغداد.

فتساءل *بلاس* قائلًا:

– وما أهميّة الخلافة للمسلمين؟

أجابه ياسين:

– منذُ وفاة الرسول، عليه الصلاة والسلام، والأمّةُ الإسلامية يقودها خليفةٌ واحد، هو الحاكم الذي يخلُف الرسول في إدارة شئون الأمّة، وعلى مدار تاريخنا الإسلامي الممتدّ لألف وثلاثمائة عام حصلَ حدثان استثنائيّان لشأن الخلافة، أوّلهم ما حدث من تعدد الخلفاء كما ذكرت لك، والثاني ما حدث هذا العام بالتحديد.

هنا قال بلاس:

- أتقصدُ سقوطَ الخلافة العثمانية في إسطنبول؟

فأجابه ياسين قائلًا:

- أيْ نعم سيّد بلاس، فالدّولة العثمانية وريثة الدولة العباسية، والتي وحّدت العالم الإسلامي تحت لوائها لمدّة تقرب ستمائة عام باستثناء المغرب الأقصى، ثمّ فقدت معظم أراضيها بسبب اشتراكِها في الحرب العالمية عندما دخلت في مواجهات متزامنة في عدّة جبهات دون وجود الجاهزيّة الكافية من تسليح وتدريب وإمداد، فهزموا من الرّوس في الجبهة الشرقية، ومن البريطانيين في الجبهة الجنوبية؛ ممّا أجبر الدّولة العثمانية على توقيع اتفاقية هدنةٍ في مودروس نتجَ عنها احتلالُ معظم الأراضي التركية من قبَلِ الحلفاء، فرفض الأتراكُ الخضوع لتلك الشّروط المجحفة، فاندلعت التّظاهرات التي سرعان ما تحوّلت لحركة وطنية تزعّمها القائدُ العسكري مصطفى كمال أتاتورك، والذي ذاع صيتُه خلال قيادته الدّفاع عن مضيق الدردنيل، والذي يشوب أعماله الكثير من الرّيبة، فشكّل حكومة وطنية تهدف إلى إقامة دولةٍ تركية قوميّة مستقلة، ففشل السّلطان محمد السادس في التصدّي لهذه الحركة ثمّ تنازلَ عن العرش لأخيه عبد المجيد الثّاني الذي جرّد من السّلطة وظلّ حاكماً شرفيًّا حتّى ألغيت الخلافةُ في مارس الماضي ليصبح العالم الإسلامي لأوّل مرّةٍ بدونِ خليفة، وعقب ذلك قسّم المستعمرُ الفرنسي والبريطاني

بلادَنا إلى دويلات قوميّة تفصلها حدودٌ مستحدثة طبقًا لاتفاقية سايكس بيكو التي تمّت بينهما عام 1916م.

فعقّب *بلاس* قائلًا:

- نعمْ سيّد ياسين، وماذا عن أميرنا النّاصر.. ماذا حدث بعد أنْ أحيا الخلافة الأموية بالأندلس؟

قال ياسين:

- بعدها شرعَ في تنفيذ مشروع أكبر، وهو إعادة توحيد العالم الإسلامي من جديد من مشرقه إلى مغربه تحت قيادة الخلافة الأمويّة بقرطبة، بعد أن يطيح بالخلافة العبيدية والعباسية، ولكن بالطّبع هذا المشروع كان أكبرَ من الإمكانيات المتاحة، وبعيدًا بُعد هذه المسافات الشاسعة، ولكنّه كان غاية توحّد أهل الأندلس وتأصّل سلطانه عليهم، فاكتفى بمراقبة نشاط الدولة العبيدية الشّيعية التوسعية بشمال إفريقيا فعزّز تواجده بالمغرب الأقصى بأنْ أنشأ قاعدتيْن له بسبتة وأصيلة، ثمّ سيطر على مرسى واسط الواقع بين سبتة وطنجة التي ضمّها هي أيضًا لدولته الفتية، وعمل على استقطاب دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى في صفّه لمواجهة عدوّهم المشترك حتّى وصل لحكم العبيديين أبو تميم معد الملقب بالمعزّ لدين الله، والذي مدّ سيطرة دولته على مدن شمال المغرب الأقصى عدا سبتة وطنجة فمنعه من الاستيلاء عليهما والتقدّم نحو جنوب الأندلس انشغالُه بانتزاع مصر من الإخشيديين وجعلها مركزًا لخلافته، ورغم ذلك هاجم الأسطول العبيدي بحرية الأندلس عند ميناء المرية، وأحرق السفن

الراسية، ونهب أفراده المدينة؛ فأرسل عبد الرحمن الناصر أحدَ قوّاده وهو غالب النّاصري على رأس حملةٍ انتقامية على مدينة سوسة بشمال إفريقيا، ثمّ هاجم بحريًّا وبريًّا قواعدَ العبيديّين، فأغارت قواته الأندلسية على مدينة تونس، أمّا بالنسبة لممالك الشمال النصرانية فمعَ بداية عهده كانت تتمثّل في مملكة ليون وجليقية ونبرة وقشتالة وإمارة برشلونة بعد أن تقاسمَ أولادُ *ألفونسو* الثالثة مملكة والدهم واستقلّ كلّ ابن بما ورثه، ولم تشهدْ فترةُ ولاية الناصر تغيرات كبيرةً في الصّراع معهم تتعدّى الصوائف التي كان يرسلها للحدّ من تهديدهم للحدود الشّمالية لدولته، فيمكن القول أنّ نتائج المواجهات بين الطّرفين كانت سجالًا، ولم تحدث تغييرًا ملموسًا على أرض الواقع، كما مكّنت شخصية عبد الرحمن الناصر العبقرية له أنْ يتبوأ مركزَ الزّعامة لغرب العالم الإسلامي، وأن يصبح موضعَ إعجاب وتقديرٍ لمعاصريه من حكّام العالم، والذين حرصوا على إقامة علاقاتِ صداقةٍ مع دولته، فكانت قرطبة قبلة للسّفراء المسلمين والأوروبّيين، كما حدث تبادلٌ ثقافي بين الأندلس والدولة البيزنطية، فكانت الدّولتان تنعمان بمرحلة ازدهارٍ فكريّ، فتبادلت قرطبة وقسطنطين السّفارات المحمّلة بالهدايا والمخطوطات القيّمة، أمّا علاقته بالإمبراطورية الرّومانية المقدّسة، فرغم ما كان من توتّرٍ نتيجة لنشاط البحرية الأندلسية المنطلقة من بروفانس إلى سواحل جنوبِ فرنسا وشمال إيطاليا وصولًا إلى سويسرا؛ إلّا أنّ الاحترام كان متبادلًا بين العاهليْن، وبما أنّ عهد الناصر يعتبر ذروةَ تفوّق الأندلس الحضاري فقد تجلّى ذلك في التقدّم

والإبداع العمراني وبناء القصور والمنشآت العامّة، فغدتْ قرطبة في عهده واحدةً من أعظم مدن العالم، بل ونافست- ببهائها وعظمتها وفخامتها- بغدادَ نفسها، واتسعت حتّى بلغ عددُ سكّانها نحو نصف مليون نسمة، وشرطتها 4300 فردًا، وكان بها 3837 مسجدًا و113 ألف دار، ونحو 300 حمّام عام، وأرباضها 28 ربضًا حول المدينة، ولها سبعة أبواب، كما كثرت بها القصورُ والمنتزهات الفخمة، فبلغت شهرة قرطبة حينئذ الآفاق، حتّى عرفتْ بجوهرة العالم، وليس ذلك فقط؛ بل إنّ الناصر- وعلى غرار أسلافه من أمراء وملوك بني امية- اهتمّ بعمارة مسجد قرطبة الذي استغرق بناؤه ليصير بشكله النهائي هذا نحْو قرنيْن من الزّمن، فقد بدأ تشييده عام169 هجريّة والموافق للعام 785 من الميلاد في عهد عبد الرحمن الداخل الذي أمر بجلب الأعمدة والرّخام له من أربونة وإشبيلية والقسطنطينية، وكانت المئذنة قائمةً على واجهة جدار الصحن، بيْدَ أنّ الدّاخل توفي قبل إتمام المسجد فخلفه ولدُه هشام فأتمّه وأنشأ منارته الأولى، وفي عهد عبد الرحمن الثاني ابن الحكم زيد عددُ الأجنحة إلى اثنين من جهة القبْلة، فجدّد عبد الرحمن الناصر واجهةَ الجامع، وهدم منارته القديمة، وأنشأ له منارةً جديدة أعلى وأضخم، وكان ذلك في عام 340 للهجرة والموافق للعام 951 من الميلاد.

فقال *بلاس*:

- نعم، شاهدتُها في زيارتي لقرطبة، فهي قمّةٌ في الفخامة، وشاهدةٌ على عظمةِ هذا العصر، أمّا المسجد فتعجزُ كلماتي عن وصف إبداعه.

فعقّب ياسين قائلًا:

– ولكنْ للأسف غيّر القشتاليّون معالمَ هذه المنارة، فقد كانت مربعة الواجهات، ولها أربعُ عشْرة نافذة ذوات عقود، وتحتوي على سلّمين أحدُهما للصعود وآخرُ للنّزول، وفي أعلاها ثلاث تفّاحات، أي كرات ضخمة؛ اثنتان من الذّهب والثّالثة من الفضة، فكانت إذا أرسلت الشمسُ أشعّتها عليها تكادُ تخطف الأبصار ببريقها، أمّا الآن كما رأيت أنت تمّ استبدال قمّتها ببرج للأجراس لا ينسجم مع الطّراز المعماري المميّز للمسجد على إثر تحويله إلى كنيسة، وبالعودة لإنجازات الناصر، فقد أمر ببناء مدينة ملوكية له تبعد عن مدينة قرطبة مسافة 8 كلم بشمالها الغربي على سفح جبل العروس، وكانت أعظم ما شيّد في فترة حكمه تلك المدينة، والتي أطلقَ عليها اسمُ الزّهراء، والتي أضحت من مُعجزات زمانها، فقد كان النّاس يفيدون من كلّ نواح العالم لمشاهدة هذه التّحفة المعمارية، التي أرسل الناصر في استجلاب مقتنياتها وموادّها من القسطنطينية وبغداد وأوروبا وتونس، وكانت الزّهراء مقسّمة إلى ثلاثِ طبقات، سفلى للحرّاس والكتبة والعمّال، والعليا للوزراء وأصحاب شئون الدولة، والوسطى بها قصرُ الخلافة، وقد قطع كلّ مَن دخل القصر مِن كلّ الطبقات أنّه لم يرَ لها شبهًا، ولم يخل أنّه قد يكون شيء مثلها قط، وقد كان أكبر مَا يأمله مَن يمرّ بالأندلس هو أنْ يرى القصر من بعيد، أو حتّى يسمع خبرَه، فقد قيل بأنّ الناصر استخدم لبناء الزهراء 10 آلاف عامل، ونخبةً من الحرفيّين والمهندسين العظماء، فكان يحمل يوميًّا لبناء

الزّهراء ستّة آلاف صخرة منحوتة على ظهور 1500 دابة، وقد بدأ بناء المدينة في محرّم لسنة 325 من الهجرة الموافق لسنة 936 للميلاد، وكانت كلّ تلك الفخامة والحضارة انعكاسًا واضحًا على قمّة المجد الذي بلغه أمراء وملوك بني أمية بالأندلس.

فعلّق *بلاس* قائلًا:

– أتّفق معك، فلقد تمكّنت من زيارة أطلال هذه المدينة العظيمة عن طريق صديقٍ لي من قرطبة، وأدهشني مشاهدتها عن قرب فهي حقًّا معجزة معمارية.

فقال ياسين:

– عظيم، كم أتمنّى أنْ أفوز بزيارتها، أمّا الآن دعونا نكمل حكاياتنا عن حقبة الناصر.

***

اتّسم عصرُ الناصر بالتّسامح الديني، فسمح بحرية ممارسة الشعائر الدّينية للنّصارى واليهود الذين عيّنهم في مناصب ماليه بدولته، ونتيجة لبردٍ شديد أصابه دخل في صراعٍ مع المرض لعدّة أشهر حتّى توفّي في صدر رمضان سنة 350 هجريّةً والموافق لسنة 961 للميلاد، في قصر قرطبة، ودُفن بالزّهراء عن عمر يناهز 73 سنة وقد كتب بخطّ يديه يقول، وكأنّه يخاطب كلّ مَن يتكالب على الملك والسّلطان في هذه الدنيا:

«أيامُ السّرور التي صفت لي بدون تكدير في سلطاني يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا، فعدّت تلك الأيام فوجد فيها أربعة عشر يومًا، فاعْجب أيّها العاقل لهذه الدنيا، وعدم صفائها، وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها، إنّ الخليفة الناصر ملك خمسين سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام ولم يصف له من الدّنيا إلّا أربعة عشر يومًا، فسبحان ذي العزّة العالية والمملكة الباقية، تبارك اسْمُه وتعالى جَدّه». ثمّ تولّى الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر أو الحكم الثاني والذي صار على نفس نهْج والده في إدارة البلاد إلّا أنّه أعطى كثيرًا من الصّلاحيات لوزيره جعفر بن عثمان المصحفي، كما عرف عن الحكم ولعُه بالقراءة والاطّلاع، فقد كان رجلَ علم وأدب وحضارة، فأنشأ في القصر مكتبةً بنى لها بناءً خاصًّا، وأقام لها رجالًا المكتبات من مسجّلين ومنظّمين ومفهرسين، حتّى أصبحت أعظمَ مكتبة في العصور الوسطى، وقد قدّر المؤرخون كتبها بنصف مليون مجلد، جلب الكثير منها من شتّى البقاع والأمصار، ليس ذلك فقط فقد اهتمّ الحكمُ المستنصر بالتّعليم فبنى عددًا من المدارس، وكانت جامعة قرطبة من أشهر جامعات العالم ومركزها المسجد الجامع، فكان يدرّس بها مختلف أنواع العلوم والمعرفة، فليس غريبًا على المستنصر أن يحيط نفسَه بالعلماء والفلاسفة والمؤرخين، كابن حزم وأبو علي القالي اللّغوي وربيع بن زيد، وقد سار الحكم المستنصر على نهج أسلافه من أمراء بني أميّة فأمر بزيادة كبيرة في عدد الأجنحة لمسجد قرطبة، وابتنى له محرابًا ثالثًا، وانشأ له قبة فخمة

زخرفتْ بالفسيفساء البديعة، فقد استقدم لبنائها خبيرًا بأعمال الفسيفساء من القسطنطينية، وأرسل إليه القيصر قدرًا كبيرًا منها، كذلك أنشأ الحكم المستنصر مقصورةً جديدة بها قبّة على الطراز البيزنطي، وابتنى إلى جانبِ المسجد دارًا للصّدقة، وأخرى للوعّاظ ولعمّال المسجد، كما اهتمّ بتحصين ما بقي من نفوذ دولته بالمغرب الأقصى والمتمثّل في مدينتي طنجة وسبتة؛ وذلك لمواجهة الخطر العبيدي، كما طوّر الأسطول المتمركز بالمرية لمواجهتكم بحرًا، ودعّم سلطة أهل السنة بالمغرب، ووطّد تحالفه مع قبيلة زناتة لمواجهتهم على محور الشّمال الأفريقي، ولمّا أراد زعيم الأدارسة الحسن بن كنون إعادةَ مجد دولتهم بالمغرب بعد اضمحلالها وأقدم على انتزاع طنجة وتطوان وأصيلة من الأمويّين؛ أرسل له المستنصرُ عدّةَ حملات آخرها تحتَ قيادة غالب الناصري قائد الثغر الأوسط، استطاعت التغلّب عليه، وتطويعه للخلافة الأموية بقرطبة وتمّ استدعاؤه هو وأسرتُه للعيش بها، أمّا ممالك الشمال فقد كانت تلجأ إلى المستنصر لتحقيق التّوازن في الصّراعات الداخلية فيما بينها، ولمّا عزم ملك ليون على تكوين حلفٍ مع قشتالة ونبرة وبرشلونة لمعاودة الصّراع مع الأمويّين؛ عبّأ لهم المستنصر الجيوش وشنّ عليهم سلسلةً من الهجمات نجحت في فتح بلدة أنتيسة ومدينة قلهرة وقلعة غرماج ومدينة مطونية، كما هاجم برشلونة، ثمّ عادت الصّراعات مرّة أخرى بين ممالك الشمال فعادت تخطب ودّ قرطبة لدعم كلّ منها ضدّ الأخرى، ولطلب السّلام مع الأمويين، وعندما عاود النّصارى نقضَ عهودهم عاودَ المستنصر إرسال الحملات لتأديبهم، ولمّا عاد النورمان أو

الفايكينج لمهاجمة الأندلس من ناحية قصر أبي دانس وسهول أشبونة أو لشبونة الحالية بالبرتغال، فتصدّى لهم المسلمون برًّا ثمّ بحرًا، حتّى أجبروهم على الانسحاب تحت ضغط التفوّق الأموي، وبرز على السّاحة السياسية شابّ طموح ينتمي لأسرة عربية يمنية عريقة اسمه محمد بن أبي عامر، الذي قدم من حصن طرش بالجزيرة الخضراء لطلب العلم بقرطبة، ولكن عبقريّته مكّنته من الارتقاء السّريع من كاتبٍ للرّقاع أمام أبواب قصر الزّهراء إلى جذب إعجاب الحكم المستنصر الذي أخذ يرقّيه في الوظائف فيثبت كفاءته حتّى عيّنه وكيلًا على ابنه ووليّ عهده هشام الذي لقّب بالمؤيد بالله، والذي أخذ له البيعة عندما شعر بزيادة أعراض مرضه، ثمّ وافته المنيّة في العام 366 للهجرة والموافق للعام 976 للميلاد، فتولّى هشام المؤيّد بالله الخلافة بعد أبيه الحكم في صفر من نفس السنة وهو ابن إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر، وهنا لعبَ محمد بن أبي عامري الدّورَ الأبرز في تنصيب هشام المؤيد مدعومًا من الحاجب جعفر المصحفي في مواجهة الصقالبة الذين فضّلوا عليه عمّه المغيرة للحكم، وذلك لصغر سنّ الخليفة الصبي وعدم تمرّسه في الحكم واعتماده في كلّ شئونه على أمّه صبح البشكنجية ووصيّه محمد ابن أبي عامر، فتخلّص الأخير من المغيرة بن عبد الرحمن الناصر بأمرٍ من الحاجب جعفر المصحفي نفسه، حتّى يحفظوا الخلافةَ لهشام المؤيد بالله، ثمّ بدأ محمد ابن أبي عامر بعد ذلك بالعمل على التخلّص من الصقالبة والحدّ من نفوذهم، فقزّم من شأنهم حتّى لم يعودوا يملكون من أمرهم شيئًا، ولينفرد وحده بالسّلطة، ويكون الأمرُ والنّهي له وحده، تتطلّع

للقضاء على الحاجب جعفر المصحفي، مستغلًّا أسهمه التي ارتفعت في قرطبة بعد أنْ عاد منتصرًا على رأس الحملة التي قادها لتأديب القشتاليّين على تعديهم على أراضي المسلمين في الشّمال بعد موت الحكم المستنصر، وبعد إعراض أكابر الدّولة عن قيادة هذا الجيش، ولتدعيم موقفه أكثر تقدّم للزّواج من أسماء ابنة القائد غالب الناصري ليستميله إلى صفّه، ثمّ أقنع ابن أبي عامر حليفته صبح أمّ الخليفة باستصدار مرسوم خلافي من ابنها بعزل المصحفي كحاكم لقرطبة، وجعل مهامّ الحجابة مناصفةً بين المصحفي والناصري، وهو ما عدّه الأوّل انتقاصًا من سلطته، وفي13 شعبان من العام 367 للهجرة كانت نكبة المصحفي بأنْ أصدر الخليفة مرسومَه بإقالته وسجنه هو وأبنائه وأقاربه ومصادرة كلّ أمواله، بعد أنْ نسب إليه العديدَ من التّهم؛ منها التلاعب بأموال الدولة، والاختلاس من الخزينة، وذكر أنّه مات بسجنه سنة 372 للهجرة، وبعد تخلّص محمد ابن أبي عامر من عثرته الأولى أتى الدّور على غالب الناصري، فحدث صراعٌ بينهم انتهى بمواجهة عسكريّة طاحنة تحالف فيها غالب مع القشتاليّين، واستعان محمد ابن أبي عامر بالقائد المغربي جعفر بن علي بن حمدون وفرسانه المغاربة، وتوفّي غالب الناصري أثناء المعركة التي انتصر فيها محمد بن أبي عامر، وكان ذلك في سنة 371 للهجرة، ثمّ تخلّص من ابن حمدون الذي لقّب بفارس الأندلس، ليصبح محمد ابن أبي عامر وحدَه صاحبَ السّلطة والقوّة بلا منافس، واضعًا الخليفة هشام المؤيد تحتَ وصايته بقصره بالزّهراء، وعزله عن إدارة شئون الدولة، بعد أن أشاعَ بين الناس أنّ الخليفة فوّضه إدارة البلاد لتفرّغه للعبادة، ومنع

الخليفة بعدها من الظّهور للناس، وعندما شعرت صبح أم الخليفة بالخطر يهدّد عرش ابنها حاولت طلبَ المساعدة واسترجاع الحكم له، لكنّ المنصور فطن لمخطّطها فرفع يدها عن أموال خزائن قصرِ الخلافة، وأمر بمصادرتها من الزّهراء بعد أن أخلاها من كلّ دواوينها، ونقلها إلى مقرّ حكمه الجديد بالزّاهرة التي ابتناها على غرار الزّهراء عام 370 للهجرة، وجعلها عاصمة لملكه، وجلب إليها كلّ غلمانه وحاشيته ووزرائه، ففرغت الزهراء منهم، وعمرت الزّاهرة التي كانت آيةً في الجمال، فكثرتْ فيها الأسواق والقصور وامتازت بحُسن حدائقها وجَمال عمرانها واعتدال هوائها، حتّى تغنى بها الشّعراء في قصائدهم من شدّة جَمالها وإبداع عمرانها، وأصبحت الزّاهرة هي حاضرة الأندلس، ونافست قرطبة نفسَها في جمالها وروْعة بنيانها، وزادت مساحتها حتّى اتّصلت أرباضها بأرباض قرطبة، وبنى فيها ابنُ أبي عامر مجموعةً من قصوره الرّائعة سمّاها منية العامرية، وبهذا ترسّخ أساس دولة داخل الدّولة هي الدولة العامرية التي كانت تحكمُ من خلال الدولة الأموية وباسمها، ولتكتمل له مظاهرُ الملك لقّب نفسه بالمنصور بالله في سنة 371 للهجرة والموافق لسنة 981 من الميلاد، ودعي له على المنابر مع الخليفة، ونُقش اسمُه على النّقود مكتفيًا برُتبة الحجابة، فعرف بالحاجب المنصور، ثمّ زوّد نفسه بلقبيْن جديدين هما السّيد والملك الكريم، وبعدما استتبّ له الأمر، قامَ بتأمين ظهر دولته، وذلك بإخضاع بلاد المغرب نظرًا لما تمثّله من متنفّس وطلة ربط بين الأندلس وبقية العالم الإسلامي، كما قام بإخماد الثّورات وإخضاع الثوّار، فبدأ بقمع المؤامرة التي قامت

ضدّه واشترك فيها ابنه عبد الله، فتخلّص منه ومِن كلّ المتآمرين عليه، ثمّ عيّن ابنه الآخر عبد الملك وليًّا لعهده وقلّده منصبَ الحجابة من بعده، والتي جعلها المنصور وراثيّة في أبنائه، ثمّ نجحَ في القضاء على ابن كنون عندما عاود الثّورة في المغرب بتحريض من العبيديّين بمصر، فحرص المنصور على الحفاظ على النّفوذ الأمويّ بالمغرب الأقصى والأوسط، وطوال فترة حكمه كثّف الحملات على ممالك الشّمال صيفًا وشتاءً، حتّى زادت عن 54 حملة قادها هو بنفسه قهَرَ فيها ملوك النّصارى وأذلّهم، وكسر شوكتهم وأرغمهم صاغرين على دفْع الجزية واتّخاذ وضعية الدّفاع وعدم التجرّؤ على الهجوم، فحقّق انتصارات لم يحقّقها حاكمٌ للأندلس من قبْلِه، وتوغّل في أراضيهم لأماكنَ لم يصل إليها حاكمٌ مسلم من بعده، ومِن أكبر غزوات المنصور وأشهرها غزوة شنت ياقب، والتي يقال إنّ بها ضريحَ القديس يعقوب أحد الحواريّين الاثني عشر، فبلغها المنصور في 2 شعبان من عام 387 للهجرة والموافق لـ 11 أغسطس من العام 997 م، وقد وجد أهلها قد غادروها بعد أن سمعوا أنّ جيشه على أعتاب مدينتهم، فهربوا رعبًا وخوفًا منه تاركين كلّ أموالهم وديارهم، فاستحقّ المنصور لقبَ مُرعب ملوك النّصارى وكلّ أوروبا، فقد كان مصدرَ رعبٍ وقلقٍ لهم وللفاتيكان نفسه، فخلال كلّ مسيرةِ الحاجب المنصور وجهادِه ضدّ ممالك النّصارى والغزوات التي غزاها بنفسه، لم يهزمْ له جيشٌ قطّ، ولم تنكّس له راية.

***

قاطعَه *بلاس* وقد استبدّ به الإعجاب بهذا البطل المسلم، وقال:

- فعلًا يا صديقي.. معكَ حقّ، سيرة المنصور تُدهشك رغمًا عنك لما وصل إليه بذكائه وهمّته فقط، إنّه حقًّا سياسيّ بارع، ورغم أنّي ألّفت عن سيرته كتابًا مسرحيًّا إلّا أنّك أوجزت لي قصّته بأسلوبٍ سلِسٍ ودقيق.

فعقّب ياسين قائلًا:

- رائع، أسعدني اهتمامُك بسيرته وكتابتُك عنها، فهو يا صديقي لم يكنْ سياسيًّا بارعًا فقط؛ بل كان عالمًا وأديبًا وشاعرًا ومحبًّا لكتاب الله حافظًا له، وهو مَن قام بأضخم وآخر التوسّعات التي تمّت لجامع قرطبة، فتضاعف حجم الجامع، وبلغ عدد سواريه 1417 سارية وعمود، وعدد الثريّات بأنواعها 280 ثرية، وكان يخدم الجامع في عهده، ما بين مقرئين وأئمّة ومؤذنين وسدنة وغيرهم أكثر من 159 شخصًا، فغدا جامع قرطبة منارةً للعلم ورمزًا للحضارة والثقافة كما لم يكنْ من قبل، وليس ذلك فقط؛ بل هو أيضًا مَن جدّد بناءَ قنطرة قرطبة، وأعاد بناءها سنة 387 من الهجرة، وقد استغرق بناؤها مدّة سنتين، وأنفق فيها مالًا كثيرًا، كما بنى قنطرة استجة على نهر شنيل لرفع المشقّة عن الناس والتّسهيل عليهم، وقد تكلّفت الكثير من الجهد والوقت.

ثمّ تنهّد ياسين وأكمل:

- لقد وصلت الأندلسُ في فترة حكمه إلى قمّة قوّتها ومجدها، والمسلمون في الأندلس إلى قمّة عزّهم وحضارتهم، لكنّه توفي رحمةُ الله

عليه في27 من رمضان للعام 392 من الهجرة الموافق لعام 1002م في مدينة سالم وهو عائدٌ من إحدى غزواته على برغش بعد أنْ أصيب فيها بجروح بالغة، ففرحت كلّ أوروبا بخبرِ وفاته، فسارع ابنُه عبد الملك إلى قرطًبة، واستصدر من الخليفة هشام المؤيّد مرسومًا بتولّيه الحجابة، وممارسة صلاحيات والده، فقبض على مقاليد الحكم بصرامة، وواصل سياسة أبيه في حَجْره على الخليفة، والتخلّص من معارضيه، ولقّب بسيف الدولة والمظفّر بالله، فأكمل ما بدأه أبوه الحاجب المنصور بمواصلة غزواته المتوالية على الممالك النّصرانية في الشمال، والتي بدأها بحملةٍ في العام 393 من الهجرة والموافق للعام 1002 م توجّه بها نحو طليطلة فمدينة سالم، وبها انضمّ إليه الفتى واضح العامري والي الثّغر الأوسط، وقوّة نصرانية أرسلها حليفه *سانشو غارسيا* كونت قشتالة، ثمّ تحرّك نحو الثّغر الأعلى، وظلّ في سرقسطة لأيّام، توجّه بعدها إلى الثّغر الإسباني وأرسل قوة بقيادة الفتى واضح، فافتتحت حصنَ مدنيش، وحاصر هو حصن ممقصرة وافتتحَه، ثمّ عاثَ جيشه في كونتية برشلونة، وعاد بعدها إلى قرطبة 5 ذي القعدة من عام 393 للهجرة محمّلًا بالغنائم والسّبي، وفي العام التّالي، خالف *سانشو غارسيا* كونت قشتالة العهدَ الذي كان بينه وبين الحاجب المنصور، فكانت وجهة عبد الملك الثّانية إلى الأراضي القشتاليّة التي اجتاحها دون مقاومة من سانشو، والذي أسرع بعد عودة عبد الملك إلى قرطبة بنفسه يطلب تجديدَ الصّلح معه، فحقّق عبد الملك بذلك انتصاراتٍ هامّةً على النّصارى أرغمت ملوكَهم على الخضوع

له وطاعته، ولكن لم يمرّ على حكمه إلّا ستّة أعوام وبضعة أشهر حتّى توفّاه الله بعد أن أصيبَ بمرض من أمراض الصّدرية، وهكذا انتهى عهد الحاجب المظفّر خليفة أبيه المنصور في سيادته لأمور الدّولة، ليبدأ العهد القصيرُ جدًّا لعبد الرحمن بن محمد ابن أبي عامر، والمعروف بلقب شنجول، وهو الابن الثّاني للمنصور بن أبي عامر وحفيد *سانشو* الثّاني ملك نافارا، والذي تولّى حجابة خلافة قرطبة عام 399 للهجرة والموافق لسنة 1008 للميلاد بعد أخيه الحاجب المظفّر، وكان أقلّ جاهزيّة من والده وأخيه لهذه المسئولية، ومع ذلك منحه الخليفة هشام المؤيّد لقبَ ناصر الدّولة والمأمون، فطمع شنجول في أكثر ممّا يستحقّ، فاستصدر مرسومًا من الخليفة الذي لم يكنْ له ولد بأنّه هو مَن سيخلفه بعد وفاته، ولعقم تفكيره لم يوظّف مكسبه السياسي الجديد جيدًا؛ بل استعدى رجال الدولة وبني أمية عليه، فكادوا له بزعامة شابّ من الأسرة المروانية اسمُه محمد بن هشام بن عبد الجبار والمدعوم من الأمويين والقيسيين وخصوم العامريين، فانتظرَ خروجه بمعظم قواته للجهاد في الشّمال فاقتحم مع مناصريه قصر الخلافة بقرطبة وعزل هشام المؤيد وحلّ مكانه، ثمّ هدم مدينة الزاهرة مقرّ الحكم العامري، ولمّا عاد شنجول كان معظم أنصاره قد انفضّوا من حوله، فوقعَ في قبضة خصومه الذين قتلوه بعد ملك لم تتجاوز مدّته الخمسة أشهر، وكانت سلوكيّاته وسوء سياسته لأمور الدولة بمثابة الشّرارة التي أشعلت فترة الاضطرابات التي سادت دولة الخلافة في الأندلس، وبوفاته انتهت فترةُ حكم وسيادة الدولة العامرية والعامريين بالأندلس تحت ظلّ الخلافة الأموية.

استيقظ *روبير* فتعلّل قائلًا بخمول:

– أمَا زلتما تتحدّثان عن تاريخ الأندلس!!؟ لهذا أثناء نومي حلمت بفرسان ومعارك وملوك تتوّج، وثورات تندلع.

ضحكَ *بلاس* وياسين الذي استعدّ للوقوف قائلًا:

– إذًا، هيّا نذهب لكافتيريا القطار لنتناول الشاي.

فوقفَ *بلاس* وهو يقول:

– فكرةٌ جيده، هيّا بنا.

فتبعهم *روبير* بكسلٍ قائلًا:

– ما أحوجني إلى الشّاي الآن، خذوني معكم.

وصل الشبّان الثّلاثة إلى مقصدهم، وجلسوا على الكراسي الخشبية الطّويلة المطلّة على طاولة تقديم الشاي، فقال ياسين *لبلاس*:

– هل جرّبت الشّاي المغربي من قبل؟

فأجاب *بلاس* بالنفي، فنصحه *روبير* بتجربتِه مادحًا في مذاقه المُنعش. فقال ياسين للنّادل:

– **وحد إبريق أتاي وثلاثة أكواب.**

ومع أوّلِ رشفةِ شاي تذوّقها *بلاس* ظهرتْ عليه معالمُ استحسان مذاقه، فقال:

– فعلًا صدقتَ يا *روبير*، أعجبني مذاقُه المميّز، ولكن أريد أن أعرفَ منك يا سيد ياسين، كيف زالتِ الدّولة الأموية وتمزّقت من بعدِها وحدةُ الأندلس؟

ابتسم ياسين، ثمّ قال:

– لا تقلق. لن أدعَك حتّى أجيبَ عن كلّ استفساراتك، فيُعجبني اهتمامك بالتفاصيل وتسلسل الأحداث، فبعد نجاح محمد بن هشام بن عبد الجبار في الانقلاب والقضاء على الدّولة العامرية نصّب نفسَه خليفةً على البلاد بعد عزله للخليفة الأموي هشام المؤيد وتلقّب بالمهدي، ولكنّه لم يكنِ الرجل المؤهّل لهذه المرحلة الحرجة لضعف شخصيّته وتهوّره وسيطرة أهوائه على تصرفاته فأحاطَ نفسَه ببطانة السّوء، واستعدى بذلك الجميع من عرب وبربرٍ وصقالبة وأعيان قرطبة، كما انغمس في الشّهوات؛ فخسر تعاطفَ العامّة، واصطدم بالأمويّين الذين قادهم ابن سليمان بن هشام، واسمه هشام، وانضمّ لهم العامريّون وبعضُ البربر، وحدثت مواجهاتٌ دمويّة انتصر فيها المهدي وقتل هشام، فتابع ابن أخيه سليمان بن الحكم التمرّدَ مدعومًا من البربر الراغبين في عودةِ حكم بني أمية الموالي لهم، فلقّبوه بالمستعين، وبذلك انقسمت الأندلس بين الحزبيْن اللّذيْن لجأ كلّ منهما للاستعانة بملك قشتالة لدعمِه ضدّ الآخر مقدِّمًا له بعضَ التّنازلات من حصون حدودية، ففضّل العاهل القشتالي عرضَ البربر وأمدّهم بالمؤن والجيش فانتصروا بقيادة المُستعين، واقتحموا قرطبة، وبايعوه خليفة للبلاد بعد أنْ هرب محمد المهدي متخفّيًا، والذي بقيت

مناطق عدّة بالأندلس على ولائها له، فلجأ هو الآخرُ لدعم النصارى من الفرنجة فأمدّه أميرُ برشلونة وأميرُ أورقلة بالجنود، وزحفوا صوب قرطبة واصطدموا بالبربر وانتصروا عليهم، ودخل محمد المهدي المدينةَ مرّة أخرى، وجدّد البيعة لنفسه بالخلافة، ثمّ خرج لمطاردة فلولِ البربر في الجنوب، ولكنّهم انتصروا عليه فعاد إلى قرطبة، واستمرّ في حماقاته وسوءِ سلوكه حتّى تمّ اغتياله بمؤامرة من العامريّين، فأعادوا تنصيب هشام المؤيد، ولكنّ سليمان المستعين والبربرَ لم يبايعوه؛ بل زحفوا صوب قرطبة وحاصروها في الوقت الذي وافقَ فيه هشام المؤيد على تسليم الحصون التي فتحها المستنصر والمنصور لملك قشتالة تجنّبًا لتعاونه مع البربر ضدّه؛ الأمرُ الذي أفقد الأندلس خطَّ دفاعها الأوّل أمام هجمات النصارى، واستمرّ حصار البربر لقرطبة حتّى دخلوها وسفكوا دماءَ الكثير من سكّانها، ودخل سليمان قصرَ قرطبة مرّة أخرى، وتنازلَ له هشام المؤيد للمرّة الثانية عن الخلافة، ثمّ اختفى عن السّاحة السياسية، بعدها طالبَ البربر سليمان أن يعطيهم أجزاءَ من الأندلس ضمانًا لمستقبلهم، كما فرّ العامريّون إلى شرق الأندلس، وأنشئوا دويلاتٍ مستقلّة لهم، وبذلك تفتّتتِ الوحدةُ السّياسية للأندلس، ثمّ ظهر طامعٌ جديد في الخلافة وهو علي بن حمود الذي ينحدر من نسل الأدارسة ويتزعم قبيلة زناتة البربرية، فجمع أنصاره وزحف صوبَ قرطبة، وانتصر على سليمان وقوّاته، وأعدمه بتهمةِ قتله لهشام المؤيد، ثمّ نصّب نفسَه خليفةً متّخذًا لقب النّاصر لدين الله، وحاول جاهدًا ضبطَ أحوالِ قرطبة المنفلتة أمنيًّا، ولكنِ

انتهى به المطاف مقتولًا على يدِ ثلاثة من خدمِه الصقالبة، فخلفه أخوه القاسم بن حمود، ولقّب بالمأمون، والذي بدأ سياسةً إصلاحية، وبعد ثلاثة أعوام انتزعَ ابنُ أخيه يحيى الحكمَ منه بدعم من بربر قرطبة متّهمًا إيّاه باغتصاب عرش أبيه، فرفع على العرش وتلقّب بالمعتلي بالله، وفرّ القاسم إلى إشبيلية فاعترفوا به خليفةً عليهم ولقّب بالمستعلي، والطّريف في الأمر أنّ كلًّا منهما اعترف بحكم الآخر.

ضحكَ *بلاس* مستفسرًا:

- كيف ذلك؟!

فأجابه ياسين:

- هذا يدلّ على تردّي الأحوال السياسية بالبلاد، ولكن سرعان ما خلعَ البربرُ يحيى المعتلي، واستدعوا القاسم إلى قرطبة، ولكن بعد بضعةِ أشهر ثارَ عليه سكّانُ قرطبة وخلعوه، فتولّى إدارة المدينة القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد، بعدَ ذلك سعى سكان قرطبة للتخلّص من حكم البربر عليهم، ورغبوا في إعادة الحكم الأموي، فنصّبوا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر خليفة عليهم، وتلقّب بالمستظهر بالله، والذي بالغ في الشدّة والقمع؛ فثار عليه العامّة، ونصّبوا أمويًّا آخرَ مكانه وهو محمد بن عبد الرحمن حفيدُ الناصر، واتّخذ لقب المستكفي بالله؛ فأساء استخدام سلطته وكان فاسدًا، وذا شخصيّة ضعيفة، ثمّ عاد يحيى بن حمود إلى قرطبة، ومكث فيها ستّة أشهر، ثمّ تركها تحت إدارة الوزير أبا جعفر

أحمد بن موسى مدعومًا بمئات الجنود من البربر، فتذمّر سكّان المدينة من سيطرتهم، ففتكوا بهم بتحريض من الفتيان العامريّين الصقالبة، فدخلت قرطبة في فوضى وفراغٍ سياسي نتج عنه بروزُ رجال سياسة حُكماء كان لهم الدّورُ الأبرز في استقرار الأوضاع السياسية، وأبرزُهم كان الوزير أبو الحزم جهور الذي سعى لإيجاد حاكمٍ أمويّ يضبط أمورَ البلاد فعيّن هشام بن محمد بن عبد الله بن الناصر شقيقَ عبد الرحمن المرتضى، ولقب بالمعتدّ بالله، ولكنّه مال إلى حياة الزّهد والتقرب إلى الله، وترك الإدارةَ للطّامعين في جني الثّروات؛ فقرّر القرطبيون العصيانَ المدني، ممّا ترتّب عليه أن قرّر أبا الحزم جهور- مدعومًا من رؤساء العائلات العربية- إلغاء الخلافة الأموية، وطردَ الأمويّين من المدينة، فتمّ إبطال رسم الخلافة، وبخلع هشام المعتدّ كتبت نهايةُ الدولة الأموية بالأندلس بلا رجعة، وكان ذلك في العام 422 هجريّة، والموافق للعام 1031 من الميلاد.

فقال *بلاس*:

- أشكرُك سيّد ياسين، بالتّأكيد طلابُك محظوظون بمعلّم ماهر مثلك، لقد سردتَ أحداثًا دقيقة لما يزيدُ عن مائة وسبعين عامًا من عُمر الأندلس بأسلوبٍ سهْل وسلِس، أحيّيك على هذا.

فرَدّ ياسين:

- هذا مجالُ عملي الذي اخترتُه حبًّا فيه، والآن هيّا بنا إلى مقصورتنا نأخذُ قسطًا من الرّاحة، فلكلّ منّا يوم طويل ينتظره بمراكش.

فقال *بلاس*:

- هيّا بنا.

أمّا *روبير*، فقال وقد بدأ يستعيد حيويّتَه:

- سألحقُ بكم بعد قليل؛ فقد اكتفيت من النوم.

الفصلُ الثّامن

ليلةٌ مراكشيّة

مالتِ الشّمس المطلّة من نافذة العربة تدريجيًّا باتّجاه مغيبها مع مرور السّاعات المتبقّية للرّحلة حتّى أعلن القطار عن دخوله مراكش بصفارته المدوّية التي نبّهت كلّ الركاب فاستعدّوا للنزول فوْر توقّفه داخل المحطة.

نزلَ *بلاس وروبير* رفقةَ ياسين من العربة، ثمّ تبعَهما إلى الخارج حاملين حقائبهما، حتّى أوصلهما إلى مكان تجمّع الحناطير، ثمّ سألهما عن وجهتهما، فردّ روبير:

- أيّ فندق بقلب المدينة.

فتحدّث ياسين إلى السّائق، ثمّ قال لهما:

- هذه العربة ستوصّلكم إلى فندقٍ اعتدت النزولَ به، إنْ شاء الله سيروق لكم، أمّا أنا فوجهتي إلى مكان آخر، أترككم في حفظ الله ورعايته.

فشكرَه *بلاس وروبير* وودّعاه، ثمّ ركبا الحنطور الذي تحرّك في الحال، وأثناءَ سيره صوبَ مركز المدينة، أحسّ بلاس أنّه في قلب المغرب الحقيقيّ بسماته الإسلامية والأفريقية العميقة، يسود اللون الأحمر الزّهري كلّ بنايات المدينة العتيقة والحديثة متّحدًا مع لون التربة، يشاركُه في هذا

المشهد المتناغم اللّون الأخضر لسعف النّخل والذي طُليتْ به أيضًا بعضُ أسقف البنايات.

عبرَ الفرسُ المغربيّ الذي يجرّ العربة بثقةٍ من دروب ضيقة، فبدأت توضح ملامحُ السّكان التي ترمق الشّابيْن بنظرة دهشةٍ ممزوجة بالتّرحاب، ومع مرور الوقت تلاحظ زيادة كثافة المارّة وارتفاع أصوات الباعة بالأسواق ليزداد المشهدُ حيويّة ونشاطًا، وبعد دقائق من السّير في طرقٍ تنحرف يمينًا ويسارًا وصلت العربة أمام الفندق فاستدار السائق وهو يقول:

- مرحبًا بيكم.. مرحبًا اسيدي على سلامتكم.. مرحبًا بيكم عندنا.

فنزل الرّفيقان، ودخلا الفندق، فوجدا عاملَ الاستقبال يرحّب بهما، ثمّ أرشدهما إلى غرفتهما التي ما إنْ دخلاها حتّى بدّلا ملابسهما واستلقيا على الأسرّة، وسَرعان ما غاصا في نومٍ عميق.

أخذتْ خيوطُ أشعّة الشمس تنسحب تدريجيًّا من نافذة الغرفة ليغطي المكانَ ظلامٌ هادئ معطيًا مجالًا للرّاحة التّامة للشّابيْن بعد يوم سفر طويلٍ ومرهق، وتدفّقت السّاعات حتّى أفاق بلاس من النّوم فوجد روبير واقفًا ينظر من الشّباك، فتعجّب *بلاس* وسأله:

- ماذا بك؟ لماذا تقف هكذا؟

فردّ *روبير*:

- اكتفيتُ من النوم، وأريد أنْ أكتشف مراكش، يقولون إنّ سحر الشّرق يتجسّد في ليلها.

فقال له *بلاس*:

– إذًا، فلننزل لنكتشفَ أجواء ليل هذه المدينة معًا.

وبمنتهى الحماسِ والسّرعة، ارتدى بلاس ملابسه قبلَ *روبير*، وقال له:

– أنا جاهز، *فاموس مي أميجو*، هيّا بنا يا صديقي.

نزلا إلى قاعةِ الاستقبال فوجدا رجلًا آخرَ حلّ محلّ عامل المساء، فرحّب بهما فاستفسرَا منه عن مكان ساحة الفنا الشّهيرة، فأجابهما بأنّها على بُعد خطواتٍ من الفندق، فبمجرّد أن يسلكا هذا الممرّ بين هاتيْن البنايتيْن سيكونان بالسّاحة، وبالفعل كان عبورهما لهذا الممرّ بمثابة انتقالهما لعالمٍ آخر كلّه صخب ومرحٌ وموسيقى وسعادة، فالسّاحة تنضب بالحياةِ والحيوية التي جعلت *بلاس* يشعرُ بأنّه قد بلغ مركز القارة السّمراء، فعلى أطرافها كان ينادي باعةُ الأقمشة والملابس التقليدية المزيّنة بالنقوش المغربية الرّائعة، ثمّ ظهرت المطاعمُ الشّعبية حيث يقف الطّهاة يتغنّون وهم يجهّزون الأطعمة لجذب المارة، فتلقائيًّا جلس الرّفيقان بدافع الجوع على دكّة، أمامها طاولةٌ بسيطة، فجاءهما النادل وسألهما:

– شنو كتبغوا نقدّم لكم أسيادي؟

فأشار *بلاس* على آنيةٍ فخارية موضوعة على كومةٍ من الفحم، فقال النّادل:

– اها، طاجين، لحم واللّا دجاج؟

فردّ *روبير*:

- لحم من فضلك.

فقال النّادل:

- **جوج دقائق ونقدّمهلكم سيدي.**

ومرّتِ الدّقائق وقدّم لهما الطّعام، فتناولاه بنهَم، و*روبير* يترقّب تعليق *بلاس* الذي أثنى على طعمِه الشّهي، وبعد ذلك إستأنفا جولتهما بالمكان فشاهدا في وسط السّاحة الرّفاعية يراقصون الثّعابين على أنغام الربابة المغربية، والنّاس ملتفّة حولهم في مشهدٍ أشعر بلاس أنّ هذا المكان توقّف فيه الزّمنُ عند العصور الوسطى ولم يتحرّك، ثمّ انتقلا إلى تجمع آخرَ يتوسّطه مجموعةٌ من المُطربين يغنّون أغاني تراثيّة جميلة حول شعلةٍ من النار تضيء وجوهَهم الباسمة، ثمّ انتقلا إلى تجمّع آخر يتوسّطه شابّان يتباريان في إلقاء الشّعر العربي الأصيل، وكلّ شاعر يستند إلى ردودِ فعل الجمهور في تأكيد تفوّقه على منافسه، وبلاس مبهورٌ بهذه اللّباقة والمهارة في هذه المبارزة الكلامية بين شاعريْن رغم بساطة هيأتِهما كأنّهما من نُبلاء أوروبا في عصر نهضتها، ثمّ توجّها إلى تجمع آخرَ حول بائع صامت يستعرضُ أضواء مصابيح تشعّ ألوانًا عجيبة على الأرض، وكأنّهً يترك ضوءها يتحدّث نيابة عنه، فتناغمُ ألوان الزجاج مع دقّة النقوش المنحوتة يحوّل ضوءَ الشّموع إلى لوحات من الفنّ الإسلامي الذي يمتّع العين والرّوح معًا، ومن بعيدٍ لاحظ *بلاس* مئذنةً شاهقة لمسجد تاريخيّ

هو مسجد **الكتبية**، والناس يتوافدون إليه ويأتون من جهته، فاقترحَ على *روبير* التوجّه إليه لاستكشافه.

وفي طريقهما وجدَا شابًّا يعتلي منصّةً خشبية كأنّها مسرح صغير، يرتدي زيًّا عربيًّا من العصور الوسطى حتّى بدا وكأنّه أميرٌ عربي هاربٌ من تلك الحقبة، فكان يضع عمامةً سوداء يتوسّطها جوهرة مضيئة، ويعلوها ريشةٌ ضخمة، ويلبس عباءةً سوداء مزيّنة بالنقوش الذهبية، وكانت ملامحه عربيّةً أصيلة يزيّنها لحيةٌ منمّقة، وكان ينادي على المارّة ويقول بصوتٍ جَهْوري جذّاب:

- أيّها الناس هلمّوا إلي، عندي لكم كلامٌ جلل، كلام يفرق بين الجدّ والهزْل، كلام يحدث الآن وكان قد حدث، فإنْ لم نعتبر من دروس الماضي فكيف نعتبر!؟ فملوكُ الطوائف في كلّ عصر وأوان.. وكان أوّل ما فقدنا طليطلة، فلنستمع ونتنبه.

كان *بلاس* يتابعُ باهتمامٍ شديدٍ الأداءَ الاستعراضي لهذا الرّاوي أمام جمهوره الذي بدأ يتزايد حولَ المسرح الصّغير على قارعة الطريق، معتمدًا على أسلوبه الذي يجذبُ انتباهَ المشاهدين، فكان يستغلّ جسده وتعبيراتِ وجهه وتحرّكاته يمينًا ويسارًا بمهارة وحرفيّة، وبعد أن وصل للعددِ المُرضي من المتفرّجين بدأ يروي قصّته، فقال بصوتٍ يدوّي في أرجاء المكان:

- أيّها الناس، اسمعوا وَعُوا، سأحكي لكم قصةً عجيبة، أحداثُها مريبة، فتعلّموا من دروسها المفيدة، فبعد أنْ أفلَ نجمُ الأمويين في أندلسنا

الحبيبة مع سقوط خلافتهم المديدة؛ انفرط عقدُ البلاد فأصبحت حبّاتُه متناثرة وبعيدةً، وتغيّر حال العباد فصار لا يجمعُهم عرقٌ ولا دين ولا وحدة تجمع البلاد، فقامت على أنقاض الدّولة الأندلسية الكبرى ستةٌ وعشرون دولة، فحاكمُ كلّ مدينة استقلّ بها ولقّب نفسه بما لا يستحقّ من الألقاب؛ فمنهم مَن لقّب نفسه ملكًا، ومنهم مَن تسمّى بالأمير، ومنهم مَن أبقى على لقب الوالي أو القاضي، كلٌّ حسب قوّة ونفوذ دويْلته، فحكَمَ بنو جهور موالي الأمويّين قرطبة وما جاورها من مدن، وحكَمَ بنو عباد العربَ اللّخميّين إشبيلية، وبنو ذي النّون ملكوا طليطلة والثّغر الأوسط، وسيطرَ على غرناطة ومالقة بنو حمود الأدارسة، وتملّك بنو هود سرقسطة والثّغر الأعلى، وحكم بنو الأفطس البربر بطليوس، أمّا العامريّون فتحكّموا في بلنسية ومرسية في شرق البلاد، ومنذُ ذلك الحين وعلى مدار ثمانينَ عامًا اندلعتْ سلسلة لا نهايةَ لها من الصّراعات والمنازعات والخصومات والحروب الأهليّة بين الأخوةِ الذين كادَ تنابذهم وتفرّقهم وتنافسهم يقضي على الإسلام في هذا الفردوسِ الأندلسي، فلم تكنْ مرجعيّة هؤلاء الملوكِ هي دينَهم الحنيف؛ بل طمَعُ الدّنيا وشهوة التوسّع في الملك والنّفوذ، فكان القويّ يغتنم الفرصة لينقضّ على الأضعف منه، وكان الضّعيف يجد أيّ حيلة ليفلت من قبضة الأقوى منه، ولو باللّجوء للعدوّ الحقيقي المتمثّل في ملوك نصارى الشمال، فكان شعارُ الجميع «الغايةُ تبرّر الوسيلة»، وبعضهم أضفى على نفسه شرعيّةً مزيّفة بأن أقام لنفسِه خليفةً من بني أمية، فجاء وقت تزامنَ فيه وجودُ أربعة خلفاء، فلم ينالوا احترام الناس ولا تقديرهم، فكانوا مجرّد

واجهة لحاكم مستبدّ، وبالطبع يأتي دور البطولة لفقهاء وعلماء السّلطان الذين ساندوا هؤلاء الملوك في ظلمِهم وجوْرهم بالفتاوى والتّبريرات والحجج، أمّا رجال الدين المخلصون والعلماء الربانيّون فاعتزلوا هذه المهزلة، ومنهم مَن نالَ غضبَ وعقاب هؤلاء الحكّام الظلمة، والذين كان عمادُ جندهم من المرتزقة، بغضّ النّظر عن أصلهم ودينهم، حتّى امتلأت جيوشُهم بنصارى الشّمال، فلم تكن معاركهم جهادًا في سبيل الله؛ بل في سبيل أطماع الدّنيا الزائفة.

ورغمَ كلّ ذلك، كان لهذه الحقبة بعضُ سماتِ التميّز، أتعلمون يا سادة يا كرام أنّ بقرطبة- وقبل العالم أجمع بمئات السنين- تمّ العمل بأوّل نظام جمهوري ابتكرَه الوزير أبو الحزم بن محمد بن جهور؛ لكي لا ينفرد بالحُكمِ وحدَه مشكّلًا مجلسًا من الوزراء والحُكماء وأهل الرّأي والمشورة، فتسمّى بأمين الجماعة، وعمل على إصلاح أحوال مدينته وعلوّ شأنها لتستعيد مجدها البائد، وبحكمته وحُسن إدارته جعلَ من قرطبة واحةً للسّلام بين الممالك الأخرى المتطاحنة فيما بينها، بل كان يبذل الجهدَ للإصلاح بينهم، ومع ذلك لم تنجُ دولتُه من مطامع الطّوائف الأخرى، فعندما أنكر ادّعاء محمد بن عباد حاكم إشبيلية ظهور الخليفة هشام المؤيد بدولته انتفضَ سكّان قرطبة ضدّه، وأرغموه على هذه البيعة، والتي كشفت بعد ذلك مطامعَ العباديّين في ضمّ قرطبة لدولتهم، فبعد أن توسّع محمد بن عباد غربًا وانتصر على بني الأفطس حكّام بطليوس، وضمّ مدينة باجة لملكه، ثمّ انتزع قرمونة من حليفة محمد البرزالي، وبعد رحيل مؤسّس مملكة إشبيلية الأوّل أبو القاسم إسماعيل بن عباد؛ خلفه ابنُه أبو عمرو المعتضد

بن عباد، والذي جمع خصالَ الذّكاء والفروسية فتوجّه بأطماعه التوسّعية ليمتدّ إلى جنوب وغرب الأندلس، وضمّ مدنًا عدّة مثل وولبة ولبلة وشلطيش والجزيرة الخضراء الذي انتزعها من الحموديّين وشنتمرية الغرب المطلّة على المحيط الأطلسي، ثمّ ضمّ أكشونبة وإمارة شلب، ثمّ اتّجه جنوبًا، وضمّ رنده ومورور وشذونة وأركش وقرمونة التي كان يحكمها أمراء برابرة، وبهذه التوسّعات أضحتْ مملكة إشبيلية أكبرَ وأعظمَ ممالك الطوائف التي ورثَها بعد وفاة المعتضد بالله ابنه محمد، المتلقّب بالمعتمد، والذي لم يجدْ من ملوك الطّوائف مَن يُضاهيه في القوّة بعد أن تحطّمت معظمُها بسبب الحروب فيما بينها من جهة، وهجمات نصارى الشّمال من جهة أخرى، غير دولة بني ذي النون في طليطلة، والذي يعود أصلُ حكّامها إلى قبائل هوارة البربرية، وهنا استغلّ المعتمد بن عباد استغاثة حاكم قرطبة عبد الملك حفيد أبي الحزم جهور عندما حاصر مدينته المأمون يحيى بن ذو النون فأرسل جيشًا أجبر الأخيرَ على فكّ الحصار، ثمّ اقتحم هذا الجيش المدينة، وضمّها لمملكة إشبيلية مُعلنًا نهاية دولة بني جهور، وكان ردّ فعْل المأمون أنْ ضمّ لمملكته مرسية وأريولة وعدّةَ مدن في وسطِ الأندلس، كما تحالف مع *ألفونسو* السّادس ملك قشتالة ضدّ المعتمد، ثمّ انتزع قرطبة، وهاجم إشبيلية مستغلًّا خروج المعتمد بمعظم قوّاته لغزو مالقة، والذي عندما رجع استعادَ قرطبة بعد وفاةِ المأمون، ثمّ ضمّ معظم أراضي مملكة ذي النّون الجنوبية الشّرقية ومرسية وبلنسية بعد أنِ انتصر على يحيى القادر بالله حفيدِ المأمون وخليفتِه، ثمّ عقد تحالفًا مع *ألفونسو* السادس ضدّ مملكة طليطلة متعهّدًا بأنْ يدفع له جزيةً سنوية كبيرة مقابل

أن يساعدَه في حروبه ضدّ أعدائه من الأمراء المسلمين، وفي المقابل لا يعارض طموحَ قشتالة في غزو طليطلة، والتي كان حاكمها يحيى القادر يعاني من صراعاتِه مع ملوك الطوائف الأخرى وقيام ثورةٍ على حكمه في بلنسية أفضتْ بخلع طاعته والاستقلال عن ممْلكته، كما تعرّضت قونقة التّابعة لدولته لهجوم *راميرو* ملك أراغون، وكادت تسقطُ في يديه لوْلا أنِ افتداها سكانها بالكثير من المال، فكلّ هذه الظّروف أجبرت يحيى القادر على الخضوع *لألفونسو* السّادس، ودفع الجزية له، والتّنازل عن بعض الحصون الفاصلة بين دولتيهما مقابلَ حمايته له من خصومة، ومع اندلاع ثورةٍ عارمة ضدّ حكمه فرّ من طليطلة فدخلها عمر المتوكّل حاكم ممْلكة بطليوس المنتمِي لأسرة بني الأفطس المنحدر أصلها إلى إحدى قبائل مكناسة المغربية، وكانت مملكته تقع في شمال إشبيلية وغرب طليطلة حتّى ساحل المحيط الأطلسي، أي على مساحة جميع أراضي البرتغال الحالية، فقادَ *ألفونسو* بنفسه قواته العسكرية التي أعَادت يحيى القادر لعرش بلاده مرّة أخرى تمهيدًا لانتزاعها منه لاحقًا، وفي الجنوب كان يحكم دولة بني زيري بغرناطة ومالقة عبدُ الله بن بلكين، والذي ورث ملك جدّه باديس، ونازعه أخوه تميم على الملك، واستقلّ بمالقة عنه، ودخلت دولته في صراع طاحن مع ممْلكة إشبيلية التي كان يطمع ملكُها المعتمد بن عباد في ضمّ كلّ ممالك الطّوائف إلى ملكِه، فطلب كلّ منهما الدّعمَ من *ألفونسو* السّادس، والذي كان قد تزوّج من الأميرة الفرنسية *كونستاس* فاتحًا الباب لتدفّق الرّهبان التابعين للبابوية روما، وقدوم المقاتلين الفرنسيّين ممّا أعطى لأطماع ممالك الشّمال في أراضي المسلمين بُعدًا صليبيًّا حماسيًّا،

فأسّست الكنيسة الإسبانية فرقًا تابعة لها مثل فرسان شنت ياقب، والتي انخرطت في محاربة المسلمين، وتطوّر أسلوب صراع ممالك الشمال مع الأندلسيّين من حروب الميادين المفتوحة إلى حروب القلاع والحصون طويلة المدى، فعملوا على تهجير المسلمين من أراضيهم، ثمّ يدخلونها ويستعمرونها تحتَ مسمّى حرب الاسترداد المقدّسة مستغلّين التّطاحن الدّاخلي بين ممالك الطوائف، أمّا في الثّغر الأعلى فقد تمكّن من الانفراد بحُكم دولة سرقسطة، أحمد المقتدر بن سليمان المستعين المنتمي لأسرةِ بني هود، والذي تميز بمهاراته السّياسية والعسكرية، وكان شغوفًا لطلب العلم فضمّ لبلاطه أهمّ عُلماء عصره، كما اشتهر بفخامة وإبداع قصره المعروف بالجعفرية، وبخاصّة بهوه الذهبي المعروف بمجلس الذّهب، وعند وفاته وزّع ملكه على ابنيه اللّذيْن تحاربا عندما طمعَ كلّ منهما في أملاك الآخر، فاستعان أحدهما- وهو يوسف المؤتمن، الذي كانت له إنجازات علمية مشهورة- بالقشتاليّين، والآخر- وهو المنذرُ- الذي إستعان بمملكة أراغون، وخلف يوسف المؤتمن ابنه أحمد المستعين، والذي تطلّع إلى ضمّ بلنسية لملكه، ولكنْ سبقه إليها يحيى القادر بن ذي النون الذي غزاها مدعومًا بفرقة من الجنود القشتاليّين فأصبح حاكمها، ولكن تحت رعاية ملك قشتالة الذي أخذ يطالبه بأموالٍ كثيرة أرهق جمعُها أهلَ المدينة حتّى غادرها الكثيرُ من أعيانها، وكان ذلك بعد المصيبة الأكبر التي أصابت البلاد والعباد، والتي اهتزّ لها العالم الإسلاميّ أجمع، وهي ضياع طليطلة من المسلمين، فبعد حصار القشتاليّين لها من جهة، وهجمات ابن عباد من الغرب وابن هود من الشّرق، أنهكت المدينة ويأس

يحيى القادر حاكمُها من الدفاع عنها؛ فسلّمها لألفونسو الذي دخلها في محرم لعام 478 للهجرة والموافق للعام 1085 من الميلاد مقابلَ أن يمكّنه من حُكم بلنسية.

وهنا، وقف الرّاوي يندب هذه الفاجعة ملقيًا أبياتًا للشّاعر ابن العسال يرثي فيها سقوطَ طليطلة قائلًا:

يا أهلَ أندلس حثّوا مطيّكم فما المقام بها إلّا من الغلط

الثّوب ينسلّ من أطرافه وأرى ثوبَ الجزيرة منسولًا من الوسط

مَن جاور الشرّ لا يأمَن بوائقَه كيف الحياة مع الحيّات في سفط

بعدَ أن أنهى الرّاوي سردَ حكايته التاريخية، بدأ النّاس بالانصراف بعد أنْ وضع كلّ منهم بعضَ النّقود في صندوقٍ كان موضوعًا أمام المسرح، وبقي *بلاس* متأمّلًا هذا المشهد، وكأنّه ينتظر أن تتبخّر صورة الأحداث التي جسّدها له خياله أثناءَ استماعِه لها، ولم يتحرّك إلّا عندما وجد *روبير* هو الآخر يضعُ النّقود، ويقول له:

- هيّا بنا دون *بلاس*، *فاموس*، فمازلنا لم نتفقّد كلّ أرجاء هذا المكان المدهش.

ثمّ أكمل الرّفيقان طريقهما صوبَ المسجد، فوجدا شيخًا طاعنًا في السنّ، ذا عمامة بيضاء كبيرة، ولحية رمادية اللون متوسّطة الطول؛ يجلس محاطًا بمجموعةٍ من الناس، وأمامه كتابٌ ضخم يقرأ منه،

والكلّ يستمع إليه باهتمام وخشوع، ممّا دفع فضول *بلاس* مصحوبًا *بروبير* إلى الاقتراب ومحاولة الاستماع لما يقرأه هذا الشيخ، فكان يقول:

– عنْ قيس بن كثيرٍ، قال: قدمَ رجلٌ مِن المدينة على أبي الدّرداء رضي الله عنه، وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك يا أخي؟ فقال: حديثٌ بلغني أنّك تحدِّثه عن رسول الله ﷺ، قال: أمَا جئتَ لحاجةٍ؟ قال: لا، قال: أمَا قدِمتَ لتجارةٍ؟ قال: لا، قال: ما جئتَ إلّا في طلب هذا الحديث؟ قال: فإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَن سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها رضاءً لطالب العلم، وإنّ العالِمَ ليستغفرُ له مَن في السموات ومن في الأرض، حتّى الحيتان في الماء، وفضلُ العالم على العابد كفضلِ القمر على سائر الكواكب، إنّ العلماء ورثة الأنبياء، إنّ الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا؛ إنّما ورّثوا العلم، فمَن أخذَ به أخذَ بحظّ وافرٍ».

ثمّ أتبع الشيخُ كلامه قائلًا:

– صلّوا على حبيبكم وشفيعكم.

فرَدّ كلّ المستمعين في آنٍ واحد:

– عليه الصّلاة والسّلام.

وهنا اندهش *بلاس* من روعةِ وإتقان كلماتِ الحديث المُنتقاة، ومن إجلال المسْتمعين وعرفانِهم لنبيّهم ومعلّمهم الأوّل.

ثمّ استأنف السيرَ رفقة *روبير* وهو يردّد في نفسه بعض كلمات هذا الحديثِ محاولًا أنْ يثبّته في ذاكرته، حتّى اقتربا من ساحة مسجد الكتبية، فتوقّف الرّفيقان ليتفحّصَا مئذنة المسجد شاهقةَ الارتفاع، فقال *روبير*:

– ما هذا البناءُ الرائع؟ ما هذه العظمة الهندسية العريقة؟

فردّ *بلاس* قائلًا، وعيناه معلّقتان بقمّة المئذنة:

– يا صديقي، إنّها شقيقة الخيرالدا الموجودة بإشبيلية، اليد المبدعة التي شيّدت هذا الصّرح هي نفسها التي بنَتْ مثيلَه هناك قبل أن ينكرَه القشتاليّون ويطمسوا هويته الحقيقية.

ثمّ استأنفَا السّيرَ، وعلى بعد عدّة أمتار من المسجد وجدَا جماعة من النّاس يعرضون مجموعةً من الكتب للمارّة، ثمّ لاحظا اثنيْن ممسكيْن بكتابٍ يقلّبان صفحاته وكأنّهما يتجادلان في موضوعه أو يبحثان عن فقرةٍ معينةٍ بداخله، كما شاهدا أحدَ الأشخاص يسترجع كتابًا للبائع ويأخذ آخرَ مكانه وكأنّها مكتبة كبيرة مفتوحة للجميع، فعلّق *روبير* قائلًا:

– ما هذا الحراكُ الأدبيّ واسعُ النّطاق الذي نشاهده؟

فعقّب *بلاس* قائلًا:

– *سي دون روبير*، نعم أنا مُنبهرٌ ممّا أشاهده.

وبعدَ إتمام جولتهما التفقّدية قرّرَا العودة للفندق، ولكن قبل وصولهما اقترحَ *روبير* وجوبَ شراء بعض الملابس التّقليدية، فربّما سيحتاجانها أثناءَ تواجدهما في أغمات، فوافقه بلاس فتوجّهَا مباشرة صوبَ أميز محلّ

لاحظاه عند دخولهما لساحة الفنا، وابتاعَا بعض الجلابيب المغربية، ولم ينسَ بلاس أن يشتري لزوجته قفطانًا مغربيًّا أعجبه تصميمه وألوانه الرّقيقة، ثمّ توجّهَا للفندق للنّوم والاستعداد لمغامرة الذّهاب إلى المثوى الأخير للمعتمد بن عباد.

وفي غرفة الفندق، استلقى *بلاس* على سريره متعَبًا، وبدأ يسترجع أحداث هذه الجولة اللّيلية الممتعة، ثمّ أخذ يتذكّر كلمات الشّيخ المسنّ وهو محدقٌّ بالقمر الذي كان نوره يداعبُ وجهَه عبْر نافذة الغرفة، بل هي أنوار الهداية التي بدأت تتسلّل إلى قلبِه منبعثة من عند الرحمن من فوق سبع سماوات، فقال في نفسه:

– فضلُ العالم على العابد كفضلِ القمر على سائر الكواكب، ما أروعَ هذه الكلمات العربيّة البليغة، لك منِّي السّلام أيّها النبي الكريم.

الفصلُ التّاسع

طريقٌ اللّه

أخلدَ *بلاس* إلى نوم عميق، ومرّ ما تبقّى من ساعات اللّيل الهادئ.. ليل مراكش كان طويلًا.. وفي منامه سمعَ هاتفًا من بعيد ينادي ذاكرًا هذه الكلمات مع صوتٍ شجيّ، **الله أكبر الله أكبر. . أشهد أنْ لا إله إلّا الله. . أشهدُ أنّ محمّدًا رسول الله.**

انتابه ذهولٌ ورعشة غريبة، وأخذ يتصبّب عرقًا.. وقام من نومه فَزِعًا على نفس الصّوت المنادي...

يهتفُ من بعيد: "**حيّ على الصّلاة. . حيّ على الفلاح. . .**»، فتوجّه صوب النّافذة ليدقّق السمع، ثمّ أخذ يتمتم محدّثًا نفسه:

- هذا أذانُ المسلمين الذي سمعتُ عنه، بالتأكيد هو، *أوه ديوس،* يا الله.. ما أعذبَ هذا الصوت! ما أروعَ كلماته التي رغم بساطتها تحفّز المستمع للإقدام على تلبية النّداء الرّباني للعبادة، ما هذه العقيدة التي تحثّ معتنقَها على بداية يومه في هذا الوقت المبكر من الصّباح، إنّ هذا الدّين يدرك قيمة الوقت، إنّه شيء يدعو إلى الاهتمام والتدبّر.

ثمّ توجّه *بلاس* إلى حقيبته، وأخرج مفكّرته، وجلس على الأريكة المواجهة للنّافذة مستغلًّا الضوءَ الخافت الذي بدأ يتسلّل منها، فوجد نفسه يكتب:

– مراكش هي مَحَجّي، هي الحدّ الأقصى للأرض المُقدسة والمَعْبد. الآن فقط، انبعثَتْ كلّ الطّقوس في خلجات الرّوح. الآن فقط، أصبح للرّوح صلاةٌ خاصّة بها، واشتعلت الحماسةُ الدينية. . الآن فقط، أستطيعُ أنْ أتوضّأ بقيم مثمرةٍ من نافورة التّاريخ، قِيَم وليدة ثقافة ادّعت أنّها عمياء، ثقافة اتّخذت باطن الأرض مَسكنًا، وتحدّثَت بخطاب مُبْهم.

وبعد أن أتمّ كتابة هذه الجُمل التي جالتْ بفكره عاد إلى فراشه ليكمل نومَه، ومرّ الوقت، وتخلّلت أشعة الشمس جنباتِ الغرفة، واحتلّت أركانها لتوقظَ الرّفيقيْن النّائميْن ليستعدّا لإتمام آخر مراحل رحلتهم.

طرقَ الباب عاملُ الفندق مُقترحًا تقديمَ وجبة الإفطار المحليّة للنّزيليْن في غرفتهما، فوافقا على الفور، وبعد أنْ تناولاها ارتديا ملابسهما الغربية، ونزلا إلى عامل الاستقبال، واستفسرا منه عن كيفيّة اقتناء وسيلة نقل تقلّهما إلى أغمات، فأخبرهما أنّ الوسيلة المتاحة هي عربة الكوتشي ووضّح لهم أنّه الحنطور بالدّراجة المراكشية، وأنّه سيتدبّر هذا الأمر، وما عليهما إلّا الانتظار لفترةٍ وجيزة بقاعة الاستقبال، ثمّ خرج من باب الفندق وغاب لعدّة دقائق، وبعدها عاد مطمْئنًا إيّاهما أنّ العربة ستصل

خلال نصف ساعة، وأنّه أرسل لطلب سائق من أغمات لتسهيل وصولهم إلى مقصدهم بها.

مرّ الوقت سريعًا، ووصلت العربةُ فوضع بها عامل الفندق حقائبَ *بلاس وروبير* اللّذيْن ركباها على الفور، ثمّ تحرّكت لتبدأ مغامرة الذهاب لمثوى الملك الشاعر.

كان السّائق رجلًا مسنًّا يرتدي عمامةً زرقاء وجلبابًا مغربيًّا بنفس اللون، يظهر على ملابسه علاماتُ القدم، ولكنّها رغم ذلك في قمّة نظافتها، استدارَ للرّاكبيْن وابتسم لهما، فظهرت أسنانُه ناصعةَ البياض التي لا تتفق مع كبرِ سنّه، ثمّ قال:

- صباحكم مبروك أسيادي.

أجاب *بلاس*:

- عمتَ صباحًا، ما اسمُك؟

فردّ السائق:

- أنا طريق الله بورفيق الأغماتي، سعيد الكيخدم بالفندق خبّرني أنّكم إسبان.

فعقّب *بلاس*:

- لسْنا إسبان، أنا أندلسيّ وصديقي كاتالوني.

فقال طريق الله:

- منك متشرفين أسيادي، ولكن اسمحلي هدي المرّة لولا إلى يجي معايا أجانب لاغمات، علاش تعديلها يك لباس؟

ردّ *بلاس*:

– أسعى إلى زيارة ضريحِ المعتمد بن عباد، والتعرّف على أحفاده، علمتُ أنّهم موجودون هناكَ.

فقال طريق الله وهو يهزّ رأسه للأمام:

– اه... باغي نوصلّك للعائلة ديال الدكالي، مترفد هم راني ندوزك لعندهم إنْ شاء الله.

هنا، شعر *بلاس* بشيء من الاطمئنان، وأنّه الآن ليس بذاهب إلى المجهول، فيدُ الله تمتدّ لمعاونته حتّى يصل لمبتغاه.

بدأتِ العربة تتخلّص رويدًا رويدًا من زحام المدينة لتأخذ طريقها في وادٍ فسيح يحدّه عند الأفق جبالٌ شاهقةُ الارتفاع يكسوها قممٌ جليدية تتحدّى حرّ وجفاف أجواءِ المنطقة، كما تظهر كلّ فترةٍ تجمّعات للنخيل المحاطة بالحشائش الخضراء، ولم يكنِ الطّريق مرصوفًا، بل كان من الرّمال الحمراء التي تسودُ كلّ نواحي مراكش.

مرّ الوقت، وبلاس يدوّن بعضَ الأفكار والملاحظات في مفكّرته، *وروبير* يمتّع نظره بمشاهدةِ المناظر الطّبيعية الخلّابة التي تعبر من جانبه، وفجأة توقّف طريق الله عن السّير، ونزل مِن على العربة، وقال *لبلاس*:

– اسمح لي خمس دقائق ونعاود السير.

فتعجّب *بلاس*، وأخذ يتابعه حيث ذهبَ لمؤخّرة العربة وأخرج قارورة من المياه وأخذ يغسلُ بها يديه، ثمّ مضمض فمَه ونظّف أنفه

ووجهه فمرفقيه، ثمّ مسح بيديه على شعره فأذنيه، ثمّ غسل قدميه بالماء، ثمّ أخرجَ سجّادةً صغيرة كانت مطويّة، وفرَدَها على الأرض، وضبط اتّجاهها، ثمّ قال بصوت أجشّ:

–الله أكبر.

وبدأ يصلّي، وبلاس يتابعه باهتمام شديد، فهي المرّة الأولى التي يشاهد فيها هذه الطّقوس التي تدارسَها سابقًا، فكان يتوق لرؤية هذا المشهد.

وبعد أن ختمَ طريقُ الله صلاتَه، أعاد طيّ سجّادته، وبسرعة عاد لقيادة العربة، وهنا سأله *بلاس*:

– يا طريقَ الله، كيف حدّدت اتّجاه قبلة الصلاة؟

ردّ طريق الله:

– الأمرُ ساهل، القبلة كتنوجد فالشّرق من البلاد ديالنا نيشان، فمجرّد مكنراقب اتّجاه شروق أو غروب الشمس كنعرف اتّجاه مكّة المكرمة.

فعاودَ *بلاس* السّؤال قائلًا:

– ولماذا لم تنتظر حتّى نصل وتصلّي بأريحيّة أكثرَ في منزلك؟

استدار طريقُ الله برأسه ليجعل *بلاس* يشاهد ابتسامته المسنّة، ثمّ قال:

– يقول الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ **بحيث مينفعش تتوخّر الصّلاة عن وقتها.**

فنظرَ *بلاس* لروبير الذي قال له:

– أعرفُ ما يدور بعقلك الآن، بالتأكيد تتذكّر كيف كانوا يرسمون لكَ في إسبانيا صورةً قاتمة للعرب والمسلمين.

ابتسمَ *بلاس*، ثمّ قال *لروبير*:

– لطالما أعجبني ذكاءك أيّها الرّفيق الكاتالوني اللّماح.

فعادَ *بلاس* ليسأل طريق الله:

– أهي جميلة أغمات؟

تمهّلَ طريقُ الله في الردّ للحظات، ثمّ تنهّد وقال:

– كلّ شيء كيتوقف على مفهوم الجَمال عندك، أمّا أنا فكنشوفها جميلة بززاف طالما كنلقى فيها كلّ ما نحبو ونرتبط به.

استحسنَ *بلاس* ردَّه الحكيم، فسأله:

– أتعرف تاريخَ هذه المدينة؟

أجاب طريقُ الله قائلًا:

– إيوا يا سيدي، أغمات راها كانت قاعدة هامّة لأجدادنا الأدارسة الأشراف، وكان كيدوز عليها كلّ التجار والرحالة من كلّ بلاصا ومن بعد وفالوقت ديال زحف المرابطين للشمال عجبهم الموقع ديالها بزاف فسكنوها ومتركوهاش غير لمّا قرّروا يبنوا مدينة مراكش بش تكون العاصمة ديال دولتهم، وحيت جا سيدي يوسف بن تاشفين ليقود

المرابطين قرّر توحيد البلاد ديالك الأندلس تحت حكمه المرابطي، وخلى من أغمات منفى لملوك الطّوائف وبالأخصّ المعتمد بن عباد ملك إشبيلية وعبد الله بن زيري ملك غرناطة وتما استقرّ أحفاد المعتمد والان غادي نوصلكم إليهم.

مرّتِ السّاعات، ثمّ انحرف الفرسُ الذي يجرّ العربة يسارًا ليتّخذ مسارًا فرعيًّا، وكأنّه يعرف طريقه وحده، أو ربما نبّهه طريق الله، ثمّ بدأت تظهرُ جداول مائيّة صغيرة محاطة بأشجار كثيفة مزيّنة بثمار حبّات الملوك الحمراء ونخلِ مثْمر، فتغيّر شكل الطّريق ليتحوّل إلى واحة مليئة بالزّراعات، وكلّما توغّلت العربة في الطّريق الذي يخترق هذه الواحة يزدادُ صوتُ خرير الماء مع تحوّل الجداول المائية إلى أنهار صغيرة موفورةِ المياه، شديدةِ النّقاء، التي تلمع تحت أشعّة الشمس الصيفية لتزيد هذا المشهدَ الرائع بهاءً وجَمالًا.

ومع اقترابِهم من سفح جبل أوكايمدن بمنطقة أوريكا بدأ يظهر بعض المارّة من المزارعين وبعضُ البنايات الطّينية القديمة، وهنا استدار طريقُ الله لركّاب عربته، قائلًا لهم:

- على سلامتكم، وصلنا دبا على مشارف أغمات.

مرّتِ الدّقائق المتبقّية على نهاية الرّحلة مصحوبةً بأنغام منبعثة من اندفاع المياه بالجداول المنتشرة وتغريد الطّيور من فوق الأغصان التي تظلّل جنباتِ الطّريق، على إيقاع خطواتِ الحصان الثّابتة، حتّى بدأت تظهر تجمّعات لبيوت طينيّة شديدة البساطة والبدائية، وبلاس يحدّث نفسه قائلًا:

– ها أنا هنا أخيرًا، *جراسياس ديوس*.

وفي نفس اللّحظة، كان طريقُ الله يتنهّد قائلًا نفسَ الجُملة ولكن بلغة القرآن:

– الحمدُ لله، ها قدْ وصلنا.

بدأتِ العربة تعبُر بين المساكن التي بدا الأطفالُ من أمامها يفحصون الغريبيْن بنظراتٍ فضولية، وكانوا يرتدون ثيابًا غايةً في البساطة، *وبلاس* يبادلهم النّظرات، ولكن مع ابتسامته المعهودة.

ثمّ توقّف طريقُ الله أمام أحدِ المنازل، وقفز من عربته بخفّة شابّ صغير، ثمّ ذهب وطرقَ الباب ففتح رجلٌ طويل ضخمُ البنيان قمحيُّ اللون ذو عينيْن عسليتيْن ولحية صغيرة بيضاء يرتدي جلبابًا بسيطًا، ولكنّه ناصع البياض، فأخذ طريقُ الله يحدّثه بصوت خافت لم يصلْ بيانه *لبلاس وروبير* اللذيْن بقيَا يتابعان المشهدَ من العربة حتّى دعاهما طريقُ الله للنّزول، فنزلا وتوجّهَا صوبه، فقال لهما:

– **كنعرفكم بسي عمر الدكالي حفيد سيدي المعتمد بن عباد.**

ثمّ استدار إلى صاحب المنزل، وقال:

– **وكنقدملك السّيدان المحترمان، ضيوفنا من بلاد الأندلس وكاتالونيا، جايّين هاد الطّريق كاملة باش يتعارفوا عليك ويزورا القبر ديال سيدي المعتمد.**

وما أنِ انتهى طريقُ الله من حديثه حتّى خيّم الصمتُ على المكان، وكأنّ سهمَ الدّهشة أصاب الجميع برميةٍ واحدة، *وبلاس* يبادل عمر

الدكالي نظرةً ثابتة وعميقة، نظرةُ الأقارب الذين لم يجمعْهم أيّ لقاءٍ عائلي من قبْل، أو التي فرّقتهم الظّروف ثمّ غيّر الزمن ملامحَهم وهيأتهم.

لم يقطعْ هذا الصّمت الطويل إلّا عمر الدكالي عندما مدّ يديه مصافحًا *بلاس*، وهو يطالعه بنظرةٍ تنمّ عن فراسةٍ امتاز بها بنو العباد الأجداد، ثمّ سلّم على *روبير*، ودعاهما للدّخول إلى داره، ولم ينسَ أنْ يدعو طريقَ الله معهم، فدخل الجميع ثمّ أغلق الباب.

كان المنزلُ من الداخل غايةً في التّواضع؛ بل أقلّ من ذلك بكثير، حوائط طينيّة متردية، وأثاثٌ متهالك، وكان يضيء أركانَ الغرفة التي دعاهم عمرُ للجلوس بها قنديلٌ شديدُ القدم، موضوعٌ على حامل نحاسيّ يخبئ الصّدأ زخارفَه القديمة، ضوءه الباهتُ وهيأتُه المتزامنة مع بدء انصراف الشّمس إلى موضع غروبها يعطي بُعدًا أسطوريًّا للمكان.

جلسَ الجميعُ على مخادعَ موضوعةٍ على الأرض، مكسيّة بأقمشة قديمة، مسحَ الزّمن النقوشَ التي كانت تزيّنها، ويتوسّط المجلس حصيرة يعلوها طاولةٌ خشبُها عتيق.

وقبل أنْ يسود الصّمتُ مرّة أخرى، بادر طريقُ الله بسؤال *بلاس* قائلًا:

– خبّرني اسيدي واش خبرت سيدي عمر على سباب زيارتك والأهداف ديالها؟ بحيث راه كبير أحفاد سيدي المعتمد، رحمة الله عليه.

فقاطعَه عمر قبل أنْ يجيب *بلاس* قائلًا:

– يا طريقَ الله، دبا تشربوا شي حوائج بحيث لازم كنديرو معاكم واجب الضّيافة، خلّيهم يرتاحوا دبا بحيث انو الطريق كان بعيد وشاقّ

عليكم اسيدي حتّى مدخل وقت صلاة المغرب من بعد ما كنتعشاو جْمِيعْ ونتحدّثو حتّى صلاة العشاء بإذن الله تعالى.

استحسنَ *بلاس* كلام عمر، واستشعر منه قوّة شخصيّته وحُسنَ ضيافته رغمَ قلّة حيلته الواضحة، كما أعجبه تخطيطُه للوقت طبقًا لمواقيت الصّلاة، فقال:

- إذًا سيّد عمر، لا مانع من القليل من الشّاي المغربي.

ابتسمَ عمر عندما سمع *بلاس* يتحدّث العربية بلكنةٍ غربية، كما أعجبه تلقائيّته حين طلب الشّاي بلا خجل، فبدأ يألفه وبدأتْ تتبخّر الرّيبة تجاهه، ثمّ نادى وقال:

- **يا هنية، آجي بنتي آجي.**

جاءت فتاةٌ صغيرة، شعرُها بني مجدول في ظفيرة، عيناها كستنائيّتان وملامحُها سمراء عربية، فقالت:

- **ايوا عمّي؟**

فقال لها عمر:

- **واخا بنتي خبّريهم احضروا لينا اتاي زوين ويجهزوا لينا العشاء ويحضروا الغرفة البحرية لإقامة الضيوف.**

فردّت هنية:

- **واخا، ولكين الغرفة...**

فقاطعَها قائلًا:

- **يخلّوها دبا آبنتي.**

فقالت:

- **واخا.**

ثمّ ألقت ابتسامةً تشعّ جَمالًا على الضّيوف، وانصرفت.

فنظرَ عمر لضيوفه وقال:

- **مرحبا اسيدي مرحبا وازارنا النّبِي، متشرّفين بيكم اسيادي.**

وبعدَ دقائق عادت هنية بصينيّة الشّاي التي يتوسطها إبريق عتيق وأكوابٌ زجاجية متنوّعة الألوان، فشرب الجميع، وكان *بلاس* مستمتعًا بمذاقِه الذي يختلف عن سابقيه؛ حيث تمّ تحضيره على نار الحطب والفحم الهادئة، مُكسبةً إيّاه نكهة مميزة.

ثمّ سمع الأذانَ من بعيد، وبعد أن ردّد عمر وطريقُ الله كلماته استأذن الأخير للانصراف ليستعدّ للصّلاة بالمسجد، ثمّ يعود إلى داره.

أمّا عمر فقام ليتوضّأ ويصلّي في الغرفة المجاورة، وما أنْ قال الله أكبر حتّى رنّ بجنبات المنزل صوتُه الممزوج بخليطٍ من الشّجن والعزة وهو يقرأ الفاتحة ثمّ أتبعها بسورة الضّحى، فهام *بلاس* مع آياتها فتفاجأ بدمعة تهربُ من عينه لتجري على خدّه، فأسرع بمسحها قبل أن يلاحظه *روبير*، ثمّ قرأ عمر في الرّكعة الثّانية سورةَ الشرح، فهنا انتاب جسدَ *بلاس* قشعريرةٌ عندما شعرَ بتسلّل معاني تلك الآيات إلى قلبه.

عادَ عمر لضيوفه، ودار حديثٌ شيّق بينه وبين *بلاس*، الذي أخبره عن دوافع زيارته وأهدافها، والتي لاقت ترحابًا من عمر، ولكنّ المفاجأة كانت عندما اطّلع بلاس على أنّ قبر المعتمد ليس محدّدَ المكان، فعاملُ الزّمن وتردّي أحوالِ سكّان البلدة أدّى إلى ضياع المعالم المميّزة لمنطقة القبور القديمة، وهنا عقّب *بلاس* قائلًا:

– إذًا، من الواجب علينا البحثُ بجديّة عن موقع مدفن المعتمد وعمل ما يجبُ علينا فعله لإعطائه ما يستحقّ من تكريم، فلا يمكن لملك إشبيلية وقرطبة ومعظم بلاد الأندلسي أنْ ينتهي به الحال إلى العدم، فيكفيه ما ناله من قسوةِ الأيام وتقلّب الأحوال.

فتأثّر عمر بحديثِ *بلاس* عن جدّه الأكبر، فاستفسر قائلًا:

– واش كتقترح علينا نديرو دبا؟

بحماسٍ أجاب *بلاس*:

– مِن الغد نشرعُ في البحث والتّنقيب عن قبر جدّك، وإنْ حالفنا الحظّ ووجدناه نقوم بإنشاءِ ضريحٍ له يليق بمنزلته الملوكية، وأنا متحمّل كافّة التكاليف اللازمة.

ظهرَ مردودُ كلام بلاس على وجْه عمر، الذي دبّت في ملامحه مشاعرُ الفخر والاعتزاز، فهي المرّة الأولى التي يتمّ تقدير هذه العائلة منذ نفيها من قصورها في إشبيلية إلى هذه البلدة المنسيّة عبر الزمان، ثمّ قال:

– غادي نمشي نصلّي العشاء باش نتلاقى صحابي وعائلتي، خاصني نتكلّم معاهم كيفاش غادي نبدو نقلبو.

فقال *بلاس*:

- إذًا، سنكون في رفقتك سيد عمر.

ومع سماع الأذان اتّجه الثلاثةُ إلى مسجد البلدة، ودخل عمر ليصلّي، وانتظره *بلاس وروبير* بالخارج، ومع بدْء الصّلاة شعر بلاس برغبة دفينةٍ في اقتحام هذا المصلّى المتواضع ومعايشة مشاعر الصّلاة من داخله، حتّى أنّه وجد نفسَه يردّد بعفويّة كلمة «آمين» مع المصلّين، فهي الكلمةُ التي اعتاد نطقَها منذ صغره وهو رفقة جدّه في صلاتهم بكنيسة التجسّد بمالقة، ولكن هذه المرّة شعرَ أكثَرَ بعمق معناها....

بعدَ الصّلاة، أطلّ *بلاس* بنظرةٍ داخل المسجد، فوجد «عمر» محاطًا بمعظم المصلّين الذين يستمعون إليه ويناقشونه، ثمّ خرج الجميع وألقوا التّحية على *بلاس وروبير*، وبعدها انصرفوا إلى منازلهم، وعاد عمر رفقةَ ضيفيْه إلى بيته الذي كان ينبعثُ منه رائحة أكَلاتٍ شهية، وعند عودتِهم لغرفة الضّيوف وجدوا الطّاولة مكتظة بالطّواجن والخبز المغربيّ الدافئ والزيتون والحليب، مائدة لا تتناسب مع حال ربّ هذا المنزل، ولكنْ بالتّأكيد تضاهي مستوى كرمِه ونبلِه المتوارث عبر الأجيال، هذا ما حدّث به *بلاس* نفسه، وقرأه *روبير* في عينِه من نظرة واحدة، فكانت وجبة عشاءٍ شاملة وكاملة، عوّضت جوع وإرهاق اليوم بأكمله، ثمّ تلاها دخول هنية بصحنٍ كبير به ثمار متنوّعة من الفواكه الطّازجة، وبعد أنِ انتهوا من الطّعام قال لهم عمر:

- بغيت نبشّركم بأنّ الجميع موافقين على المقترح ديالكم بحيث غادي يتعاونو جْمِيع ويقدّموا ليكم كلّ الدّعم إلى غادي تحتاجو ليه ومن غدّا بعد الضّحى كيجي جماعة منهم عند الدار باش كينفذو العمل.

استبشرَ *بلاس* خيرًا، وشكر «عمر» على تعاونِه هو وأهل البلدة، ولم ينسَ أنْ يثني على حُسن وكرم ضيافته، ثمّ أوصلهما عمر إلى غرفتهما التي رغمَ بساطتها كانت معدّةً بمفروشات نظيفة ومرتّبة، وسرعان ما نام الرّفيقان في جوٍّ من الهدوء والسكينة.

مع سماع أذان الفجر، شعرَ *بلاس* بحركةٍ وهمهمة بالمنزل، فعرف أنّه ليس عمر وحده الذي يقوم للصّلاة؛ بل جميعُ أفراد العائلة بما فيهم الطفلة هنية، ثمّ سمع صوتَ غلق الباب، ففهِمَ *بلاس* أنّ «عمر» في طريقه للمسجد، فعاد ليستكمل نومَه الهادئ وهو يفكّر في مدى نشاط وانتظام والتزام هؤلاء البسطاء الأنقياء.

وبعد أنِ استوت الشّمس في سماء صباحها استيقظ الضّيفان ووجدا «عمر» في انتظارهما في غرفةِ الضّيوف أمام الطّاولة الموضوع فوقها فطورُهم، فقال لهم:

- نهركم مزيان اسيادي كنتمنا تكونوا مرتاحين اتفضّلوا بالجلوس.

وأثناءَ الإفطار تساءل *بلاس*:

- ألا يوجد أيّ ترتيبٍ للقبور عامّة عبر الأجيال.

فأجابه عمر:

- ايوا، المقابر بالجيهة الشرقية هي القديمة بحيث مابقاوش النّاس كيدفنوا فيها موتاهم منذ زمن بعيد والان كيستخدموا الموجودة بالجهة

الغربية، بحيث البحث كلو غادي يكون في المقابر القديمة ومساحتها ماهي كبيرة، ولكين سيد كيف كنعرفو المكان ديال سيدي المعتمد بيناتهم.

فعقّب *بلاس* قائلًا:

- إحساسي يحدّثني أنّ رجلًا في منزلته يجب أنْ يعطى علامة لمكانه، شعارٌ من زمن ملكه، حجرٌ مدوّن عليه اسمه، أو رمز لعائلته.

ثمّ سمع طرقًا على الباب، فجاءت هنية وألقت ابتسامتها الجميلة على الجميع، ثمّ أخبرت عمّها أنّ جَمعًا من أهل القرية في انتظارهم بالخارج، فنهض *بلاس وروبير* واتّبعَا «عمر»، وألقوا التّحية على الرجال والشباب المتحمّسين للعمل، ثمّ اتّجه الجميع لموقع البحث، وعند وصولهم قال عمر والجمعُ من ورائه:

- السّلام عليكم يا أهلَ القبور، أنتم السّابقون ونحن اللاحقون.

فشعرَ *بلاس* بهيبةِ هذا المكان وقدسيّته عند الجميع، فبدأ يوضّح لهم أنّ المهمّة ليست نبش القبور ونقلها من مكانها، ولكن البحث والتنقيب فوقها وبينها، مشدّدًا على احترام حرمة الموتى، ومبيّنًا لهم معرفته لهذا الأمر، فلاقى كلامُه استحسانَ وتقدير الجميع، ثمّ وضّح لهم أنّ طريقة العمل ستكون بتفتيش مساحةٍ صغيرة كلّ يوم، ثمّ الانتقال للمكان الذي يليها حتّى الوصول لمبتغاهم، وعلى الفور توكّل الجميع على الله، وبدئوا مهمّة التّنقيب عن الملك الأندلسي.

مع انتظام العمل، راود بلاس الشّعورُ بأنّه موكّل به نيابةً عن جميع سكان إشبيلية وقرطبة ومالقة؛ بل الأندلس كلّها، فهو يبحث عن آخر

ملوكهم، آخر مَن حكمهم مِن بلادهم، شخص يجسّد كلّ معاني الأندلس بازدهارها وإبداعها وعبقريّتها وجمالها وكبواتها وانكسارها، فالوصولُ إلى المعتمد سيعطي بُعدًا وقيمة تاريخيّة للقضية الأندلسية.

كما لاحظ *بلاس* أثناءَ متابعته لأهل القرية وهُم يعملون أنّ الكثير منهم يتميّزون بملامح أندلسية لا تختلف كثيرًا عن ملامح أقاربهم المزارعين في حقول قشريش وأرشدونة الذي اعتاد رؤيتَهم منذ طفولته، وبين الحين والحين كان يهرولُ إليه الصّبيةُ حاملين له بعضَ الأحجار ليفحصها، ثمّ يعودوا لمساعدة آبائهم بهمّة ونشاط.

مرّت عدّة أيام على نفس هذا النّمط، و*بلاس* يزداد إصرارًا يدعمه شعوره أنّه يقترب من مبتغاه.

وأثناءَ فترات الرّاحة، كان *روبير* يحرص على التقاط بعض الصّور *لبلاس* مع عمر وشبابِ القرية بكاميرته التي كان يصطحبها معه.

ومع مرور الأيّام نشأت روابطُ من الودّ والألفة بين *بلاس* و*روبير* ومعظم سكّان البلدة، وبدأ *بلاس* يعرفُ أسماءهم ويناديهم بها، وكانت كلّ أسرةٍ تتسابق على دعوته هو و*روبير* لتناول وجبة الغداء في دارها، فعاش *بلاس* في أجواءَ من المحبّة والتّرحاب، لم يكن يشغل باله سوى افتقاده لزوجته واشتياقه لها وللأندلس.

وفي يوم من أيّام البحث توقّف الجميع عن العمل فجأة لتحيّة إمام مسجد البلدة، الشّيخ المسنّ أنوار الهادي، الذي كان يقترب بخطواتٍ شديدة البطء، خطوات رجلٍ تجاوز الثّمانين من العمر، فكان متكئًا على

عصا خشبية، ويرتدي جلبابًا مغربيًّا أبيض، بعمامته التي تغطي رأسَه ومعظمَ وجهه، ولا يظهر منه إلّا لحيتُه الكبيرة البيضاء المائلة إلى حمار لون الحنّاء، وخفّه المتهالك، فهُرِع إليه بعضُ الصّبية، وقبّلوا يديه، ثمّ عاونه أحدُهم على السّير حتّى وصل.. وبعد أنْ دعا الله أنْ يُنزل رحماتِه على ساكني القبور، اقترب ببطء من *بلاس* وحيّاه، ثمّ جلس بجواره وقال:

- دعيت ليك الله باش كتوصل لمبتغاك وكيكون مردود هذا العمل فيه الخير ليك ولينا جميع بإذن الله تعالى.

كان وقعُ كلمات الشّيخ الممزوج برائحته الزّكية التي يفوح منها المسك شديد الإيجابية على نفس *بلاس* الذي قال له:

- بوركتَ يا شيخ أنوار.

فقال له الشّيخ أنوار:

- إيوا آسيدي غادي نعاودلك على سيرة المعتمد بن عباد، بحيث احنا خير مَن يعرف قصّتو مزيان بحيث ميخفاكش بلي ختم حياته بين أجدادنا رحمة الله عليهم جميع.

الفصلُ العاشر

المعتمد بن عباد

رغمَ أنّ *بلاس* يعرف كلّ كبيرةٍ وصغيرة عن المعتمد، إلّا أنّ سماع قصّته من شيخ أغمات المسنّ بالتأكيد سيكون له مذاقُه الخاص الذي يعرفه جيدًا سكّان بلدته، الذين بدؤوا يتوافدون تباعًا، تاركين العمل ليسمعوا حديثه حتّى تحوّل المكان لمجلسِ علمٍ يتوسّطه الشيخ أنوار وبلاس.

فبدأ الشّيخ يحكي بصوته المتقطّع الذي يؤسر سامعه...

***

نشأ المعتمدُ بن عباد في إشبيلية، مملكةِ أبيه وجدّه، في بيت جاه وملك وترفٍ وسعادة، فجُبل على حبّ الأدب والشّعر، وكانت له المقطوعات الشّعرية الرائقة والأبيات العظيمة السّائرة الفائقة، وكان المعتمد أكثرَ أمراء هذه الأسرة شبهًا بمؤسّسها، القاضي الطموح أبي الوليد إسماعيل بن عباد، وفي يوم مُشمس جميل عند وادي الطّلح الذي يقع على مشارف مدينة إشبيلية الْتقى هذا الأمير الشابّ الوسيم بامرأةٍ ليست كباقي النساء، فالجَمال ليس له مثيل، وما زاده فتنة وجاذبية ذكاؤها الواضح وسرعة بديهتها ومهارتُها في إلقاء الشّعر والحديث، وبراعتُها في استخدام الفكاهة.

فبينما كان يتنزّه أميرُنا رفقة شاعره ابن عمّار، وقف لبرهة يتأمّل النهر، وكان النّسيم الرّقيق يداعب برفق صفحةَ الماء، فأثار المشهدُ الهامّ أميرنا الشّاعرَ، وألهب قريحته الشّعرية، فالتفت فجأة لرفيقة مخاطبًا إيّاه:

- اجز يا ابن عمار.... صنع الريح من الماء زرد.

ثمّ كمَن يتلذّذ بكلماته أعادها برفق وحنوّ، وكان صوته عذبًا جذابًا، يرغم مَن يسمعه على الصّمت والاستماع فقط إلى لذّة نغماته:

- صنع الرّيح من الماء زرد.

وكان يحرّك يده كالموج كأنّه يتمثّل الكلمات التي ينطق بها، فعجز رفيقه الشّاعر عنْ أن يُكمل شطر البيت فصمتَ مفكّرًا ولم يسعفه لا ذكاؤه ولا سرعةُ بديهته اللّذان عُرف بهما.

فخاطب المعتمد رفيقه قائلًا:

- أين سرعة بديهتك يا ابن عمّار! أعجزت أن تكمل شطرَ البيت؟

فتمتمَ ابن عمار كأنّه يستجلب الكلمات من عمق ذاكرته.

.. وفي غمرةِ انشغالهما بشطر البيت، سمعا صوتًا أنثويًّا جمع كلّ الأضداد؛ فكان صوتًا رقيقًا قويًّا حازمًا في آنٍ واحد، قائلًا بجَمال نبرته وبدلالِ صاحبته:

- أيّ درع لقتال لو جمد.

شلّتهما المفاجأة، لكنّهما برغم ذلك، التفّا بسرعة لمعرفة صاحبة الصوت الرّقيق، فرآها ووقع حسنُها في قلبه، وشغفته من لحظته.

كانت تقفُ بهدوء، وابتسامةُ نصر لطيفة تزيّن ثغرها الباسم، وكانت تحملُ سلّة لغسيل الثياب على حافة النّهر.

أعاد المعتمد البيتَ كاملًا وهو في حالة نشوة جميلة:

- صنع الرّيح من الماء زرد أيّ درع لقتال لو جمد . . .

يا الله!! أسمعت يا ابنَ عمار، هزمتْك امرأةٌ في ميدانك الشعري، فعجزت أنت حيث أجازتْ هي.

والتفتَ إليها بلهفةٍ مسرعًا فقال:

- أحسنتِ سيّدتي، ما اسمُ الجميلة؟

ابتسمتْ بثقةٍ وهدوء، كمَن يعرف ماذا يفعل، أدارت وجهها وهزّت خصرَها بدلال، هزّت معه قلبَ ابن عباد نفسه، وشرعت تمشي بغنج أنثويّ محبّب، عرفَ ابنُ عباد أنّه إذا لم يتصرّف في هذه اللحظة فسيخسرها لأنّه لا يعرف عنها أيّ شيء حتّى اسمها، فاستمهلها قليلًا، وكان المتعمد وسيمَ المحيّا حلوَ الحديث حَسنَ الوجه، قائلًا:

- سيّدتي، أرجوكِ هل لي بمعرفة اسمِك، أو أينَ تسْكنين؟ أو ابنة مَن أنت؟

سارتْ قليلًا، ثمّ توقّفت مُجيبة:

- لستُ بسيدة؛ إنّما أنا جارية كما ترى عند سيّدي الروميكي، واسمي هو اعتماد.

ثمّ غادرت مخلفة ابن عباد صريعَ الهوى لفتاةِ النّهر تلك، وصاحبة شطر بيتِه الشّعري، اعتماد الروميكية، اسم سيظلّ ضمن سطور التاريخ المكتوب جنبًا إلى جنب مع اسم ابن عباد.

وهكذا تغيّر مصيرُ اعتماد من جارية الروميكي إلى ملكة قلب أمير إشبيلية، فتزوّجها المؤيد بن عباد، نعم.. هذا كان لقبَه قبل أن يغيّره من فرْط حبّه لها، فهي اعتماد وهو أصبح المعتمد فكان يجمعهما حبُّ الشعر وإتقانُه، وكان يكثرُ من نظْمه في وصف محاسنها، فمِن ضمن ما قاله فيها:

«حبّ اعتماد في الجوانح ساكن ، لا القلب ضاقَ به ولا هو راحل»

وكان لا يقوى على فراقِها لا في ليلٍ ولا في نهار، حتّى أنّه من شدّة حبّه لها وشغفه بها وشغلِه عن الكلّ عداها هي، حتّى أنّه شغل عن والديه، همّ والدُه بأن يفرّق بينهما، وكان المعتمد مقيماً بمكان خارج إشبيلية، فلمّا علم ما يدبّر أبوه، وكانت اعتماد قد أنجبتْ له ولدًا، أمرها أن تخرج لاستقبال أبيه، وبيدها الولدُ لتأخذ بعطفه، فنجحتْ في ذلك، ولمّا توفي المعتضد بن عباد آل ملك إشبيلية إلى ابنه أبي القاسم محمد بن عباد، الملقّب بالمعتمد على الله، وهو في الثّلاثين من العمر، فكان شابًّا فتيًّا، فارسًا، شجاعًا، لا يقبلُ الضّيم، وطبعًا شاعرًا مجيدًا وجوادًا ذا خلال باهرة، يحبّ الأدبَ ومسامرةَ أهله، فاجتمع في بلاطِ حكمه نجوم ونوابغُ فنّ القصيد كابن زيدون وابن اللبانة وأبي بكر بن عمار وابن حمديس الصقلي، وكانت أيّامُه تتراوح بين النّعيم المقيم والسّعادة مع اعتماد، ولكنّه رغم الأخطار المُحيطة بدولته قد أسرفَ في التّرف وفي حبّ اعتماد وفي تلبية أمانيها، فهل يثبت

ملكٌ أسرف فيه مَن استخلف عليه؟ فعندما علم أنّها تحبّ منظر الثّلج الأبيض وتفتقده في فصل الصيف، زرعَ لها شجر اللوز في حدائق قصره حتّى تذكّرها ورودُه البيضاء بمنظره، كما أنّها عندما رأت هي وبناتُها نساءً فقيرات يطأنَ في الطّين حافيات من شدّة فقرهنّ، وحاجتهنّ فأحبّت أنْ تمشي حافيةً في الطين مثلهنّ، فاصطنع لها الطّين في فناء القصر، فخلطه باللؤلؤ والمسك والكافور، ودعاها لتمشي عليه وهي حافية هي وبناته.

غيرَ أنّ المعتمد ورثَ الطّموح الجامح من أبيه وجدّه، فكان يطمع في ضمّ جميع بلاد الأندلس إلى ملكه بعد أنْ ملك قرطبة، وفي سبيل ذلك سلكَ سياسةَ مهادنة أقربَ للذّل مع *ألفونسو* السّادس ملك قشتالة ليدعمه ضدّ خصومه ومنافسيه من ملوك الطّوائف الأخرى حتّى آلَ هذا الصراع بينَ هذه الدّويلات إلى التّخاذل والتّآمر على مملكةِ طليطلة، والتي استولى عليها *ألفونسو* السّادس في سنة 478 هجريّة الموافق 1085 ميلاديّة، ثمّ أضحتْ جميعُ الممالك تحتَ تهديد أطماعه التّوسعية.

فاجتمعَ ملوكُ أكبر ثلاثِ ممالك بالأندلس بمبادرةٍ من المعتمد، وهم: صاحب بطليوس، المتوكّل بن الأفطس وصاحب غرناطة، عبدالله بن بلكين مع أخيه تميم، صاحب مالقة، واتّفقوا على الاستنجاد بأمير المرابطين المجاهد يوسف بن تاشفين، وأرسلوا له قضاةَ الممالك الثلاثة لطلب نجدته، والعبور من المغرب الإسلامي لإنقاذ المُسلمين في الأندلس، وعندها حذّر أحدُ أبناء المعتمد أباه من مغبّة استجلاب يوسف بن تاشفين، فردّ عليه قائلًا:

«واللهِ إنّ رعيَ الإبلِ أحبُّ إليّ من رعي الخنازير».

فكان الجواز الأوّل ليوسف بن تاشفين يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأوّل للعام الهجري 479 الموافق عام 1086 ميلاديّة، وذلك بعد أنْ سلّمه المعتمد الجزيرةَ الخضراء لتكون قاعدة انطلاقه وتأمين لطريق عودته إذا ما انتصرَ العدوّ عليه، فاستقبله المعتمد وهو في طريقه لإشبيلية، وعندما وصلتْ أنباء هذا العبور إلى *ألفونسو* وهو يحاصر سرقسطة بمعظم قوّاته شعرَ بالخطر الذي يهدّد مملكته، ففكّ الحصار وعادَ إلى طليلطة وحشدَ الجيوش وتحالف معه من ملوك نصارى الشمال *شانجة راميرو* ملك أراغون والأمير *رامون بنجار* حاكم بنبلونة، وجاءه العونُ من وراء جبال البرينيه، فتوافدَ عليه الفرسان من إيطاليا وفرنسا بمباركةٍ وتشجيع من الكنيسة، فأضحتِ المواجهة الوشيكة بين الطرفين فاصلة ومصيرية، ورغم توحّد وتحمّس الأندلسيّين للجهاد، إلّا أنّ القائد يوسف بن تاشفين استشعرَ في ملوكهم التردّدَ والحرص على الحياة، وعدمّ طلب الاستشهاد؛ فعمدَ إلى فصل المعسكر الأندلسي عن المرابطي عقبَ خروجه من إشبيلية عندما عسكروا شمالَ بطليوس، ثمّ وصلت جحافلُ جيش *ألفونسو* وعسكرتْ على بُعد ثلاثة أميال من جيش المسلمين الذي لم يكنْ يفصلُ بينهما سوى نهر بطليوس، فأرسل يوسف إلى ملكهم يخيّره بين ثلاثة، ووفقًا للمبدأ الشرعي؛ إمّا الدّخول في الإسلام، أو دفع الجزية، أو الحرب.. فكان ردّ *ألفونسو* على الرّسول أنّه قادم للقتال، بل وأخذَه غروره إلى قوله أنّ بهذا الجيش يلقى إلهَ محمد صاحب كتابكم والعياذ بالله. وحاول خداع يوسف بأنْ حدّد يوم الاثنين موعدًا للقتال ليفاجئه بالهجوم في سحْر يوم الجمعة بفرقةٍ عسكرية مستهدفة معسكرَ

الأندلسيّين، ولكنّه تفاجأ بجاهزيّتهم وتوقّعهم لهذه الخدعة، وصدّهم الهجوم على معسكرهم، كما سارع يوسف بن تاشفين بإمدادهم بعشرة آلافِ مقاتل، فقاد *ألفونسو* بنفسه هجومًا شاملًا على المعسكر الأندلسي، ممّا أثار الفزعَ في قلوب الكثيرِ منهم، فلاذَ معظمهم بالفرار صوبَ أسوار بطليوس، ولكنْ لفروسية ولَشّجاعة رجالها فهُنا صمَدَ المعتمد بن عباد وأخذَ ينادي في فرسانه، ويقول:

-يا فرسانَ إشبيلية، اثبتوا وقاتلوا .

وصبر هذا الملك الفارس مع مَن معه صبرًا شديدًا، ولكن طمع *ألفونسو* في حسم النّصر عندما لاحظَ أنّ مقاومة المعتمد ومَن معه تضعف تباعًا فقرّر ترك معسكره مكشوفًا لمطاردة المنسحبين نحو بطليوس، وهنا أدرك يوسف بن تاشفين اللّحظة الحاسمة فأرسل فرقةً من حرسه الخاصّ من السّود تشدّ من أزر المقاتلين، ثمّ التفّ بجيشه المرابطي الذي يتقدّمه الجمالُ التي لم تألفْها خيلُ شبه الجزيرة الإيبيرية، ولا سكّانها، مصحوبة بأصواتِ الطّبول الهائلة حول معسكر النّصارى، فأثارت بذلك الخوف والرّعبَ في جندهم وخيولهم على حدّ السّواء، فاقتحمَ المعسكر وأباد مَن به مِن حرس، وأحرق الخيام، فهنا توقّف *ألفونسو* عن مطاردة الأندلسيّين، ولكنْ قبل أن يرتدّ ليستردّ معسكره انقضّ يوسف بن تاشفين على جموعه فحدثَ الاشتباكُ المصيري الذي دام لبضعة ساعات، والذي انضمّ إلى غماره المعتمد وفرسانُه، وسقط في هذا الاشتباك آلافُ القتلى حتّى أنّ الخيلَ والرّجال كانت تنزلقُ من كثرة

الدّماء، فسمّيت معركة الزلّاقة، ثمّ أنزل الله النصرَ على عباده، وأصاب أحدُ المقاتلين من فرقة السّود *ألفونسو* بطعنةٍ في فخده؛ ففرّ مع مَن تبقّى مِن جيشه في جنح الظّلام ملتجئًا إلى طليطلة.

وقبلَ أن يعودَ إلى المغرب تركَ يوسف بن تاشفين الغنائمَ للمعتمد وجنودِه، وأخذ الكثيرَ من الكتب من الأندلس لينشر بها العلم في بلاده، ولكنْ سرْعان ما تجدّدت الفُرقة والعداوةُ بين ملوك الطّوائف، وسَرعان ما عادتْ هجماتُ نصارى الشّمال لتهدّد المسلمين في مُدُنهم، فعبَرَ المعتمد بن عباد إلى المغرب ليطْلِع يوسف بن تاشفين على أوضاع الأندلس فوعدَه خيرًا، وعاود بن تاشفين العبورَ بجيش ضخم، وكان هذا جوازه الثّاني إلى الأندلس، فتوجّه صوبَ حصن لييط الذي كان قد سلبه النّصارى من المعتمد، وأضْحى قاعدةً تهدّد أملاكه وملكه، وبعد توافد ملوك الطّوائف للمشاركة في حصار الحصن، دبّ الخلاف فيما بينهم ممّا أفشلَ تحريره، فانسحب يوسف بن تاشفين بعد أنْ تغيّرت نفسه على هؤلاء الملوك، حيث علم أنّ بعضهم قدّم العونَ للعدو، والبعض أحجم عن إمدادِ معسكره بالمؤن، كما وقف على المعاهدات السّرية التي أبرمها البعضُ منهم مع *ألفونسو* خشيةً من التدخّل المرابطي في بلاد الأندلس، وبعدها رحلَ كثيرٌ من علماء الأندلس إلى يوسف بن تاشفين باكين متضرّعين أنْ ينقذ الإسلام والمسلمين مِن هؤلاء الملوك، وأرسل إليه الإمامُ الغزالي- رحمه الله- يأمره بأنْ ينقذ الأندلس من ملوكها المنشغلين بترفِ الحياة ونعيمها، وإلّا سيتأثم إثمه، فقرّر الأمير المجاهد الجواز الثّالث، ولكن هذه المرّة لضمّ الأندلس إلى دولته بعد أن يئس

من ملوكها، فبدأ بغرناطة التي كان صاحبُها عبد الله بن بلكين أكثرَهم خيانة وتآمرًا واتصالًا بالعدو، فسلّم له المدينة بعد شهرٍ من حصارها، ثمّ ضمّ مالقة، وهنا أخطأ المعتمد في حقّ نفسه ودينه عندما استقوى بملك قشتالة ضدّ يوسف بن تاشفين الذي أرسل أربعةَ جيوش للأندلس، فسقطت أملاك المعتمد تباعًا في قبضة المرابطين، وقتل ابنه أثناءَ محاولة الهروب من قرطبة بعد سقوطها، وهنا عاود المعتمد الاستنجاد *بألفونسو* الذي كان يريدُ الثّأر من المرابطين، فأرسل لهم جيشًا مؤلّفًا من أربعين ألف مقاتل، ولكنْ تصدّت لهم وهزمتهم قوّة مرابطيه مؤلّفة من عشرة آلاف مقاتل، وذلك بالقربِ من حصن المدور، فتمّ عزل المعتمد عن دعم *ألفونسو*، ومع ذلك صمّم على المقاومة اليائسة، حتّى دخل جند المرابطين إشبيلية فاستسلمَ لهم، وقتل ابنه مالك أثناءَ القتال، وقاد ولداه المعتد والراضي حركة مقاومة في مارتلة ورندة، ثمّ استسلمَ الأوّل وقتل الآخر جزاءَ تأخّره في الاستسلام، وتمّ إرسال المعتمد ونسائه وأبنائه وبناته إلى العدوة المغربية، وأودع بمنْفاه هنا في بلدتنا أغمات، مودعًا ما فات من عمره في عزّة وسلطان، ليحيا ما تبقّى من حياته بين المآسي والأحزان، وفي هذا قال:

إذا قيل في أغمات مات جودُهُ

فما يُرْتجى للجودِ بعد نشورُ

فكان ينتقل من همّ إلى هَمّ، فيبكي على أبنائه الذين قتلوا، ويتألّم على ابنته بثينة التي سُبيَت وهي الأميرة الإشبيلية، ويئنّ حين تصرخُ زوجته

وحبيبته من الذّل والهوان، وتكتملُ أحزانه التي لا يحتملها أيّ قلب عندما زارته بناتُه في العيد، فذُهل من حالهنّ، وما آل إليه أمرهنّ، فنطق لسانه المهمومُ بهذه الأبيات التي توضّح حجم مأساته، فقال:

أليسَ الموت أروحَ من حياةٍ
يطول على الشقيّ بها الشقاءُ؟
ومَن يكُ مِن هواه لقاء حِبّ
فإنّ هواي من حتفي اللقاءُ
أأرغب أن أعيش أرى بناتي
عواري قد أضرّ بها الحفاءُ
خوادمَ بنْتِ مَن قد كان أعلى
مراتبَه إذا أبدو، النداءُ
وطَرْدُ النّاس بين يديْ ممرّي
وكفّهمُ إذا غصّ الفناءُ
فيما مضى كنتَ بالأعياد مسرورا
فساءكَ العيدُ في أغمات مأسورا

ترى بناتكَ في الأطمار جائعةً

يغزلن للنّاس لا يملكن قطميرا

برزْن نحْوكَ للتسليم خاشعةً

أبصارهن حسيراتٍ مكاسيرا

يطأْنَ في الطّين والأقدامُ حافيةٌ

كأنّها لم تطأْ مسكًا وكافورا

لا خدّ إلّا ويشكو الجدبَ ظاهرُهُ

وليس إلّا مع الأنفاس ممطورا

مَن بات بعدكَ في ملكٍ يُسرّ بهِ

فإنّما بات بالأحلام مغـرورا

حتّى اعتماد التي بالغَ في تدليلها وتلبية رغباتها في أيّام عزّه، عندما ضاق بها الحال قالت له:

- لم أرَ منك خيرًا قطّ.

هنا ردّ عليها قائلًا:

- ولا يوم الطّين؟

فاستحتْ وندمت على قوْلها، ولكنّها دشنت ذروة أحزانه عندما ماتت وتركته وحيدًا، حتّى أنّه لم يعدْ له رغبة في الحياة، فجلس وخلع رداءه وأخذَ خيطًا وبدأ يطرّزه بحروفٍ تنطق بهذه الأبيات التي يرثي فيها نفسَه:

قَبرَ الغَريب سَقاكَ الرائحُ الغادي
حَقًّا ظَفَرتَ بِأَشلاء ابن عَبّادِ
بِالحِلم بِالعِلم بِالنّعمى إِذِ اتّصلَت
بِالخَصبِ إِن أجدَبوا بالري لِلصادي

وفي يوم من الأيام على أطراف بلدتنا وجدَ أحدُ المارّة جثمانًا ملقًى على الطّريقً، فعندما فحصه وجدَه قد فارق الحياة، وكان يرتدي ذاك الرّداء الذي طرّزه بتلك الأبيات الحزينة، فمِن خلالها عرف أنّ المتوفّى هو الغريب، المعتمد ابن عباد صاحب إشبيلية نفسه، فحمله وكفّنه وصلّى عليه، ثمّ دفنَه في منطقة منعزلةٍ خارج حدود المدينة، ودفن معه رداءه، وهكذا انتهتْ قصّة ملك تقلب حاله من الملك والعزّ والجاه والقوة إلى الأسْر والذّل والهوان والموت قهرًا ويأسًا، قصّة آخر ملوك إشبيلية وقرطبة، المعتمد بن عباد، فاعتبروا يا أولي الألباب، وهل مِن مُعتبر؟

الفصلُ الحادي عَشَر

فمَن يهدِي اللّهُ فهو المهتدي

فكّر *بلاس* للحظات، ثمّ وقفَ وصاحَ قائلًا:

– إذًا، نحنُ نبحث في المكان الخطأ، قبرُ المعتمد ليس هنا قربَ زوجته وابنه.

فردّ عليه الشّيخ أنوار الهادي قائلًا:

– **أمَا آن يا سي *بلاس*؟**

فردّ *بلاس*:

– أمَا آنَ ماذا يا شيخنا؟

اقتربَ الشّيخ من أذن *بلاس*، وهمس قائلًا:

– أمَا آن الأوانُ أنْ تريح نفسك وتلجأ إلى الرحمن ليريك رحماته؟

هنا فهِمَ *بلاس* مقصدَ الشّيخ فأجابه قائلًا:

– ادعُ لي الله أنْ يهديني، فقلبي يتوقُ إلى ذلك.

فقال له الشيخ:

– إذًا اتّبع قلبك، ولا تتردّد، وتوكّل على الله، وستجد عجائبَ قدرته ودلائلَ توفيقه، وستفوز بما يفوز به عبادُه الصالحون.

فابتسمَ له *بلاس*، ثمّ نهضَ وقال للجمْعِ إنّ العملَ قد انتهى اليوم، وإنّه سيُخطرهم بموعدِ استئناف البحث، وشكرَهم على مجهودهم وتعاونهم، فحيّاه الجميع قبل أَنْ يبدؤون في الانصراف، فقال له عمر الدكالي:

- ارتاح دبا يا سي *بلاس*، غادي نتوكّلو على الله هو كيهدينا إن شاء الله لمبتغانا، دبا غادي نرجعو للدار.

فقال له *بلاس*:

- سألحقُ بك بعد أنْ أوصل الشّيخ أنوار الهادي إلى بيته.

اتّكأ الشّيخ على عصاه، واستندَ على *بلاس* ليقف، ثمّ بدءا يتحرّكان ببطء عبْر الطريق.

وأثناءَ سيْرهما سأل *بلاس* الشّيخ قائلًا:

- يا شيخَنا، إنّي أسأل نفسي ما الذي جعلك تهتمّ بأمري لدرجة أنْ تدعو لي الله بالتّوفيق؟

فأجابَه الشّيخ وهو يخطو بتمهّلٍ شديد:

- يا سي *بلاس* واخا كتعرف بحيث هاذ البلدة كانت منسيّة ومازلها منسيّة، بحيث ما كان شي حدّ كهيتم بيها وبناسها، وجميع المقيمين هنا كلّ واحد فيهم كهيتم بالقوت ديالو، حتّى وصلتي وحفزت النّاس على القيام بعمل كيشارك فيه الجميع ويعطيهم أمل وهدف وغادي يعطي لأغمات قيمة تاريخية غابت من زمان، ومشكور اسيدي إنّك جيت من بلاد بعيدة باش كتباحث عن غاية نبيلة، فربّما الله تعالى دعاك وحضر ليك الأسباب باش غادي يهديك لنوره، بحيث انا شاعر إنّك أهل لهذه الهداية.

فسأله *بلاس*:

- إذًا دلّني، كيف أصلُ إلى ذلك؟

فأجابه الشيخ:

- نصيحتي ليك كتفكّر مزيان في كلامي وارجع للقلب ديالك وابحث عن الإيمان فيه بنفس الإصرار والعزيمة إلى غادي تبحث بها عن سيدي المعتمد، فالأخير ما هو إلّا ذكرى وقيمة تاريخيّة، أمّا الله عزّ وجلّ فهو الحيّ الذي لا يموت وهو المهيمن على جميع الأمور، فإنِ اتّبعت هديه ستستشعرُ ربوبيته وهيمنته على الأمور، وستستنير بنوره فتحيى في نعيم رضاه.

هنا، وصل الشّيخ أنوار الهادي إلى بابِ منزله ففتحه، ثمّ التفت إلى *بلاس* فوضعَ كفّه على موضع قلبه، وقال: «اللّهم اهدِ هذا القلبَ الطّاهر بهديك واغمرْه بحبّك وبحبّ رسولِك ﷺ»، ثمّ غمرت وجهَه ابتسامةٌ عريضة، ودخل دارَه.

وقفَ *بلاس* للحظات يتفكّر في عمقِ هذه الكلمات، وبدأت تغمرُه وتعصف بقلبه مشاعرُ إيمانيّة، فأحسّ أنّهَ مسيّر لاتّخاذ القرار الذي طالما تهرب منه وأجّله.

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾.

وفي المساء، وبعد تناول وجبة العَشاء، ذهب روبير لغرفته لينام، فقال *بلاس* لعمر الدكالي:

- هلّا حدّثتني عن نبي الإسلام؟

فقال عمر:

- عليه الصّلاة والسّلام، بالطّبع سيد بلاس يشرّفني أن أحدّثك عن نبيّنا حبيبنا وشفيعنا أشرف خلق الله، فهو سيّدي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، كينتمي لقبيلة قريش العربية، والي كانت كتسكن مكّة بجوار الكعبة المشرفة بيت الله الحرآم، وهو من ذرية سيدنا إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليه وعلى نبيّنا أفضل الصّلاة والسّلام، ونزاد بمكّة، يتيم بحيث مات الوالد ديالو عبد الله من قبل ما ينزاد من بعد توفّيت الوالدة ديالو وهو طفلٌ صغير فتكفّل بيه جدّه عبد المطلب، من بعد توفا جدّه فتكفّل بيه العمّ ديالو أبو طالب.

في بداية حياتو ﷺ كان فاضل ومحسن مع جميع النّاس، حريص على توصيل الخير ليهم بحيث كانو كينادولو بالصّادق الأمين، وكان عمرو ما يشارك أهل الجاهلية في الأعمال المشينة إلى كانت شآيعة بيناتهم، من رقص وغناء، وشرب الخمر وفساد وغير ذلك، وكان مكيعتارفش بيها، من بعد بدا ﷺ، كيخرج لجبلٍ قريب من مكة، كان كيقيم فيه يتعبّد ويصلّي ويذكر ويتفكّر في خلق الله عزّ وجلّ مدّة طويلة، من بعد نزل عليه الوحي وهو في غار حراء، وهي مغارة في هاذ الجبل، نزل عليه الملك من عند الله عزّ وجلّ، من غير ما يعرف صلوات ربّي وسلامه عليه، وفزع بنزوله عليه، قاله الملك: اقرأ.. اقرأ، لكن النّبي ﷺ لا يقرأ ولا يكتب، كان أمّي لحكمةٍ كيعلمها إلّا الله وحده، ردّ عليه النبي ﷺ: ما أنا بقارئ -أي مكنقراش لا أحسن القراءة، فضغطه الملك، ثمّ أرسله وقال: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ،

فضغطه الملك مرّة ثانية، حتّى بلغ منه الجهد، ثمّ قال: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ ، وفي المرّة الثالثة قال له: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.، بحيث كان هذا أوّل ما نزل عليه من القرآن الكريم.

رجع مين داك ﷺ بهذه الآيات إلى زوجته خديجة، وكان كيرتجف من الخوف ويقول: «دثّروني.. دثّروني» أي غطّوني غطّوني، فضمّته خديجة إليها، وقالت له: أبشر يا ابنَ أخي، فوالله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنّك لتصل الرّحم وتقرئ الضّيف وتعين على نوائب الحقّ، وتحمل الكَلّ، من بعد ذهبت به إلى رجلٍ نصراني في مكّة، واسمه ورقة بن نوفل، فخبره بواش شاف، والخوف من ذلك، فقال له ورقة بن نوفل: «أبشر يا محمّد، هذا هو النّاموس الذي أنزل على موسى عليه السلام، هذا جبريل وأنت نبي، ويا ليت نكون حيّ إذ يخرجك قومك، فإنّني حينئذٍ أنصرك نصرًا مؤزّرًا، فقال له النّبي ﷺ: «وهل سيخرجني قومي من بلدي؟!» قال: «نعم، ما جاء رجلٌ بمثل ما جئت به إلّا عودي وحورب، وإنْ يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزّرًا».

وهكذا بدأ يتنزّل الوحي على الرّسول ﷺ شيئًا فشيئًا، حتّى مكث بمكّة ثلاث عشرة سنة، وهو يدعو إلى الله، بحيث كان كيلقى منهم الأذى والصّد والتكذيب والسخرية والعناد، حتّى أنّه كاين مَن كان كيعتدي عليه وهو ساجد فيضع القذارة على ظهره الشّريف بحيث كان كيتعرض لأنواع عديدة من الأذى، ومنهم مَن يبصق في وجهه، ومنهم مَن يضع

التراب على رأسه، بأبي أنت وأمّي يا رسول الله، وهو كان كيقابل داك الشّيء بالصبر، وجميع مَن اتّبعه نالو من ألوان الاضطهاد والعذاب حتّى جاء الفرج من عند الله، وأذن له ولهم بالهجرة إلى المدينة المنورة فهاجر النّبي ﷺ هو وأصحابه وأتباعه بعد ثلاث عشرة سنة من بعثته ﷺ، بحيث استقبله المؤمنون هناك، وبقي في المدينة عشر ديال السنين يدعو إلى الله عزّ وجلّ، فآمن به أهل المدينة من غير اليهود والمنافقين كانو كيعتارضو وكيحقدوا على الإسلام والمسلمين، وبدأ الإسلام كينتشر في أنحاء الجزيرة العربية، من بعد بدأ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم كيواجه الكفار والمشركين، الذين آذوه وحاربوه، بالقتال والحرب، حتّى يتمكّن الناس من معرفة الحقّ من الباطل، وقبول الدين الإسلامي من غير ما يكون هناك شي أحد كيمنعهم من ذاك الشيء، أو كيضغط عليهم بتركه، قاتل المشركين في معارك كثيرة، منها معركة بدر، ومنها معركة أحد، ومنها معركة الخندق أو الأحزاب، ومنها معركة فتح مكّة وغير ذلك من المعارك، بحيث كان النصر حليفه في معظم المعارك، بل قلْ في جميع المعارك إلّا معركة أحد، بحيث خالف أصحابه أمره، فأصابهم الله عزّ وجلّ بالهزيمة، كتربيةً لهم على طاعةِ الله وطاعة الرسول ﷺ.

وقبل وفاته ﷺ كانت الجزيرة العربية كلها قد دانت بالإسلام، وبدأ هاد الدين كينتشر خارج أصقاع الجزيرة العربية بحيث واصل أصحابه من بعده حركة الدعوة إلى الله والفتوحات، حتّى خضعت لهم معظم أنحاء المعمورة في ذلك العصر بما فيها بلادك اسيدي بلاد الأندلس العزيزة ونبيّنا ﷺ ما كان كيطلب في ذلك كله شيئًا لنفسه؛ إنّما كان رجلًا متواضعًا

بعيدًا عن التكلف والكبرياء، سهلًا رحيمًا قريبًا مِمّن حوله، لمّا رآه عبد الله بن سلام وهو يهودي قال: «لمّا رأيته عرفت أنّ وجهه ليس بوجه كذّاب»، وجاءه يومًا أعرابي، فلمّا رأى النّبي ﷺ، ارتعد من التّوقير والإجلال، فقال له النّبي ﷺ: «هوّن عليك، فإنّما أنا ابنُ امرأة كانت تأكل القديدَ بمكّة».

وكان كيمازح أصحابه وكيحادثهم، ويكره كلّ مظاهر التكبر والغرور والغطرسة، وما ادّعى لنفسه شيئًا ليس له، بل إننا نجد في القرآن الكريم أنّ الله عزّ وجلّ يقول لرسوله ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾، وإلى غير ذلك من الآيات، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ...﴾، فالرّسول ﷺ كان بشرًا رسولًا، كيدعو الناس إلى ربهم، وكان كيعطي الناس ولا يأخذ منهم، وكان كثير الإحسان إلى النّاس والصدقة، يتصدق على الواحد منهم بمائة بعير مثلًا، أو بوادٍ من الغنم، أو بمبلغ كبير من الذهب أو من الفضة، ولا يرى في ذلك شيئًا على الإطلاق، ومات ﷺ ودرعُه مرهونة بدين عند رجلٍ يهودي.

فهذا النّبي الذي اختاره الله تبارك وتعالى نبيًّا ليس للعرب فحسب؛ بل للبشرية كلّها منذ بعثه، وإلى قيام الساعة، وما يمكنش يدخل للجنّة أيّ إنسان ما يأمنش بهذا النبي بعد بعثته عليه ألف صلاةٍ وسلام.

وبعد أنِ انتهى عمرُ من كلامه، أخذ بلاس يهزّ برأسه متفكّرًا في تفاصيله، ثمّ قال:

- حدّثتني عن رجلٍ ما أعظمه، وما أجملَ خصالَه التي تجسّدت فيها كلّ معاني الرقيّ والحضارة التي نفتقدها في أيّامنا هذه، من كلامك المختصر عرفته بطريقةٍ أوضح ممّا قرأته في الكتب والمراجع التي اطّلعت عليها في إشبيلية بالأندلس، أوضحت وأوجزت يا سيد عمر.

فعقّب عمر قائلًا:

- ما قلت ليك ما هو غير عناوين من سيرة نبيّنا صلوات الله وسلامه عليه، كنطلب من الله يرزقك معرفته حقّ المعرفة والاهتداء بهديه حقّ الهداية، بحيث تستحقّ كلّ الخير يا سي بلاس.

فردّ عليه *بلاس* قائلًا:

- تقبّل الله منك صالح الدّعاء، وهدانا إلى الحقّ الذي نتوق إليه من عميق قلبنا.

كانت ليلةً هادئة ومرّت ساعاتها طويلةً على *بلاس*، فمن نافذة غرفته الصّغيرة كان يطلّ على منظر الأراضي الزّراعية التي يحجب جزء منها بعضَ البيوت الصّغيرة، ورغم السّكون الذي يسود ليل أغمات كان عقل *بلاس* يضجّ بالمشاهد المتداخلة التي مازال صداها يرنّ في أذنه، صوت الشّيخ أنوار وهو يقول له: «أمَا آن يا *بلاس*»، وعمر الدكالي وهو يحدثه عن نبيّ الإسلام ﷺ، ثمّ طريق الله وهو يكبر تكبيرة الإحرام ليصلّي على الطريق، وشيخ مراكش الذي يروي للنّاس الأحاديث فيأتي طيف المعتمد بن عباد وهو يحثّه في منامه ويستنهضه ليدافع عن حرية إشبيلية

والأندلس، ثمّ يتجسّد أمامه مشهدُ جدّته وهي تقول: «يا بنيّ، إنّنا لسنا كما نظنّ».

هنا، وقف محدّثًا نفسه بحزم:

– نعم، هذا دينُ أجدادي، هذا هو الحقّ الذي توارى تحت غبار السّنين، وجاء الوقتُ لأزيح ما عليه ليعودَ ويسكن في روحي وجسدي، فأنا أندلسيّ وأنا على دين آبائي الأندلسيّين أصحاب هذه البلاد الطيبة والحضارة الراقية، أنا لست كما كنت أظنّ، يا إلهي أحتاجُ عوْنك على ما أنا مقدِم عليه.

وعند الفجر، عندما سمع *بلاس* صوتَ المؤذّن يقول الله أكبر وجد نفسَه يردّد معه كلمات الأذان، ثمّ نهض وتطهّر بالماء، وارتدى الجلباب المغربيّ الذي ابتاعه من مراكش، وخرج من البيت فشاهد من بعيدٍ «عمر الدكالي» يخلع نعليه ويدخل المسجد فأسرع الخطى وتخلّص من حذائه ثمّ اقتحم المسجد وسط دهشة أهلِ القرية المنتظرين لإقامة الصّلاة، ثمّ توجّه للأمام، وجلس أمام الشّيخ أَنوار الهادي الذي ابتسم وقال له:

– **دبايا سي بلاس، يا صاحب القلب الطاهر.**

فقال له *بلاس* والدّموعُ بدأت تتساقط من عينيْه:

– نعم الآن يا شيخنا أنوار، فنورُ محمّد أضاء قلبي.

فقال الشيخ أنوار:

– عليه الصّلاة والسّلام.

وأطرق *بلاس*:

- ماذا أفعل الآن؟

فوضع الشّيخ أنوار يدَه على كتف بلاس وقال له:

- قلْ أشهدُ أن لا إله إلّا الله.

قال *بلاس* وهو يذرف الدموع:

- **أشهد أنْ لا إله إلّا الله.**

فقال الشيخ أنوار ملقّنًا إيّاه:

- وأشهدُ أنّ محمدًا عبده ورسوله.

فاشتدّ بكاء *بلاس*، وبدأت تلمعُ أعين الرجال بالمسجد، وتنسدل من أعين بعضهم الدموع من هذا المشهد الإيماني الفريد.

استجمع بلاس قوّتَه، وقال:

- **وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله.**

فتعالى صوتُ التكبير ليرجّ أركان المسجد، والتفّ الرجال والصبيان حول *بلاس* ليحضنوه ويقبلوه ويهنئوه على دخوله في دين الله.

وقف الشيخ أنوار وقال بصوت مرتفع:

- الآنَ يا عبد الله، غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر، صفحتك بيضاء، فابدأ العمل على بركة الله ورضوانه.

فكبّر عمر الدكالي وكبّر الناس مرّة أخرى، ثمّ وقف المؤذّن ليقيم الصلاة وانتظمت الصّفوف، ووقف *بلاس* بجوار عمر، ومع تكبيرة

الإحرام استأنف *بلاس* البكاء، ولكن مع سماع صوت الشّيخ أنوار وهو يقرأ الفاتحة استقرّت نفسُ *بلاس* وبدأ يمتّع نفسه بمعاني الآيات وكأنّه يسمعها لأوّل مرّة، فهو يصلّي بها الآن ويتذوّق حلاوة الإيمان بمعانيها العطرة.

وبعد إتمام الصّلاة سمع الشيخ أنوار الهادي *بلاس* وهو يهمس قائلًا:

- أحمدُ الله الذي هداني لدينه.

فمدّ له يده مصافحًا وهو يقول:

- تقبّل الله منك يا **أحمد**، ما رأيُك في هذا الاسم؟

فكّر *بلاس* للحظات قليلة، ثمّ قال:

- أحمد؟! نعم، أحمد، إذًا أنا أحمد *بلاس* إنفانتي.

فقال له الرجال:

- **بوركت يا سي أحمد.**

ولمّا عاد *بلاس* للدّار أخبر *روبير* بما أقدَم عليه فوجده لم يتفاجأ بل كان يتوقّع بفراسته المعهودة ومتابعته لتقلّبات *بلاس* النفسية حدوثَ ذلك، بل واحترمَ قرارَه واعتبره شيئًا بينه وبين ربّه، وتعاهد الرفيقان على أن تبقى الأخوّة بينهما كما هي، ونشأت صداقةٌ جديدة استحوذت على الكثير من وقتِ *بلاس*، صداقة لم تكن تجمعه مع شخص عادي بل جمعته مع كتاب الله المجيد، مصحف عتيق مكتوبٌ بالخط الكوفي أهداه له طريق الله لمّا بلغه اعتناقه الإسلام، لم يكنْ *بلاس* يكتفي بقراءة آياته والتفكّر

في معانيها بل كان ينسخ حروفَها بطريقة مبدعة في مفكّرته في صورة لوحات جميلة، كما أصبح يحيى كمسلم صالح، يواظب على أداء فروضه بالمسجد رفقة عمر الدكالي، ويجلس بعد الصّلاة ليتلقى التعاليم الدينية من الشّيخ أنوار الهادي، كما توطّدت علاقته أكثر بأهل القرية الذين كانوا يتوافدون بانتظام على دار عمر الدكالي لمجالسته والاستمتاع بحديثه عن وصف مدن الأندلس وقصصها الشّيقة التي كان يتقن حكْيَها، ورغم كلّ هذا الصّخب الإيماني الذي بدّل حياة *بلاس* للأفضل كان يشغل باله مهمّته التي لم ينجزها بعد، فكان لا يكفّ عن الدّعاء لنيل مبتغاه، وفي إحدى جلساته مع رجال القرية بدار عمر، وأثناء تطرّقهم إلى الحديث عن المعتمد واحتماليّة وجود قبره على أطراف القرية، انتبه أحد الجالسين والذي كان راعيَ أغنام يعتاد التنقّل حول أغمات أنّه تشكّك منذ زمن من وجود مدفن قديم مهجور خارج نطاق البلدة..

هنا قفز *بلاس* من مكانه، ووقف محدّثًا الجالسين:

- إذًا يُحتمل أن يكون هو ما نبحثُ عنه، الآن انتابني شعورٌ بأنّ الله تقبّل دعائي، إنْ شاء الله نبحث في هذا المكان غدًا، لعلّه هو.

فوافق الجميع، وأبلغهم راعي الغنم أنّه في الصباح سيرشدهم إلى موقع المدفن.

الفصلُ الثّاني عشر

قبرُ الغريب

جاءَ هذا الصباح ليبثّ- عبرَ شعاع شمسه- الأملَ في نفوس أهل أغمات، و*بلاس* مفعَمٌ بمشاعر التفاؤل توجّه رفقة عمر الدكالي ورجال القرية إلى المكان الذي أرشدهم إليه راعي الأغنام، وشرع الجميع في البحث والتّنقيب بهمّة ونشاط، و*بلاس* يترقّب اللحظة المنتظرة، وبدأ الوقت ينسكب رويدًا رويدًا من قارورة هذا اليوم حتّى صلّى الجميع الظهر ثمّ العصر في موقع البحث، وبدأ ضوءُ الشّمس يأخذ في الخفوت، و*بلاس* متمسّك بالأمل.

فجأة.. صاح أحدُ الرجال قائلًا:

- راني لقيت شي حاجة هنايا، أجي تشوفوا معايا شنو هذا؟

أسرعَ الجميع نحو هذا الرّجل، وفي مقدّمتهم *بلاس* الذي وجد طرفًا من رداءٍ حريريّ متهالك لونُه أزرق يبرز من بين التراب، فطلب منهم أن يخرجوه بعنايةٍ شديدة حتّى لا يتمزّق، وبعد إخراجه وإزالة الغبار العالق به بدأ بلاس بفحْصه، فوجد بعضَ الحروف المطرّزة على أطرافه ثمّ أسرعَ في تركيب كلماتها رغم تآكل خيطها ليتأكّد أنّه هو. وبالفعل كان المكتوب على الرّداء «**قَبرَ الغَريب سَقاكَ الرّائحُ الغادي حقًّا ظَفَرتَ بأشلاءِ ابن عبّادِ**».

فنظرَ *بلاس* للرّجال وقال لهم:

– الحمدُ لله وجدناه أخيرًا، ابن عباد هنا.

بجوار موضع الرّداء، وبعد إزالة قطع الطّين المتحجرة، بدأ يظهر كفن ملك إشبيلية، والجميع يقول «لا إله إلّا الله»، أمّا *بلاس* فتراجع للخلف وبدأ قلبُه يخفق بقوّة، وغمرَ نفسَه حزنٌ عميق أزاحَ الفرحَ الذي كان يملأها حيث أشفق على شخصِ المعتمد العزيز إلى قلبه أن يؤول جسده إلى هذه الحالة المزرية، فقال للرِجال:

– فلنكرمْه وننقل رفاته لمكانٍ يليق به بجوار زوجته وابنه.

تمّ إحضار صندوقٍ خشبي كبير وضعَ فيه الجثمان وقبل غروب الشمس، كان قد تمّ نقله للمكان الذي كان قد اختاره *بلاس* عند مدخل أغمات تمهيدًا لنقلِ جثمان حبيبتِه وزوجته اعتماد وابنه ليتجمّعوا مرّة أخرى بمكان واحدٍ بعد فراق دامَ مئات السنين.

عادَ *بلاس* إلى دار عمر وهو مفعمٌ بالرّضا والطمأنينة، وفوْر دخوله لغرفته سجدَ شكرًا لله كما علمه الشيخ أنوار الهادي، وقال وهو ساجد:

– أحمدُك يا ربّي وأشكرُ فضلك، هديتني لدينك ولغايتي التي جئت من أجلها، اكتبْ لي يا الله الخير، واجعلني سببًا لخلاص ونهضة بلادي، الأندلس يا ربّ، الأندلس...

في اليوم التّالي، تمّ نقل رفات اعتماد وابنها بجوار المعتمد، وقام أحمد بلاس بوضع حجر منحوتٌ عليه بالإسبانية *«المعتمد ري دو سيفيا»*، وبجوارها نفس الجُملة بالعربية «**المعتمد ملك إشبيلية**».

ثمّ قرّر- بالاتفاق مع *روبير*- مغادرة أغمات، والعودة لمراكش بعد صلاة الجمعة المقبلة كي تكون فرصةً لتوديع رجال البلدة الذين يجتمعون في المسجد للصّلاة.

في صباح يوم السّفر، وأثناء تجهّز *بلاس* للذّهاب للمسجد لحضور شعائر أوّل صلاة الجمعة له، استأذن عمر الدكالي للدخول وهو يحمل شيئًا في يديه.

فقال له *بلاس*:

- مرحبًا بك.

ردّ عمر:

- **وا نهارك مزيان اسيدي، تفضّل هذي الهدية، كنتمنى تعجبك وتذكّرك بينا لمّا ترجع للأندلس.**

تناولَ *بلاس* اللفافةَ منه، فوجد بها جلبابًا أبيض، يعلوه خنجرٌ فضي منحوتٌ على مقبضه نقوشٌ إسلامية وحروف عربية.

فقال له عمر:

- **هاذ الجلابة، كتلبسها وين ما اشتقت لينا والي أغمات وأمّا الخنجر ديال جدودي فما غاديش نلقى أعزّ منّك كنستأمنو عليه باش كيحتفظ بيه، كنعتبرو رمز مشاركة ديالي وديال أجدادي ليك في دعم كفاحك من أجل حرية أندلسنا الحبيبة.**

أمسكَ *بلاس* بالجلباب والخنجر، ثمّ قال:

– والله إنّها لأقيمُ هديّة أهداها لي صديق، أعدك أنْ أحفظ هذا الخنجر طوالَ حياتي، وربّما يأتي يوم يستلمه ابنٌ من أبنائك من ابن لي في الأندلس بعد تحرّرها وعودة مجدها.

ذهبَ بلاس للمسجد رفقةَ عمر متحمّسًا لممارسة شعائر هذا اليوم الخاصّ بالمسلمين، وبعد رفع الأذان وصلاة ركعتي السنة صعد الشيخ أنوار الهادي على المنبر الخشبي المتواضع الذي يعلو ثلاث درجات عن أرضيّة المسجد، ثمّ قال: «السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته»

ثمّ جلس ليؤذّن الأذان الثّاني لصلاة الجمعة، ثمّ وقف الشيخ وشرع يخطب خطبة الجمعة قائلا:

– اللّهم صلّ وسلم وبارك على حبيبنا وشفيعنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أمّا بعد فحديثُنا اليوم عن فضل ونعمة الإسلام والخير والعزّة التي ينزلها الله على مَن يتبع هديه وينتهج بنهجه، فحديثُنا اليوم عن اللمتونيون، ويرجع اسمهم إلى ثوبهم البسيط المسمّى باللمت، ويعود أصلهم إلى قبيلة صنهاجة التي نزحت من الجزيرة العربية إلى بلاد المغرب، وكانوا من البدو الرّحّل فكانوا يتنقّلون من واحةٍ إلى أخرى في صحاري إفريقية حتّى نزلوا في قاصية غرب إفريقية قربَ المحيط الأطلنطي، وكانوا غاية البدائيّة، يجهلون العلوم والفنون والكتابة وتعاليم الإسلام رغم مجاورتهم للأمم الإسلامية، فكان دينهم المجوسيّة حتّى خرج منهم في أواسط القرن الحادي عشر الميلادي رجلٌ يدعى

يحيى بن إبراهيم اللمتوني باغيًا تحصيل العلم الذي ينقص قومه فطاف بلاد المغرب، ورحل إلى أرض العرب، وتعلّم مبادئ الإسلام، واطّلع على العلوم والمعارف؛ فقرّر أن يثقّف ويعلم قومَه فبحث عن عالم مسلم يستطيع القيامَ بهذا الدور فوجد مبتغاه وهو بالقيروان في فقيهٍ يدعى عبدَ الله بن ياسين، والذي استقبله اللمتونيون بفتور ولكنْ سرعان ما نفذت دروسُه إلى قلوبهم، فرفعوا مقامه بل واتّخذوه سيدًا عليهم وحاكمًا لهم، ثمّ دانتْ له معظم القبائل الصّحراوية تارةً بالدّعوة وتارةً بالقتال، وانضوت تحت لوائه فأعلنَ زعيم اللمتونيون وهو أبو زكريا يحيى بن عمر أنّه تلميذه وتابعه، واكتفى بقيادة الجند المجاهدين، فنصّبه عبد الله أميرًا وقائدًا، وأطلق على القوم اسمًا جديدًا وهو المرابطين، وبثّ الإسلامُ الحماسة في أهل الصّحراء فقادهم من نصر إلى نصر حتّى غمرت جيوشُ المرابطين الضّخمة المغرب الأقصى، ولمّا قُتل القائد أبو زكريا في إحدى المعارك اختار الإمام عبد الله أخاه أبا بكر بن عمر ليخلفه في قيادة الجيوش، والذي قبض على زمام الحكم دون شريك بعدما توفّي الإمام عبد الله في إحدى المعارك ثمّ اختار موقعًا بسيطًا حافلًا بالزّرع والماء وجعله عاصمة لملكه، وأقام به القصور والمنازل، وسمّيت هذه المدينة الجديدة «مراكش» وكان تأسيسُها في أوائل عام 454 هجريّة الموافق 1062 للميلاد، ولمّا نشبت حربٌ أهلية بين قبيلتي كدالة ولمتونة، استخلف أبو بكر ابنَ عمّه يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن ترقوت على عاصمته الجديدة، وكلّفه أن يكمل بناءها، ثمّ خرج إلى الصّحراء لقمع الفتنة بين القبيلتين. وكأنّ يوسف بن تاشفين قد خلقَ للزّعامة فجمع الله فيه خلال الشّهامة والشجاعة

والورع والفطنة وحسن الطّالع والزهد، فابتنى بمراكش مسجدًا بديعًا وقصرًا حصينًا، كما وطّد سلطانه بالمغرب الأقصى ففتحت جيوشه مدينة فاس، وغنم منها خيرًا كثيرًا ملأ بها خزائن دولته، ولمّا عاد أبو بكر بعد أنْ قاد جيشه إلى أعماق بلاد السودان استقبله يوسف بن تاشفين على مشارف مراكش بجيش ضخم فتنازلَ أبو بكر لابن عمّه على الملك، وعاد ليكمل جهاده ضدّ قبائل السّود، وأخذ يوسف البيعةَ لنفسه من جمهرة الزعماء الحاضرين، وكان يومئذ يبسط سلطانَه على كلّ شمال غرب إفريقيا حتّى قرطاجنة بتونس شرقًا، ثمّ عاونه المعتمد بن عباد في انتزاع طنجة من الأدارسة الذين أخرجوا من مالقة الأندلسية، ثمّ افتتح تونس شرقًا، وضمّ سبتة ليمتلك جميع برّ العدوة المغربية المقابل للأندلس قبل أن يستجيب لنجدة أهلها ويسخره الله لينقذ الإسلام من أعدائه بهذه البلاد الطيبة، ثمّ يضمّها لدولته المرابطية العظيمة، فمَن يعظّم دين الله يعظّمه الله ويرفع من شأنه، ومَن يجتهد في مرضاة ربّه يرضى عنه ويرضيه.

ثمّ رفع الشّيخ أنوار صوتَه داعيًا الله أن يهدي المسلمين ويعيدهم إلى سابقِ عهدهم وينصرهم ويعزّهم، ثمّ ختم خطبته ليقوم المؤذّن ويقيم الصّلاة فيصلي الحاضرون ركعتي الجمعة.

بعد إتمام الصّلاة ودّع *بلاس* جميعَ رجال البلدة الحاضرين بالمسجد، وأظهر لهم كلّ مشاعر الامتنان على ضيافتهم ومعاونتهم له، فقال له الشّيخ أنوار الهادي إنّه سيرافقه مع حفيده في رحلتِه لمراكش ليزور أقاربَه هناك ويبتاع بعض الكتب، فرحّب *بلاس* بهذه الصّحبة المحببة إليه، وبعد

أن خصّ عمر الدكالي بوداع حارّ توجّه مع *روبير* والشيخ أنوار وحفيده صوْب العربة الواقفة أمام المسجد، وركب الجميع لتتحرّك وتبدأ العبورَ بين بيوت القرية، ثمّ تخرج لطريق السّفر لمراكش.

بعد حديثٍ ممتع دارَ بين ركاب العربة طلب *بلاس* من الشيخ أنوار الهادي أن يكمل له بأسلوبه الماهر باقي قصّة المرابطين، فرحّب الشيخ أنوار، ثمّ قال له:

– بعد أنْ أسقط المرابطين كلّ ممالك الطّوائف عدا إمارة سرقسطة نظرًا لوضعها الحدودي مع النّصارى، وتقديرًا لدور صاحبها أحمد المستعين بن هود في جهاده ضدّهم؛ أضحت الأندلس موحّدةً كولاية تابعة للمغرب وللإمبراطورية المرابطية، فتعثّرت حركة الاسترداد التي تبنّاها ملوك قشتالة منذ عهد فرديناند الأول وتبدّدت آمالُ *ألفونسو* السّادس أمام صلابة المرابطين، كما أنّ القوى الصليبية عامّة لم تستطع تجاوز سرقسطة إلى الجنوب، وقبلَ وفاة يوسف بن تاشفين عبرَ إلى الأندلس للمرّة الأخيرة مصطحبًا ولديْه تميما أبا طاهر وعليا أبا الحسن الذي اختاره ليخلفه في الحكم رغم أنّه الابنُ الأصغر لتفوقه في خصال ومواهب القيادة، فدعا يوسف بن تاشفين القادة والولاة وكبراء الأندلس وزعماء القبائل المغربية للاجتماع في قرطبة ثمّ أمرهم أن يؤدّوا يمينَ الولاء لولده الأصغر باعتباره أميرهم المستقبلي، ثمّ توفّي يوسف بن تاشفين– رحمه الله– إثر مرض ألمّ به، وكان ذلك في الثالث 3 من شهر محرم من العام 500 من الهجرة والموافق للرابع من يوليو للعام 1106 من الميلاد،

فاستلم أبو الحسن علي بن يوسف الحكم، فواجه وقمعَ معارضه لحكمه في فاس وقرطبة وغرناطة وإشبيلية، ثمّ سرعان ما قام بغزو مملكة قشتالة بعد عاميْن من تولّيه الحكم، وفي طريق زحف قواته المرابطية التي كان يقودها أخوه تميما اقتحمت مدينة أقليش ثمّ انتصرتْ على الجيش القشتالي الذي كان يقوده ابن *ألفونسو* الوحيد ووليّ عهده، *شانجة* الذي أرسله وهو في الخامسة عشرة من عمره رفقةَ أحد قوّاده وسبعة كونتات لمواجهة المرابطين الذين أبادوهم في الموقعة التي عُرفت في مدوّناتهم بمعركة الكونتات السبعة، فمات بعدها *ألفونسو* السّادس كمدًا على ابنه فخلفته ابنته *أوراكة*، والتي كان قدْ زوّجها *لألفونسو* المحارب ملك أراغون ونبرة لتوحيد الممالك النصرانية، ولكن ما حدث كان عكسَ ذلك حيث اندلعت الحروبُ الأهلية لأعوام، وتبدّد توحدهم ضدّ المسلمين فاستغلّ أمير المرابطين هذه الفرصة ليسدّد ضرباته ضدّهم، فأرسل حملة لاستعادة طليطلة ولكنّها باءت بالفشل لصلابة أسوارها واستبسال حاميتها، ففكّ حصارها، وفي طريق عودته إلى قرطبة فتح مجريط، وهي مدريد الحالية، وفتح وادي الحجارة وقلعة هنارس، وبالتزامن مع هذه الحملة سار جيشٌ مرابطيّ آخر غرب الأندلس بقيادة القائد سير بن أبي بكر ففتح بعض المدن في الأراضي البرتغالية مثل بطليوس ويابرة وأشبونة وشنترين، وهدّد قلمرية، ووصل لمشارف بورتو، ثمّ تأتي فاجعة أخرى أصابت الإسلام في بلاد الأندلس.

فاستفسرَ *بلاس* قائلًا:

- ما هي يا شيخنا؟

فأجابه الشّيخ أنوار:

- سقوط سرقسطة كما سقطت طليطلة.

فعاود *بلاس* السؤال قائلًا:

- نعم، ولكن كيف حدثَ ذلك في أوج عنفوان المرابطين؟

فأجابه الشيخ أنوار قائلًا:

- الفرقةُ والخيانةُ تضيع كلّ شيء، ففي الوقت الذي كان *ألفونسو* المحارب متواجدًا في قشتالة هاجم أحمد المستعين بن هود صاحب سرقسطة نقاطَ الحدود مع مملكة أراغون ونبرة، ففتح حصن أرنيط، وفي طريق عودته باغته *ألفونسو* المحارب عند بلتيرة الواقعة على ضفاف نهر إبرو، وانتصر عليه، ونال أحمد المستعين الشّهادة مع عددٍ كبير من جنوده، فخسرت سرقسطة آخرَ كبار أمرائها من بني هود حيث خلفه ابنه عبد الملك الأقلّ كفاءةً من والده، وكان المجتمع السرقسطي منقسمًا بين مؤيد للأسرة الحاكمة وراغبٍ في الدخول في تبعية المرابطين لمجابهة خطر الأراغونيين، ومع ضعف نفوذ الأسرة الهودية الحاكمة تسابق المرابطين مع مملكة أراغون على ضمّ سرقسطة فاستعان عبدُ الملك بالأخيرة خشيةً من طموح المرابطين ممّا دفع عليًّا بن يوسف إلى انتزاع سرقسطة منه، فلمّا أدركها جيش المرابطين فتح لهم السّكان أبوابها، وهرب منها عبد الملك قاصدًا حصن روطة، فأقام فيه وطلب دعم النّصارى، ولمّا فرغ *ألفونسو* المحارب من توطيد حكمِه لقشتالة شرع في مهاجمة سرقطة لضمّها

لمملكته، ولمّا فشل طلب الدّعم من أوروبا مستغلًّا شهرته الواسعة في قتال المسلمين المواكب لاندلاع الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وحماسة الفرنجة في مجابهة المسلمين، فجاءه الدّعمُ من فرنسا وممالك الشّمال النصرانية، فتكون لديه جيش صليبيّ ضمّ خمسين ألف مقاتل مدعوم بكلّ آلات الحصار، فعبرتْ قوّاته جبال البيرنيه حتّى أدركوا سرقسطة وضربوا عليها حصارًا دام ستّة أشهر، ولمّا وصل الجيش المرابطي الذي أرسله علي بن يوسف وجدَها قد سقطت في يد الصليبيين فاتّخذها *ألفونسو* المحارب عاصمةً جديدة لمملكته، فحوّل مسجدها الجامع إلى كنيسة سميت *لا سيو دي سرقسطة* أو *سان سلفادور*، وغادرها نحو خمسين ألفًا من أهلها المسلمين، ولمّا بلغ ذلك علي بن يوسف كلّف أخاه إبراهيم بن يوسف بقيادة حملةٍ لاستردادها فاصطدم جيشُ المرابطين بجيش *ألفونسو* المحارب عند بلدة كتندة، فهزم المسلمين هزيمةً قاسية، وانسحب إبراهيم بمَن بقي مِن جيشه صوْب بلنسية، واستغلّ *ألفونسو* المحارب هذا النّصر فضمّ ما بقي من حصون مملكة سرقسطة لملكه، وبذلك انْهار نهائيًّا خطّ الدّفاع الأوّل عن الأندلس، وتجرّأ *ألفونسو* المحارب على المسلمين فسيّر حملةً متوغّلًا فيها إلى عمق بلاد الأندلس، حتّى وصل إلى جنوبها وضربَ حصارًا على غرناطة بتحريض من سكّانها المستعربين الذين انضمّ عددٌ كبير منهم لجيشه، ولكنّ تكرارَ محاولاته اقتحام المدينة باء بالفشل، وفي طريق عودته تعقّبه المرابطون وفتكوا بمؤخّرة جيشه، وتفشّى الوباء في صفوف الباقين، فأسرع بالعودة لبلاده، ثمّ طمع في ضمّ بلنسية مستغلًّا

صراع المرابطين مع الموحّدين في المغرب، ولكنّ قوّةً مِن المرابطين بقيادة أبي محمد بن أبي بكر بن سير اللمتوني تصدّت له، ولكنّه انتصر عليها، ورغمَ ذلك فداحةُ خسائره حالتْ دون استكمال مهمّته، وخلال سعْيه للاستيلاء على طرطوشة التي كانت قاعدةً لغارات المرابطين على مملكته، استدرجته قوّةٌ مرابطية إلى كمين فانقضّوا على قوّاته وبعثروها، وفرّ هو بأعجوبة ملتجئًا إلى سرقسطة، ثمّ مات بعدها بعدّة أشهر، وللأسف لم يستغلّ المرابطون هذا النصرَ لاستعادة سرقسطة من الأراغونيين أو طليطلة من القشتاليّين. وها قد وصلْنا لمشارف مراكش، حمدًا لله على سلامة الوصول.

فنظرَ *بلاس* للطّريق بعد أن كان بصرُه معلّقًا بوجْه الشّيخ أنوار الذي شاهدَ من خلال ملامحَه وهو يروي ببراعةٍ تفاصيل الأحداث التاريخية حتّى لكأنّه عايش تلك الأحداث المرويّة والصّراعات فيها؛ بانتصارها وانكسارها، وكأنّه انتقل بالزّمن إلى تلك الفترة من تاريخ الأندلس، فوجد بناياتِ مراكش بدأت تلوح في الآفاق، وشعر براحةٍ نفسيّة، فكان يخشى أنْ يعود إليها قبل أن يحقّق هدفه.

اقتربتِ العربة من المدينة، فاقتحمت طرقاتها الضّيقة، وأوصلت الشيخ أنوار إلى منزل أقاربه، فنزل منها رفقةَ حفيده، وودّعه *بلاس* وداعًا حارًّا وقبّل يدَه كعادة المغاربة عرفانًا بفضله وتقديرًا لتلقينه إيّاه أصول الإسلام وأهمّ تعاليمه، ثمّ توجّهت العربة صوبَ نفس الفندق الذي نزل فيه *بلاس وروبير* قبل انتقالهما لأغمات، وعند وصولهما وجدَا عامل

الاستقبال ينتظرهما بفضولٍ، وعيناه ملؤها الاستفسارات عمّا فعله هذان الأجنبيّان ببلدة أغمات المنسية.

كان *بلاس وروبير* قد اتّفقا على أنْ يمضيا عدّة أيام بمراكش حتّى يتمكّنا من العودة إلى الدّار البيضاء في الميعاد المتّفق عليه مع خليل، فكان قد أعْلمهما بالأيّام التي ستواكب مروره على هذه المدينة طبقًا لالتزامات عملِه ليحدّدَا أيّ يوم منها تناسب إتمامَ رحلتهما، وسعد *بلاس* ببقائه هذه الأيام بمراكش ليتمكّن من زيارة عدّة أماكن بناءً على نصيحة الشيخ أنوار.

الفصلُ الثّالث عشر

عبدٌ العليم

في صباح اليوم التّالي، فضّل *روبير* الاسترخاء في الفندق، أمّا *بلاس* فتوجّه إلى مدرسة بن يوسف الأثرية بناءً على إرشاد صلاح عامل الفندق، وفوْر دخوله لهذه المدرسة تمثّل أمامه جمالُ الإبداع المعماري الذي يمثّل عصر المرابطين، فاقترب من حائط السّاحة الداخلية لهذه المدرسة الأثرية ليمتّع نظرَه بدقّة وإبداعِ تركيبات قطع الزليج الملوّنة التي تشكّل رسومًا هندسية غايةً في الإبداعِ، يعلوها نقوش بآيات من القرآن الكريم مرسومة بخطّ رائع ومنسجم مع محيطه، وبعد أن أخذ جولةً حول حوض الماء الذي يتوسّط هذا الحوش، وأمتع نظره بالمحراب الذي يساعد تصميمُ تجويفه المؤذّنَ على إيصال صوته لأرجاء المكان؛ صعدَ الدّرج ليشاهد فصولَ تحفيظ القرآن في الدّور العلوي، والتي يحدّد شبابيكها الخشب المزين بفنّ الأرابيسك الإسلامي، وعندما آنَ وقت صلاة الظّهر أرشده حارسُ هذا المعْلم التاريخي لمكان مسجد بن يوسف المجاور للمدرسة، فدخله وصلّى جماعةً رفقة عددٍ قليل من المصلين، وبعد التّسليم جلس ليختم الصّلاة كما تعلم في مسجد أغمات فلفت انتباهَه رجلٌ أسمرُ البشرة، يرتدي عمامة زرقاء، يغطي بطرفها فمَه، وجلبابًا أبيض، ينطبقُ عليه صفات وزيّ قبائل الطوارق، وكان *بلاس*- بحكم اطّلاعه وقراءاته وهو في إشبيلية- قد كوّن فكرة إيجابية عن هذه القبائل وعنْ شهامة وشجاعة رجالها، فأراد

أنْ يدير حديثًا مع هذا المصلّي فحيّاه ثمّ ذهب وجلس إلى جواره، فرحّب به هذا الرجل الصحراوي ودار حديثٌ شيّق بينهما، ظهر من خلاله مدى ثقافة هذا الرّجل، الذي كان اسمُه عبد العليم بن مرزوق، والذي حكى *لبلاس* بسلاسةٍ مقرونة باللباقة تاريخَ مدرسة بن يوسف وهذا المسجد الذي بناه نفسُ الأمير المرابطي في وقت مجدِ دولتهم.

فبادرَه *بلاس* سائلًا إيّاه:

– ولكنْ يا سيد عبد العليم إنّي أتساءل، كيف انهارت دولة المرابطين العظيمة هذه رغم أنّها كانت تملك كلّ مقوّمات الاستمرار؟

بمنتهى الثّقة ردّ عبد العليم في الحال قائلًا:

– عنوانُ الإجابة على هذا السؤال هو كتاب إحياء **علوم الديـــــن**.

تعجّب *بلاس*، فاستفسر قائلًا:

– عفوًا!!، لم أفهم.

فقال عبد العليم:

– **غادي نحكي ليك حكاية هاذ الكتاب إلّى كان سباب ضياع مملكة عظيمة وإقامة مملكة أخرى مكانها**، فبعد تولّى علي بن تاشفين حكمَ دولة المرابطين ببضعة أعوام وفي مدينتنا هذه، مراكش الحمراء، جلس رجلٌ منتظرًا إقامة صلاة الجمعة داخل نفس هذا المسجد، ولكن لم يجلس في مكان العامّة؛ بل جلس في الموضع المخصّص لأمير المسلمين وسط تعجّب الجمهور وإعجاب الكثير منهم مِن شجاعته هذه، ولمّا أراد بعض

القائمين على المسجد إبعادَه ردّ عليهم بثبات وقوّة قائلًا: «وأنّ المساجدَ لله»، وأخذ يشرحُها لهم، وعند وصول الأمير للصّلاة قام الحاضرون لتحيّته إلّا هذا الرجل، بقي مكانه ولم يعرْه أيّ اهتمام، ولمّا قضيت الصّلاةُ وقف وحيّاه، وقال له: «غيّر المنكر، وارفع الظّلم ببلادك، فأنتَ المسؤول عن رعيّتك أمام الله»، فلاقي كلامه استحسانًا مِن الحاضرين، أمّا الأمير علي فاعتبره أحدَ الزّهاد أو الدراويش فاستفسرَ إنْ كان له حاجة، فردّ هذا الشّيخ قائلًا: «لست بطالب دنيا، ولا حاجة لي غير أنّي آمر بالمعروف وأنهي عن المنكر»، ثمّ انطلق ليعظَ النّاس بميادين ومساجد المدينة، وبدأ يجذب العامّة لخطبِه التي تحثّ على نبذ الملذّات الدنْيوية، وتحرّض على الطبقة الحاكمة التي تنعم بالتّرف.

فسأله *بلاس*:

- ولكنْ مَن هو هذا الرجلُ الشّجاع الذي يتحدّى المرابطين في عاصمتهم في قمّة مجد دولتهم بهذه الطريقة الجريئة؟

فأجابَه عبد العليم قائلًا:

- كنت أنتظرُ منك هذا السّؤال، إنّه أبو عبد الله محمد بن تمرت، من بلاد السوس، بالتّحديد قبيلة مصمودة، ذهب ليطلب العلم في معاهد المغرب والمشرق فدرسَ في قرطبة والقاهرة، ثمّ ارتحل إلى بغداد ليستمع إلى دروسِ أشهر فلاسفتها أبي حامد الغزالي والذي كان قد ألّف كتاب «إحياء علوم الدين»، فعندما لاحظ هيئة ولهجةَ أبي عبدالله الغريبة

علم أنّه قادمٌ من المغرب الإسلامي فسأله كيف استُقبل كتابُه هناك، فأعلمه أنّه قضي بخروجه عن الدّين، وأنّ «علي بن تاشفين» سلطان المرابطين قد أمر بإحراق نسخِه نزولًا على فتاوى المعاهد الدّينية بقرطبة والقيروان وفاس، فتأثّر الغزالي ودعا على المرابطين قائلًا: «**اللّهم مزّق ملكهم كما مزّقوه**»، فطلب منه عبد الله أن يجعل ذلك على يديه، فقال الغزالي: «**اللّهم اجعله على يدِ هذا الرّجل**»، ومن هذه اللحظة اعتبر أبو عبد الله نفسَه مكلّفًا بأداء رسالة إلهيّة، فعاد إلى المغرب وبدأ ينشر تعاليمَه الجديدة بين سكّانها، وفي أوّل الأمر تجاهل علي بن يوسف نشاطه الدّعوي، ولكن بعد ذلك استدعاه وخاطبه برفقٍ واستفسر منه عمّا يقال إنّه يحرّض العامة على الثورة فأجابه قائلًا: «**ماذا يمكن أن يُقال عنّي!، إلّا أنّي رجل فقير، أطلب الآخرة، ولستُ بطالب دنيا، وليس لي في هذه الدنيا شأن غير شأني، وهو ليس في الواقع من شئون هذه الدنيا**»، فأدهشه جوابه فأمرَ بفقهاء بلاطه لمناظرته في تعاليمه الجديدة، فطال النقاش بين الفريقين، ولكنّ آراء عبد الله أقلقتْ «علي» فأعطى التعليمات بحظر وعْظه، ثمّ نفاه من مراكش بعد تجرّئه على أخته عندما لطمَها، فوقعت من جوادها لمّا وجدها حاسرةً قناعها، فسار عبد الله رفقةَ تلميذه المخلص ووزيره عبد المؤمن لينزلا بمكانٍ منعزل قربَ مراكش، فسكن كوخًا بين القبور فأقبلتْ عليه جموعٌ غفيرة للاستماع لتعاليمه، فتكوّن لديه حشدٌ من ألف وخمسمائة رجل يطيعونه طاعةً عمياء فادّعى أنّه المهدي الذي سيردّ الدين إلى

أصله، وسيحارب الفتن والمحرّمات التي يمارسها المرابطين فذاع صيتُه، وتزايد أعدادُ أنصاره بدرجةٍ أقلقت «علي» فأمر بالقبض عليه وإعدامه؛ ففرّ أبو عبد الله رفقة أتباعه إلى أغمات، ومنها إلى موطنه بتينمل بالمغرب الأقصى، وهكذا بدأت دعوةُ ابن تومرت في عام 515 هجريّة الموافق لعام 1121 من الميلاد، ومن هناك بدأ يعدّ العدّة لمواجهة المرابطين، والإطاحة بدولتهم، فابتكرَ نظامًا جديدًا لنواةِ دولته بأنْ يأخذ البيعة على الطّاعة المطلقة من عشرةٍ من أخلص أتباعه باعتباره الإمام المهدي، ثمّ أتبعهم الكثير من رجال القبائل المجاورة وتسمّوا بالموحدين، ووصل عددُهم إلى زهاءَ عشرين ألفًا، واتّخذوا الرايات البيضاء علمًا لهم بعكس أعلام المرابطين السّوداء، ثمّ تجهّز بجيشٍ لقتال المرابطين، ولمّا بلغ ذلك علي بن يوسف وهو بالأندلس أمرَ بإرسالِ جيشٍ ليتصدى له بقيادة ابنه الأمير أبي بكر، ولكنْ عند التقاء الجمعان دبّ الرّعب في نفوس جيش المرابطين ففرّوا قبل بدء المعركة، ثمّ قدم جيشٌ آخر من المرابطين اشتبكَ مع الموحّدين ولكنّه هُزم بعد قتال دمويّ، فجاء جيشٌ ثالث فتلقّى نفسَ المصير، فقاد أخو علي الأمير المغوار أبو الطاهر تميم الذي اشتهر بمقارعة النصارى بالأندلس جيشًا لقتال الموحّدين، ولكنّ جنده فرّوا في جنح الليل قبل ملاقاة عدوّهم، ثمّ حصّن المهدي مدينة «تينمال» وجعلها قاعدة لمهاجمة مراكش؛ بل طمع في غزوها وتحطيم سلطان علي، ولمّا اشتدّ عليه المرض أوكلَ وزيرَه أبا محمّد البشير لهذه المهمّة، ورغم أنّ القوّة المدافعة عن مراكش كان قوامُها مائة ألف مقاتل إلّا أنّها مُنيت بهزيمة مذلّة على يدِ أربعين ألفًا من جند الموحدين المتعصّبين، فشرعوا في حصار

المدينة، وهنا استجمع المرابطون شجاعتَهم ونشبت معركةٌ انتصروا فيها على الموحّدين وقتلوا قائدَهم أبا محمّد البشير ومعظمَ جنده، ولكن عبد المؤمن بن علي انسحب بمَن بقي منهم لأغمات، ومكّن هذا النصر المرابطين من العودة للاهتمام بشئون الأندلس التي كان *ألفونسو* المحارب الملك الأرجوني قد توغّل فيها حتّى غزا غرناطة مدعومًا من المستعربين، فتمّ تغريبهم إلى إفريقية، وقام علي بإرسال ابنه تاشفين إلى الأندلس على رأس جيش لقتال النصارى، وبقي الموحّدون متحصّنين بقلعتهم بتينمال يعدّون العدّة لمدّة ثلاثة أعوام لمعاودة غزو مراكش، ثمّ أرسل المهدي الذي كان لا يزال يعاني من المرض جيشًا على رأسه عبد المؤمن ليشتبك مع المرابطين الذين كان يقودهم الأمير أبو بكر بن علي، وحسم الموحّدون المعركةَ بعد قتالٍ طاحن دام ثمانية أيّام، ثمّ طاردوا أعداءهم حتّى أبواب مراكش، ثمّ توفي أبو عبد الله محمد بن تومرت بعدها بفترة قليلة، وكان ذلك في 13 رمضان من العام 524 هجريّة والموافق للعام 1130 من الميلاد، فخلفه في قيادة الموحّدين عبد المؤمن بن علي، والذي لقّب نفسَه بأمير المؤمنين، وواصل الانتصارات على المرابطين، فانحازت إليه قبائلُ عديدةٌ، فأخذ نجم المرابطين يأفُل يومًا بعد يوم، ولمّا اشتدّ الضّغط على مراكش استدعى علي بن يوسف ابنَه تاشفين من الأندلس ليعاونه في إدارة المملكة، فعبَرَ إلى المغرب بمعظم قوّاته، ولكنّ الهزائم رافقته في جميع معاركه، ثمّ خلفَ والدَه في الحكم بعد وفاته في السّابع من رجب من العام 537 هجريّة والموافق لـ 25 يناير للعام 1143 ميلاديّة، ولكنّه فضّل أن يعود إلى الأندلس مكلّفًا ابنَه إبراهيم بالدّفاع عن مراكش،

ولكنْ طارده عبدُ المؤمن وهاجمه وهو يركبُ السفينة بوهران، ولّما حاول الهرب ليلًا سقط به فرسُه من حافّة؛ فمات، فاستولى عبد المؤمن على المدينة، وزحف إلى تلمسان وضمّها لمُلكه، فخلف إبراهيم أباه في حكم المرابطين في ظلّ منافسة من عمّه إسحاق بن علي ممّا عجّل بانهيار دولتهم، وواكب ذلك ظهورُ الدّعوة للموحّدين في الأندلس، وواصل عبد المؤمن انتصاراته فاستولى على مدينة فاس ثمّ مكناسة وسلا والرباط، وضرب الحصار حول مراكش مرّة أخرى حتّى سقطت في 18 من شهر شوال للعام الهجري 541 والموافق للعام 1147 من الميلاد، فقبض على الأمير إبراهيم وإسحاق بن علي بن يوسف وقتلَهم مُعلنًا نهاية دولة المرابطين وقيامَ دولة الموحّدين فوق بحرٍ من دماء خصومهم.

فسأل *بلاس*:

- ماذا كان وضعُ الأندلس في ظلّ هذا الصّراع الدامي؟

أجاب عبد العليم قائلًا:

- واكبَ هذه الأحداث اندلاعُ عدّة ثورات على المرابطين في معظم مدن الأندلس مستغلّين سحْبَ معظم قوّاتهم للقتال بالمغرب، وكان سببُ هذه الثّورات إمّا عنصريًّا أو بدافعِ الأطماع الشخصية، ولم يغفلْ عبد المؤمن عن متابعة أحوال الأندلسِ خلال حصاره لمراكش، فقد بلغه ترقّب النّصارى لانهيار قوّة المرابطين أمام هذه الثّورات والحركات الانفصالية واستعدادهم للانقضاض مجدّدًا على أملاك المسلمين، وبعد استيلائه على مراكش أرسل ثلاثةَ جيوش للأندلس نجحتْ في السيطرة

على جنوب البلاد، فدخل السّكان في طاعتهم وخطبوا لأميرهم على المنابر، ولكنْ سَرعان ما ثاروا على حكمهم في عدّة مناطق، فأرسل عبد المؤمن تعزيزاتٍ عسكرية موحّدية بهدف قمع هذه الثورات واستكمال ضمّ باقي الأندلس لدولته، كما استدعى زعماء المدن التي لم تدخل في طاعته لعقد اجتماع معه بمراكش، واحتجزهم عنده حتّى ضمّ أملاكهم لدولته، ثمّ هاجم الموحّدون المرية واستولوا عليها بعد أنْ فشل *ألفونسو* السابع ملك قشتالة وحليفه محمد بن سعد بن مردنيش المولدي الأصل؛ في الدفاع عنها، وكان الأخير يسيطرُ على شرق الأندلس من بلنسية شمالًا حتّى المرية جنوبًا، ولكي يُجابه توسّعَ الموحدين تصادقَ مع الممالك النّصرانية ليحيّد جبهتَها مقابل أن يدفع لهم جزيةً سنوية، والذين كانوا قد استغلّوا صراع الأندلسيّين مع المرابطين فضمّوا ما تبقّى للمسلمين من حصونٍ في الثّغر الأعلى، أمّا ابن مردنيش فاستفاد من انشغال عبد المؤمن في إكمال ضمّ مدن شمال إفريقيا لدولته وهاجم مدنَ الأندلس الخاضعة للموحدين فاستولى على جيان وقرمونة، فأمر عبد المؤمن بتحصين قاعدة جبل طارق وشيّد فيها مدينةً كبيرة سمّاها مدينة الفتح أو جبل الفتح، وأرسل إليها التّعزيزات العسكرية، ولكنّ الموحّدين تلقّوا هزيمة قاسية من ابن مردنيش الذي دخلت قوّاته غرناطة منتصرة، ولكنْ تدارك عبد المؤمن الموقفَ فأرسل ابنه أبا يعقوب على رأس جيشٍ تمكّن من الانتصار والاستحواذ على غرناطة، وأثناء استعداد عبد المؤمن للعبور للأندلس باغتَه المرض فتوفّي في جمادى الآخرة من العام 558 هجريّة والموافق للعام 1163 من الميلاد، بمدينة سلا بالمغرب الأقصى عن عمر ناهز 69

سنة، ودفن بتينمل بعد حكم دامَ 34 سنة عُدّت من أزهى عصور بلاد المغرب والشمال الإفريقي، وبعد وفاته خلفه في الحكم ابنُه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، والذي أرسل جيشًا آخرَ من المغرب للسيطرة على الأندلس، فتوغّلت قوّاته في أراضي ابن مردنيش وانتزعت منه حصونَه؛ الواحد تلو الآخر، ثمّ عبر الخليفة الموحّدي أبو يعقوب إلى الأندلس بقوّات ضخمة، فانضوى الكثيرُ من السائرين تحت لوائه، وفضّل ملوك النّصارى تجنّب الصدام معه، فلمّا وجد ابن مردنيش نفسه وحيدًا جنحَ إلى التفاهم مع الموحّدين، ولكنّه توفي بسبب مرضٍ ألمّ به، فخلفه ابنُه أبو القمر هلال، والذي تصالح مع الموحّدين، وزوّج أختَه زائدة لخليفتهم أبي يعقوب، وبذلك بدأ عهدٌ جديد للأندلس تحت حكم الموحّدين».

هنا، انتهى عبد العليم من سرده للحقبةِ التّاريخية التي قامت فيها دولةٌ ناشئة على أنقاض دولة هرمة ذبلت كخريف شجرة وسقطت، بعدما كانت فتيّة لها صولاتٌ وجولات ومقارعات، أرعبت- يومًا ما- خصومها.

شكرَه بلاس وودّعه، ثمّ غادر المسجد تاركًا إيّاه ليقرأ القرآن الكريم بصوتِه الهادئ، وعاد إلى *روبير* بالفندق ليكمل باقي يومِه برفقته.

الفصلُ الرّابع عشر

المأمونية

غُدوة اليوم التالي، وبعد تناول الفطور المغربي المُعتاد بغرفة الفندق، خرج *بلاس* رفقة *روبير* ليستكشفا صَبيحة مراكش، فأخذا يتجوّلان بين الطّرقات الضيقة للمدينة العتيقة التي تحتفظ بطابعها التاريخي الذي لم يبدّله الزمن، فيشعر المتجوّل بدروبها أنّه يتنقل بين صفحات كتاب تاريخ مجسّم، وأثناء سيرهما لاحظا بناءًا تليدًا يغلفه سقالات خشبية يعتليها بعضُ العمّال الذين يقومون بأعمال ترميم دقيقة، وعلى جانب الطّريق يقف رجلان يرتديان زيًّا وقبعات غربيّة، فاقترب *بلاس* يتبعه *روبير* منهما فلم يستطع أن يحدّد جنسيتهما من ملامحهما التي تميل إلى صفات أهل غرب أوروبا، فبادر بتحيّتهما قائلًا:

- *بوناس دياس*.

فالتفتا إليه بعد أنْ كانا مُمعنيْن في متابعة سير العمل، فقالا:

- *بونجور موسيو*.

تبسّم *بلاس* لهما ثمّ قال:

- إذًا، أنتما من فرنسا.

فأجاب أكبرُهما سنًّا وهو يبتسم:

- *وي*، وأنت إسباني؟

فردّ *بلاس*:

– أنا أندلسيـــــــّ من مالقة، واسمي *بلاس إنفانتي*، وهذا *روبير سيراط* صديقي من كتالونيا.

فقال الرّجل الفرنسي:

– وأنا *هنري بروست* ورفيقي *أنطوان ماركيزيو* معماريّان، نشرف على ترْميم هذا القصر التّاريخي لتجهيزه ليكون فندقًا سياحيًّا رفيعَ المستوى، وذلك لحساب المكتب الوطني للسكك الحديدية.

وهنا، أشار *هنري* للعمّال بأن يتوقّفوا عن العمل، ثمّ قال *لبلاس*:

– على العموم حان الآن وقتُ راحة الغذاء، ما رأيكما أنْ ترافقانا لنأكل معًا؟ فهناك مطعمٌ على ناصية هذا الشارع يقدّم أكلات مغربيّة رائعة المذاق.

فردّ *روبير*:

– *بور سوبويستو*، بالتأكيد.

فأيّد *بلاس* الفكرة، فتوجّهوا صوبَ المطعم، وأثناء سيرهم سأل *بلاس*:

– وما اسمُ هذا المبنى؟ وهل له قيمة تاريخيّة فعلًا؟

فأجابَه *أنطوان* قائلًا:

– *بيان سور*، بالتّأكيد اسمه المأمونية، ويسمّونه هنا بالعامية المامونية نسبة إلى الأمير المأمون الذي صمّم والدُه السلطان محمد بن عبد الله

العلوي حدائقَ القصر وقدّمها له كهدية زفاف، فأطلقَ الأمير عليها اسم «أرسال المأمون»، وفي عام 1887 م، استقبل السّلطان المغربي الحسن الأوّل بعثةً بريطانية في مراكش، فاستضافها في هذا القصر، أمّا الأسوار المحيطة به فتعود إلى حكم الخليفة عبد المؤمن مؤسّس دولة الموحّدين في القرن الثاني عشر.

فقال *بلاس*:

– رائع! ومتى بدأتما تنفيذَ هذا المشروع الهامّ؟

فأجاب *هنري*:

– بدأنا العمل منذُ عام، وسبق ذلك أنْ قمنا بدراسة لتاريخه أثناء وجودِنا بباريس لنتعرّف أكثرَ على دولة الموحّدين، وندرس سماتِ طرازها المعماري لنعيد المُشيّد لشكله الأصلي بمنتهى الدقّة، مع إضافة بعض اللمسات العصرية.

هنا، وصلوا للمطعم الذي كان عبارة عن غرفةٍ كبيرة كأنّها جزء من منزل أحد السّكان، جدرانُها مزيّنة بمصابيح تقليدية ولوحات زيتية مرسومٌ عليها أهمّ معالم المدينة، فجلس الجميعُ على كراسي خشبية تحيط بطاولةٍ مربّعة، ثمّ حضر النّادل الذي كان يرتدي جلبابًا مغربيًّا أنيقًا ويغطّي رأسَه بطربوش من القطيفة الحمراء، فاتّفق الجميعُ على طلب طاجين من الدّجاج وآخر من اللحم، فقال النادل:

– **نصف ساعة وتكون المكلى وجدت.**

فقال *بلاس* *لهنري* واللهفةُ تطلّ من ملامح وجهه:

- إذًا هلّا حدّثتنا عمّا درسته من تاريخ الموحدين الشيق؟

هنا ابتسم *هنري* وخاطب *روبير* قائلًا:

- واضح أنّ صديقك مهتمّ بالتاريخ.

ثمّ وجّه حديثه *لبلاس* مستفسرًا عن سبب وجودهما بمراكش، فعرّفه بلاس بنفسه كسياسي أندلسي يُناضل من أجل استعادة حقوق بلاده التّاريخية، وما يستلزم ذلك من الإلمام بكلّ معالم الحضارات والدّول التي سادتْ هذه البلاد، فأعجب *هنري* بردّ *بلاس* فقال له:

- موسيو *بلاس*، تاريخ الموحّدين الذي اطّلعت على تفاصيله من مراجع جامعة السوربون قبلَ مجيئنا؛ تاريخٌ طويل وزاخرٌ بالأحداث، فأيّ مرحلة تريدني أنْ أحدّثك عنها؟

فأجابه *بلاس*:

- أتمنّى أن تستعرض لي تاريخَهم بعد أن استتبّ الحكم لهم بالمغرب والأندلس خلفًا للمرابطين.

فقال *هنري*:

-*أفيك بليزير*، بكلّ سرور.

ثمّ اعتدل في مجلسه وبدأ يقصّ عليه...

***

بعد أنِ استتبّ الأمرُ للموحدين في الأندلس شرعوا في جهاد الممالك المسيحيّة، ففي عام 1170م والموافق للعام 566 من الهجرة، عبَر الخليفة

الموحدي أبو يعقوب يوسف المضيقَ على رأس جيش قوّامه عشرون ألفَ مقاتل، ونزل في إشبيلية ثمّ فتح حصني بلج والكري شرق الأندلس، ولكنّه فشل في فتح مدينة وبذة القريبة من أقليش، ولمّا حاول المسيحيّون غزوَ الأراضي الإسلامية تصدّى لهم الجيش الموحّدي الذي كان تحت قيادة ابني الخليفة أبي زكريا يحيى وأبي إبراهيم إسماعيل؛ فانتصروا عليهم قرب قلعة رباح، ثمّ شرع الموحّدون في غزو الأراضي القشتالية الحدودية، فجنحت قشتالة للصّلح للتفرّغ لصراعها مع مملكة نبرة، وتقدّمت باتّفاق سلامٍ مع الموحّدين قَبِله الخليفةُ ليتفرّغ لتعمير الثّغور والحصون، ولكن عندما عادَ إلى مراكش نقض *ألفونسو* الثامن الهدنة، وغزا قونقة وأسقطها، وحوّل مسجدها الجامع إلى كنيسة، ثمّ تشجّع ملك أراغون على مهاجمة الأندلس متحالفًا مع ملك قشتالة الذي هاجم قرطبة وإشبيلية وهزمَ الموحّدين في قرمونة، ثمّ استولى على حصني المنار وشنتفيلة الواقع بين المدينتين، وفشل الموحّدون في استعادته مرّة أخرى، ولكنّ قوّاتهم توغّلت في الأراضي القشتالية، ثمّ عادت بعد أنْ حقّقت انتصارًا على أعدائها، ثمّ أضيف إلى الممالك المسيحيّة بالأندلس مملكة البرتغال بعد أنِ انفصلت عن مملكة قشتالة في عهدِ ملكها *ألفونسو* هنريكيز، وأصبحت تهدّد أراضي المسلمين غرب الأندلس، فعاد أبو يعقوب يوسف إلى الأندلس ليستردّ شنترين التي احتلها البرتغاليّون، ولكنّه فشل أمام قوّة تحصينها، وأثناء توجّهه إلى أشبونة أو لشبونة الحالية أمكنَ له البرتغاليّون فهاجموه وهو يعبر نهر التاجة فأصابوه بسهمٍ مسموم تسبّب في وفاته، وإثر هذا الغدر البائس

توفّي ثاني خلفاء الموحّدين، وكان ذلك 18 ربيع الآخر من العام 580 من الهجرة والموافق لـ 29 يوليو من العام 1184 من الميلاد، تاركًا أثريْن رائعيْن شيّدا في عهده، شاهديْن على عظمة دولته حتّى يومنا هذا، أوّلهما هو المسجد الجامع بإشبيلية الذي بقي منه منارة الخيرالدا الشّهيرة بعد تحويله إلى كاتدرائية، وثانيهما هو جامع الكتبية بمدينتنا هذه، مراكش، وكان يرافقه في هذه الغزوة ابنُه أبو يوسف فخلفه في حكم مملكةِ الموحّدين وتلقّب بالمنصور، وبعد أنْ بسط سلطانه على معارضيه واستتبّ له الأمر بالمغرب اتّجه إلى معاودة الجهاد ضدّ ممالك الشّمال المسيحية بالأندلس وليتفرّغ للانتقام من مملكة البرتغال وافقَ على الصّلح مع *ألفونسو* الثامن ملك قشتالة، وبعد أنِ استردّ عدّة حصون من البرتغاليّين اضطرّ إلى العودة إلى المغرب لقمع ثورةٍ اندلعت ضدّ حكمه في تونس، وكعادةِ *ألفونسو* الثامن في نقض عهوده فقد استغلّ غياب أبي يوسف عن الأندلس فهاجمَ أملاكَ المسلمين وتوغّل بقواته يدمّر كلّ شي في طريقه حتّى بلغ جنوبَ البلاد، فعاد أبو يوسف على رأس جيش ضخم نزل به في إشبيلية ليعدّ العدّة لتأديب عدوّه معتزمًا غزوَ قشتالةً وتحرير طليطلة؛ فأسرع *ألفونسو* الثامن للخروج إليه بجيش تعدّى مائة ألف مقاتل، واشتبك الجيشان في الثامن عشر من تموز لعام 1195 ميلاديّة، الموافق للتاسع من شعبان لعام 591 هجريّة، بالقرب من قلعة الأرك القشتالية الواقعة بين قرطبة وقلعة رباح، ورجحت كافّة القوات القشتالية في بداية المعركة بعد أن دمّروا قلب جيش الموحّدين، ولكن ميمنة المسلمين غيّرت سيْرَ المعركة عندما هاجمت قلبَ الجيش القشتالي

ثمّ باغت الخليفة بقواته الاحتياطية الجنود القشتاليّين فتقهقر *ألفونسو* بفرسانه للاحتماء بقلعة الأرك فطارده الموحّدون فهرب منهم صوب طليطلة التي هاجمها الموحّدون ظافرين بنصرٍ عظيم على عدوّهم، ثمّ عقبه تقدم يوسف لغزو قشتالة مستغلًّا الصّراعات التي نشبت بينها وبين مملكة ليون ونبره، ففتح حصن منتانجش ثمّ قاعدة ترجالة بالثّغر الشّمالي ولازنسيا وعسقلونة ولكنّه عجز عن فتح طليلطة لافتقاره آلات الحصار، ثمّ اقتحم مدينة سلمنقة ووادي الحجارة فتحالف معه *ألفونسو* التّاسع ملك ليون بهدف استردادِ بعض المدن والقلاع الواقعة بين المملكتيْن المسيحيتيْن، ممّا أغضبَ بابا الفاتيكان *سلستين* الثالث فعاقبَه بقرارِ النّفي الكنسي، وكلّف ملك البرتغال لقتاله، وبعد ثلاثة أشهر من الغزو عاد أبو يوسف المنصور إلى إشبيلية ثمّ تجهّز لغزوة أخرى ضدّ قشتالة، فتوجّه صوب طلبيرة التي استعصتْ عليه مثلَها مثل مكادة، فزحف على طليطلة، ثمّ تركها ليهاجم قلعة هنراس ووادي الحجارة، ثمّ حاصر قونقة وهاجم أقليش والكرس وبياسة، ثمّ عاد إلى قرطبة وقبلَ طلبَ الصّلح مع *ألفونسو* الثامن بعد أن رفضَه عدّة مرّات؛ وذلك ليعود إلى مراكش ويتفرّغ لقمع ثورة علي بن إسحاق الملثّم الميورقي في إفريقيا، وبعد أن تمّ له ذلك عيّن ابنه محمد وليًّا للعهد وأخذَ له البيعة من الولاة والقادة، وأشركه في إدارة المملكة، ثمّ توفّاه الله بعد ذلك بقليلٍ وهو في الأربعين من العمر، وذلك عام 1199 من الميلاد والموافق للعامٍ 595 هجريّة، فتولّى حكمَ دولة الموحّدين محمد الذي تلقّب بالناصر، وبعد أن أخمدَ الثّورات التي أشعلها فلول المرابطين بالجزائر الشرقية، توجّه

باهتمامه إلى الأندلس التي اتّحدت الممالك المسيحية بشمالها بعد تفرّقهم وتنازعهم ليواجهوا تهديد دولته القويّة لهم، وعندما لم يجدّد *ألفونسو* الثامن معاهدةَ السّلام مع الموحدين، وبعد قيامه بعدّة هجمات على أراضي المسلمين؛ أعلن محمد الناصر الجهادَ، وعبَرَ المضيق على رأس جيش كبير، وتوجّه إلى إشبيلية التي كان الموحّدون يتّخذونها عاصمةً لهم بالأندلس، ثمّ زحف في اتجاه مملكة قشتالة عازمًا القضاء عليها ففتحَ في طريقه قلعة شلطبرة، ولكنّه اضطرّ للعودة إلى إشبيلية لدخول فصل الشتاء، وفتح في طريق عودته حصنَ بلج، فكان ردُّ فعل *ألفونسو* الثامن أن أطلق صرختَه الشّهيرة «كلّنا صليبيّون»؛ فتحالف مع الممالك المسيحية الأخرى، وأرسل يستغيث ببابا روما، ويستحثّ الممالك الأوروبّية لدعمه لمواجهة تهديد الموحّدين الذين يتفوّقون على قدرات مملكته منفردة، فكان له ما أراد، فتوافد على طليطلة المقاتلون والمساعداتُ الحربية من الممالك المسيحية بشمال الأندلس، ومن فرنسا وإيطاليا، حتّى وصل تعدادُ الجيش الصليبي لأكثر من مائتي ألف محارب، كما دعا البابا *أنوسنت* الثّالث للصّوم ثلاثة أيّام طالبًا النصر لهذا الجيش، وارتدى الرّهبان والرّاهباتُ ورجالُ الدين السوادَ، وساروا حفاةً في مواكب بين الكنائس، ثمّ خرجت الجحافلُ الصليبية مخترقة أراضي المسلمين فاستولتْ على حصن بلاغون، وحاصرت قلعة رباح فسلّمته لهم حاميته مقابلَ مغادرته بأمان، فأراد الصليبيّون القادمون من أوروبا الانقضاضَ على المنسحبين فقوبلوا بالرّفض من *ألفونسو* الثامن وحلفائه، وبتهديدهم بالتصدّي لهم، كما حدث خلافٌ حول تفريق الغنائم فترتّب على ذلك

انسحابُ المقاتلين القادمين من أوروبا متحجّجين بعدم اعتيادهم على مناخ الأندلس الحارّ، وأكمل الجيش الصليبي زحفه فعبَر جبالَ الشّارات الذي عبَر ممرّاته من الجهة الأخرى جيشُ الموحدين لملاقاتهم، والتقى الجيشان بالقرب من حصن أمويّ قديم اسمه العقاب، والذي تسمّت به هذه المعركة الفاصلة، وكاد النصرُ يكونُ حليفَ الموحّدين، فبعد أنْ هاجم المتطوعون المشكّلون لمقدّمة الجيش الموحدي صفوفَ الصليبيّين تمّ محاصرتهم وقُتلوا جميعًا ممّا شجّع الصليبيّين على مهاجمة قلبِ جيش الموحدين الذين نجحَ في التصدّي لهم وردّهم وحسمَ المعركة لوْلَا تدخّلَ *ألفونسو* الثامن وحلفائه حين انقضّوا على جناحي الجيش الموحدي وفتكوا بهما، ثمّ حاصروا القلب، وبعثروا أفراده ليظفروا بالنّصر، ولمّا شاهد محمد الناصر هزيمةَ جيشه، وبلغَه مقتلُ ابنه وهو يقاتل جلسَ في خيمته ينتظر الموت، غير أنّ أحدَ الإعراب توسّل إليه أنْ ينجو بنفسه فغادر أرضَ المعركة عائدًا إلى إشبيلية، أتاح هذا النّصر *لألفونسو* الثامن أن يتقدّم داخل الأراضي الإسلامية دونَ أيّ مقاومة، فاحتلّ حصن فرال وبلج وبانيوس وتلوزا، ثمّ دخل مدينتي بياسة وأبدة بعد أن فرّ من الأولى سكانها، وبقي فيها مرضى وجرحى معركةِ العقاب مُحتمين بمسجد المدينة الجامع، فأمر *ألفونسو* جنودَه بقتلهم بمنتهى الوحشيّة، أمّا المدينة الثّانية فغدر بأهلها بعد أن أمّنهم على حياتهم وحريّتهم الدينية، فترك جنوده يقتلونهم بناءً على طلب رجال الدين المتعصّبين المرافقين لحملته، ففتكوا بستّين ألفًا من سكان المدينة، وبعد وفاةِ ألفوسنو الثامن ووفاة ابنه آلَ الملكُ لابنته *برنجيلا*، والتي تنازلت عن العرش لصالح

ابنها *فرديناند* ابن *ألفونسو* التّاسع ملك ليون، والذي عندما توفّي ورث ملكَه ابنتاه سانشا ودولشا اللتيْن تنازلتا هما أيضًا عن العرش لأخيهما، لتتّحد مملكتا قشتالة وليون ومعهما استرامادورة وأشتوريس وجيليقية تحتَ حكم *فرديناند* الثّالث الذي عُرف بالقديس، أمّا محمد الناصر فعاد إلى المغرب واحتجبَ في قصره في مراكش زاهدًا في الحكم، فعيّن ابنه أبا يعقوب يوسف الذي كان في السّادسة عشرة من العمر؛ وليًّا لعهده، ثمّ ألمّ بمحمد مرضٌ تسبّب في وفاته، وكان ذلك في عام 1213م والموافق للعام 610 هجريّة، لتبدأ نهاية دولة الموحّدين عندما آلَ الملك لأبي يعقوب يوسف، والذي تلقّب بالمستنصر، ولم يكن صغرُ سنّه يؤهّله لهذه المهمّة في تلك الفترة الدقيقة فمالَ لحياة الاستمتاع تاركًا إدارة شئون الدّولة لأعمامه الطّامعين في الملك، ووزرائه غير الأمناء، ولم يعتمد على الأندلسيّين فتوزّعت إدارةُ بلادهم على ثلاثةٍ من أعمامه، ثمّ توفّي في حادثة حينما كان يلهو مع أبقاره فطعنته إحداهما بقرْنها في موضع قلبِه، فاستغلّ حكّام الولايات من أقاربه ذلك في السعي وراء تحقيق أطماعهم، وعيّن أشياخ الموحدين أبا محمد عبد العزيز ابن أبي يعقوب يوسف خليفةً مؤقّتًا لحين الاتّفاق على خليفة دائم، فسرعان ما ثارَ عليه ابنُ أخيه ووالي مرسية عبد الله معلنًا نفسَه أميرًا، ومتّخذًا لقب العادل فأيّده أخوه ووالي قرطبة أبو العلاء إدريس، ثمّ دخلت في طاعته غرناطة ومالقة، ثمّ ثار مؤيّدوه على عبد العزيز فخلعوه ثمّ قتلوه بمراكش التي توجّه إليها العادل ليستلم الحكم بعد أن تحالف مع ملك قشتالة حتّى يحافظَ على حكم الأندلس التي ترك على إدارتها أخاه أبا العلاء إدريس الذي انقلب

على أخيه بمراكش ودعا لنفسه بالخلافة من إشبيلية وتلقّب بالمأمون فبويِعَ من بعض ولاة الأندلس، ثمّ سبتة وطنجة بالمغرب، فانحاز إليه أشياخُ الموحّدين فاقتحموا قصرَ أخيه وقتلوه، ثمّ أعطوه البيعة ولكنّهم خلعوه بعد ذلك مستغلّين وجودَه بالأندلس عندما أجرى إصلاحات تُحدّ من صلاحياتهم، وعيّنوا مكانه ابن أخيه الفتى ذا السّادسة عشر عامًا، محمد الناصر، والذي تلقّب بالمعتصم، ولكنّ المأمون عبر إلى المغرب ليستعيدَ عرشه على رأس جيش كبير فقضى على خصومه وأكمل تغيّراته في نظام إدارة دولة الموحّدين مُبطلًا بعضَ ثوابتهم مثل عصمة المهدي، فنهى عن الدّعاء له في خطبة الجمعة، فكفّره العامّة، وترتّب على ذلك أنِ انفصلت إفريقيا ومعظمُ مدن الأندلس عن دولة الموحدين واعترفت بحكم محمد بن يوسف المنتسب لأسرة بني هود عندما أعلن نفسَه أميرًا وتسمّى بالمتوكّل على الله، فلجأ المأمون للقشتاليّين الذين أمدّوه بجيش من المرتزقة في مقابل أن يترك لملكهم بعضَ الحصون والكثيرَ من المال، ورغم ذلك لم يغْنِه هذا الدّعمُ عن فقد سيطرته على المدن والمقاطعات تباعًا، وأثناء محاولته إخضاع سبتة التي يسيطر عليها أخوه أبي موسى اقتحمَ منافسه يحيى المعتصم مراكش، وتوفّي المأمون في طريق عودته لاستعادة عاصمته، فخلفه ابنُه عبد الواحد الرشيد وهو في الرّابعة عشرة من عمره فدامَ الصّراع بينه وبين ابن عمّه المعتصم حتّى توفّي الأخير وتبعه الأوّلُ بعد سبعة أعوام، فانتقل الملك لأخيه السّعيد أبي الحسن علي الذي اتّخذ لقب المعتضد، والذي قُتل وهو يقاتل بني زيان الذين كانوا- هُم وبنو مرين- ينازعون الموحّدين على سيادة

المغرب، ولمّا آل الملكُ للسّعيد عمر بن أبي إبراهيم إسحاق والذي تلقّب بالمرتضى، وكان من أحفاد أبي يعقوب يوسف؛ سعى في النهوض بالدّولة ومقاومة سقوطها، ولكنْ بعد فوات الأوان؛ حيث كانت مدنُ الأندلس تسقط تباعًا في يد القوى المسيحية، في الوقت الذي تمكّن فيه محمد بن الأحمر حاكمُ غرناطة من السيطرة على جنوب الأندلس، أمّا المغرب فقد ورثه المرينيّون بعد أن تمّ القضاءُ على دولة الموحدين.

***

وهنا، بدأ النادلُ في إنزال الطّعام على الطاولة، فانهمكَ الجميعُ في تناوله مع بعض تعليقات الثّناء على حُسن مذاقه، وبعد أنْ فرغوا من وجبتهم اقترح *أنطوان* احتساءَ الشّاي المغربي الذي يساعد على هضم وجبتهم الدّسمة، فأيّده الجميع، ومع تناولهم أكوابَ الشّاي الساخنة تبادلوا أحاديث مرحة، وقبل أن يغادر كلّ إلى شأنه لم ينسَ *بلاس* أن يشكرَ هنري على محاضرتِه التّاريخية الممتعة متمنّيًا له ولرفيقه التوفيقَ في عملهم، فتمنّوا له بالمقابل رحلةَ عودةٍ موفّقة للأندلس.

الفصلُ الخامسّ عشر

المملكةُ الأسطوريّة

عادَ *بلاس* و*روبير* للفندقِ ليستريحا، ثمّ خرجا في المساء وجلسا بمقهى اسمُه «شهرزاد» يطلّ على أحد زوايا ساحة الفنا، وبعد أن تحدّثا عن مسير رحلة العودة، ثمّ علّقا على لقائهما بالمعماريّيْن الفرنسيّيْن، بادر *روبير* بسؤال *بلاس* قائلًا:

– بما أنّك يا دون *بلاس*، كما أخبرتني سابقًا، قد أقمتَ بغرناطة فترة دراستك الجامعية، فأتوقّع أنّك بحُكم اهتمامك بالتّاريخ قد اطّلعت على سيرة هذه المدينة البديعة، فكنت أريدُ أن أعرف منك كيف قامتْ مملكتُها بعد انهيار سلطان الموحّدين بالأندلس؟

فأجابه *بلاس*:

– بالطّبع يا صديقي، فوجودي بتلك المدينة الرّائعة أتاح لي الاطّلاع على تاريخها الجذّاب، وتعرّفت عليه بتعمّق أكبر عندما زاد اهتمامي بالحضارة الإسلامية بالأندلس أثناء إقامتي بإشبيلية، فتاريخُ غرناطة ممتعٌ في دراسته، فتشعر بأنّه أسطوري رغم أنّه حدثَ بالفعل، فدعني أجيبك على سؤالك باستفاضة...

فأثناء تهاوي سلطان الموحّدين واندلاع الثورات في أنحاء الأندلس كان *ألفونسو* التاسع ملك ليون يستولي على قاصرش وحصن منتانجش

بشمال ماردة، والتي احتلّها هي وبطليوس بعد فشل محمد المتوكل بن هود في الدّفاع عنهما عندما كان يسيطر على الأراضي الممتدّة بين مالقة والمرية وغرناطة وقرطبة إلى مرسية، أمّا أرجونة ووادي آش وبياسة وجيان فكانت تحت سيطرة أبي عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس النصري والذي عرف بابن الأحمر بسبب نضارة وجهه واحمرار شعْره، في الوقت الذي حكم ولاة الموحّدين إشبيلية وما أحاطها من أراضي، وعندما خشي فرديناند الثالث ملك قشتالة من اتحاد مدن الأندلس تحت حُكم محمد المتوكل بادر بمهاجمته وتوغّل بقوّاته في أراضيه، ولكنّه عاد ليرث ملك أبيه *ألفونسو* التاسع ليوحّد ليون وقشتالة في مملكةٍ واحدة، ثمّ عاود إرسال الحملات على أملاك محمد المتوكل حتّى نجحَ في انتزاع مدينة أبدة منه بعدَ محاصرتها سبعة أشهر، واعتبر المتوكّل ابن الأحمر منافسًا له على سيادة مدنِ الأندلس المسلمة، ولكنْ عندما واجهه قرب إشبيلية هُزم أمامه، ولكنْ أمام خطر *فرديناند* الثالث قرّر الزعيمان المسلمان التصالحَ؛ فدخل محمد بن الأحمر في طاعة محمد المتوكل في مقابل أن يترك له حكم جيان وأرجونة وبركونة بنواحيها، ولإفشال هذا التحالف قام *فرديناند* الثالث بمهاجمة أراضي محمد الأحمر بجيان بالتّزامن مع توقيع معاهدة صلح مع محمد المتوكل لمدّة ثلاثة أعوام تتضمّن أن يتنازل له الأخير عن عدّة حصون، وأن يدفع له جزية، وفي أواخر عام 633 من الهجرة؛ تحديدًا في 23 شوال والموافق لـ 29 يونيو من العام 1236 من الميلاد تحرّك جانبٌ من الجيش القشتالي الذي احتلّ أبدة صوب منطقة أندوجر بشرق قرطبة فبلغهم ما حلّ بالأخيرة من

ضعفٍ ووَهَن وإهمال فتحرّكوا للاستيلاء عليها، وعندما بلغوها ليلًا أخبرهم بعضُ الخونة مواطنَ الضّعف في تحصيناتها فأحدثوا ثقبًا في سور المدينة الشّرقي، ثمّ اندفعوا من خلاله مُحدثين مذبحةً في كلّ مَن قابلهم من السكان، ثمّ تحصّن المهاجمون في أبراج المدينة ملتمسين المددَ الذي وصلهم من قشتالة، ولمّا وصلت استغاثة أهل المدينة لمحمد المتوكل تحرّك في الحال على رأس جيشٍ مكوّن من خمسة وثلاثين ألف مقاتل، ولكنّه تخاذل عن نجْدةِ قرطبة عندما علم بزحف *فرديناند* الثالث نحوها رغمَ تفوّقه عليه عسكريًّا، وطمع في ضمّ بلنسية لملكه عندما استنجد به صاحبُها أبو جميل زيان واعدًا إيّاه بأن يدخل في طاعته بعدما هاجمته القوّات الأراغونية، وبعد ضرب حصار محكّم حول قرطبة يئس سكّانُها من الصّمود في ظلّ نقص الأقْوات؛ فسلّموا المدينة مقابلَ الأمان على حياتهم فتركوا ممتلكاتهم وغادروها صوبَ المدن المسلمة المجاورة، ودخلها *فرديناند* بعد أن تمّ تحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة، ذاك المسجد الجامع الذي كان منارةً للعلم ومنبرًا للعلماء، ذاك الجامع الذي كان قبلةً لطلّاب العلم من جميع أصقاع الأرض، والذي كان مفخرةَ قرطبة وزينتها، ورمزًا لعظمة الاندلس؛ للدّور العلمي الكبير الذي لعبه في نشر العلوم في تلك الفترة، وهكذا سقطت قرطبة... قرطبة الغرّاء.. عاصمة الخلافة الأموية والأندلس، قرطبة حاضرةُ الدنيا ومجمعُ الأضداد، المبتدى والمنتهى، قاعدة الأمراء والخلفاء، وحانة الفسّاق والزعار، سلّم الصعود إلى القمة، ومنحدر السّقوط إلى الجحيم.. قرطبة المغوية هكذا قال عنها المسلمون آن ذاك، وبسقوطها المفْجع هذا انتهى فيها الحكم الإسلامي الذي دام

525 عامًا، فخضعت المدن والحصون التابعة لها للسّلطة القشتالية، وأثناء مغادرة محمد المتوكل بقوّاته منطقة قرطبة قاصدًا بلنسية مرّ على المرية لينقل منها قواته عبر السفن فرحّب به حاكمُها ثمّ غدر به وقتله، وبوفاة محمد المتوكل انهارت دولتُه، فآل معظمُ أملاكه إلى محمد بن الأحمر الذي حاز على غرناطة التي نقل عاصمةَ مملكته من جيان إليها، والتي شملت أيضًا المرية ومالقة، أمّا مرسية وما حولها فبقيتْ تحت حكم أخي محمد المتوكل علي بن يوسف الملقّب بعضد الدولة، والمتغلب على ابنه أبي بكر محمد بن محمد المتوكل الملقّب بالواثق، أمّا إشبيلية وشريش ومدنُ غرب الأندلس فتراوحت بين الاستقلال أو التّبعية لدولة الموحّدين المنهارة.

فاستفسرَ *روبير*:

– وكيف أصبحت غرناطة المملكة الإسلامية الوحيدة في شبه جزيرة أيبيريا؟ كيف حدث ذلك؟

فأجابه *بلاس* قائلًا:

– حدثَ ذلك عندما استطاعت هذه المملكةُ الاستمرارَ عندما سقطت باقي المدن تباعًا، فاستطاع جايم الأوّل ملك أراغون قيادة حملة تحت شارة الصّليب مكوّنة من جيش كبير، حملته مائة وخمسون سفينة عملاقة، والكثيرُ من الزّوارق الصغيرة ليغزو جزر البليار التي يسمّيها العرب الجزائر الشرقية، والتي كان أبو جميل زيان قد انتزعها هي وبلنسية من الموحّدين، فأخضع جايم الأوّل جزيرة ميورقة ثمّ جزيرة منورقة ثمّ

سقطت جزيرة يابسة في حوزته ثمّ طمعَ في ضمّ بلنسية؛ فقاد حملةً صليبية مستعينًا بالبابا جريجوري التّاسع، ومدعومًا بفرسان إنجلترا وفرنسا، ووالي بلنسية السابق أبي زيد محمد المنصور؛ فأسقط حصون المدينة الأمامية ليجرّدها من حمايتها، ثمّ ضرب عليها حصارًا محكمًا، ومنع أسطوله الأراغوني وصول الدّعم للمدينة القادم عن طريق الأسطول الحفصي المبحر من تونس تلبيةً لاستغاثة أبي جميل زيان، والذي اضطرّ لتسليم المدينة بعد ضمان السّلامة لسكّانها، فغادرها قرابة خمسين ألفَ مسلم، وخرج منها أبو جميل زيان قاصدًا جزيرة شقر، ولمّا هاجمها جاين الأوّل بحجّة عدم ذكرها في اتّفاق الهدنة تركها أبو جميل زيان وتوجّه إلى دانية ثمّ استولى على مرسية ودخلت معظمُ قواعد شرق الأندلس في طاعته، فأعلن تبعيته للأمير الحفصي أبي زكريا بتونس، فثار عليه محمد بن هود مدعومًا من سكّان مرسية، وهو أحدُ أبناء عمومة محمد المتوكل والذي انتزع الملكَ لنفسه وتلقّب ببهاء الدولة، فتوجّه أبو جميل زيان إلى لقنت، ولمّا استولى عليها الأراغونيّون رحل إلى تونس وبقيَ بها إلى أن وافته المنيّة هناك، وأكمل الملك الأراغوني فتوحاتِه فاستولى على الأراضي الواقعة على الضّفة اليمني لنهر شقر، وأسقط حصونَ المنطقة الهامّة كحصن دانية، واحتلّ شاطبة وطردَ أهلها المسلمين منها، فالتجأوا إلى غرناطة، وأمام الخطر الأراغوني واستيلائهم على مدن الشّرق قرّر سكّان مرسية التفاهم مع ملك قشتالة، والدّخول في طاعته ودفع الجزية له مع السماح له بتمركز قوّاته داخل مدينتهم مقابلَ إبقائهم على حكمها، أمّا المدنُ التي لم تدخلْ في هذه المعاهدة فتمّ غزوها من قبل القشتاليّين، وبعد

وفاة محمد بن هود خلفَه في حكم مرسية تحت طاعة ملك قشتالة ابنُه أبو جعفر أحمد حتّى انتزع الحكم منه الواثقُ أبو بكر محمد بن المتوكل والذي رفض حماية ملك قشتالة ودخل في طاعة ابن الأحمر حاكم غرناطة ليتجنّب غزو الأرغوانيّين لبلاده، ولكنّها سقطت عندما ثار أهَلُها على القشتاليين فتحالف ملكُهم *ألفونسو* العاشر ابنُ *فرديناند* الثالث مع جايم الأول ملك أراغون الذي كان قد تزوّج ابنته، فهاجم الأخير مرسية واحتلّها ودعا النّصارى للهجرة إليها، مع السّماح للمسلمين بالبقاء فيها، وأثناء غزو الأراغونيّين لمدن وحصون شرق الأندلس وقبل وفاةِ الملك القشتالي *فرديناند* الثّالث كان قد استطاع أنْ يغزو وسط الأندلس ويستولي على أرجونة منتصرًا على محمد بن الأحمر الذي أجبر على عقد معاهدة معه تقضي بأنْ يخضع لسيادته ويقدّم إليه فروضَ الطّاعة، ويسلّمه مدينة جيان وما حولها، وأن يحكم مملكةَ غرناطة كتابع له في السلم والحرب، ويُسْتَدعَى لحضور مجلسِه النّيابي وحفلات بلاطهً الملكية، بالإضافة إلى دفع جزية تقدّر بخمسين ألف مثقالٍ من الذهب يقدّمها له سنويًّا، وعلى أثر هذه الاتفاقيات والمعاهدات المذلّة تنازل له عن أرجونة وبركونة ووادي الحجارة والفرنتيرة، وبعد أن ضمن ملك قشتالة تبعية وولاءَ مملكة غرناطة الناشئة؛ طمعَ في احتلال إشبيلية التي كانت عاصمةَ الموحّدين بالأندلس، وأضحت في طاعة الحفصيين في تونس، ولكن استغلّ *فرديناند* الثّالث نشوب نزاعات داخلية بالمدينة آلت إلى مقتل حليفِه حاكم المدينة الفعليّ القاضي أبي عمرو بن الجد ليبدأ غزوَه لها، فبدأ بتجريد المدينة من حصونها الأماميّة، وذلك بالتّعاون مع

تابعه محمد بن الأحمر الذي أقنع قادةَ عدّة حصون بالاستسلام، ثمّ أتبع ذلك محاصرة المدينة التي اشترك فيه محمد بن الأحمر بجانب القوّات القشتالية، وأمام شحّ موارد المدينة وعجزِ الموحّدين عن نجدتها بسبب احتدام صراعهم مع المرينيّين والحفصيّين في المغرب؛ استسلمت المدينة فدخلَها *فرديناند* الثالث منتصرًا، وكان ذلك في 5 رمضان عام 646 هجريّة والموافق لـ 22 ديسمبر للعام 1248 ميلاديّة، فتحوّل مسجدها الجامع إلى كاتدرائية، ومئذنته إلى منارة الخيرالدا الشّهيرة، ورفع العلم القشتالي فوق برج القصر معلنًا نهاية السيادة الإسلامية على هذه المدينة التى دامت خمسةَ قرون وثلث القرن، وأعقبَ ذلك استيلاء *فرديناند* الثالث- الذي لقّب بالفاتح- على جميع المدن الواقعة على مصبّ نهر الوادي الكبير ومنطقة وادي لكة، أمّا غرب الأندلس فكان فريسة مملكة البرتغال التي تعاقب عليها ثلاثةُ ملوك تمكّنوا من إنهاء السيادة الإسلامية بها، فاستطاع *ألفونسو* الثاني مدعومًا بقوّة صليبية ألمانية كانت في طريقها لفلسطين من الاستيلاءِ على قصر أبي دانس بعد انتصاره على جيش موحّدي ضخم حُشد من قرطبة وجيان وإشبيلية لإنقاذ المدينة، وأكملَ مِن بعده ابنُه وخليفته شانجة الثاني توسيعَ حدود مملكته جنوبًا فاستولى على إلفاس ثمّ الحصون الواقعة على ضفّة وادي آنة، ثمّ ميرتلة وشلب وثغر طبرية، وبعد خلعه بقرار باباوي تولّى أخوه *ألفونسو* الثالث الحكمَ فاستكمل الفتوحات مستغلًّا سقوط إشبيلية الذي أضعفَ عزيمة المسلمين في باقي المناطق، وانهيار دولة الموحدين، وتبعيّة ملك غرناطة لقشتالة فاستولى على قلعة فارد الواقعة بين شلب وطبرية، ثمّ احتلّ

المدن المجاورة حتّى حاز على كلّ أراضي ولاية غرب الأندلس عام 647 هجريّة الموافق 1250 ميلاديّة، وبذلك بقيت مملكة غرناطة وريثة التّركة الأندلسية ومستودعًا لهذه الحضارة العظيمة في مواجهة الأطماع الصّليبية المحيطة بها لمدّة مائتين وخمسين عامًا.

سكتَ *بلاس* قليلًا، ثمّ قال:

– طبعًا للقصّة بقيّة يا صديقي، أمّا الآن فدعنا ننهض؛ أريد أن ألقي نظرةً على حانوت الأقمشة هذا، ربّما أبتاع منه شيئًا لزوجتي العزيزة، أو.... ربّما أجد فيه ضالتي!

فقام *روبير* وهو ينفضُ من على جسده الكسل، وقال:

– سي، فاموس، هيّا بنا.

وعند باب الحانوت، وقف الرّفيقان، وحيّا *بلاس* تاجرَ الأقمشة الخمسيني، ثمّ قال له:

– أريد أفضلَ قماش من الحرير الطّبيعي عندك.

فأجابَ التّاجر:

– **عندنا أقمشة مزيانة بزاف مغديش تلقى بحالها في مراكش باكملها، واش من لون كتبغي سيدي؟**

فأشار *بلاس* إلى قطعةٍ معروضة قائلًا:

– أريدُ من هذا القماش الأخضر، وأريد نفس هذه الخامة من اللون الأبيض.

فهمّ التاجرُ ليحضر له طلبه وهو يقول:

- واخا مزيان تبارك الله على الاختيار ديالك بحيث هاذ الخامة مزيانة بزاف وتفضّل الأبيض منها.

ففحصها *بلاس*، ثمّ قال:

- هذا ما كنتُ أريد، هل يوجد منه الأحمر؟

فأجاب التّاجر:

- واخا سيدي موجود في المخزن غادي نجيب ليك من هذا النوع.

فقال *بلاس*:

- لا عليك، ربّما يأتي الوقت لأحتاجه ولكن ليس الآن، ربّما أشتريه في زيارةٍ أخرى إن أراد الله.

وبعد أنِ استلم *بلاس* الأقمشةَ الخضراء والبيضاء طبقًا للمقاسات التي طلبَها من التّاجر خرج من الحانوت وهو مبتهجٌ كالطفل الذي اشترى لعبةً كان يتمنّاها منذ وقت طويل.

وبفضولٍ سأله *روبير*:

- ما حاجتُك بهذه الأقمشة الحريرية؟

فأجابَه *بلاس*:

- من أجل صنع رايةِ الأندلس، تستحقّ أن تكون من حرير مراكش.

ثمّ توجّه الرّفيقان إلى المطْعم المغربي الذي يتوسّط ساحة الفنا؛ لتناول وجبة العشاء المحبّبة إليهما.

وبعدها اقترحَ *بلاس* على *روبير* السّيرَ إلى ساحة مسجد الكتبية ليشتري بعضَ المخطوطات العربية ليزيّن بها مكتبه في الأندلس، فوافقه *روبير* والذي أثناء سيْرهما قال له:

- إذًا، حدّثني باستفاضة أكثر عن مملكةِ غرناطة؛ فإنّي متشوّق لأعرف المزيد عنها.

فقال *بلاس*:

- سي مي أميجو، طبعًا يا صديقي...

كانت غرناطة قبلَ الفتح الإسلامي مدينةً صغيرة تقعُ قرب مدينة إلبيرة، وبمرور الزمن حلّت غرناطة محلّها، وبعد سقوط الدولة الأمويّة بالأندلس أصبحت غرناطة إحدى إماراتِ الطّوائف، ثمّ حاضرة مملكتها، وتقع هذه المدينة البديعة على وادي نهر شنيل أحدِ فروع نهرالوادي الكبير، ولمّا قامت مملكة غرناطة أيّام بني الأحمر ضمّت الطّرف الجنوبي من الأندلس الواقع من جنوب نهر الوادي الكبير إلى ساحل البحر المتوسط حيث الجزيرة الخضراء وجبل طارق، وامتدّت شرقًا حتّى لورقة في ولاية مرسية، وشمالًا حتّى قلعة يحصب في ولاية جيان إلى شذونة في ولاية قادس غربًا، وشملت المملكة ثلاثَ ولايات كبيرة هم: ولاية غرناطة في الوسط وبها العاصمة غرناطة وولاية المرية في الشّرق وولاية مالقة في الجنوب والغرب، واتّخذ بنو الأحمر جملة «ولا غالب إلّا الله» شعارًا لمملكتهم.

فسأله روبير:

- وماذا عن ابن الأحمر مؤسّس هذه المملكة؟

أجابه بلاس قائلًا:

- ولد محمد بن يوسف ابن الأحمر في عام 595 للهجرة، والموافق للعام 1198 من الميلاد، بمدينة أرجونة، وهي حصنٌ من حصون قرطبة، ويعود نسبه إلى الصّحابي الجليل سعد بن عبادة الأنصاري، وكان جنديًّا شجاعًا مقدامًا، ودعا إلى لَمِّ شمل المسلمين وقتَ تناحرهم وتنافسهم في ظلّ انهيار دولة الموحدين، وعندما تشتّتت المدنُ الأندلسية وانقسمت؛ أعلن محمد ابن الأحمر نفسَه سلطانًا في أرجونة، واستولى بعدها على المناطق والمدن في جنوب الأندلس، خاصّة بعد وفاة ابن هود، فاجتمع الناس حوله وبدأت تدخل في طاعته عدّةُ مدن حتّى بويع كأمير لمملكة غرناطة في عام 635 هجريّة والموافق للعام 1238 من الميلاد، وكان يُعرف بالشيخ، ويلقّب بأمير المسلمين، وهو اللقب الذي توارثه حكّام غرناطة من بعده، وعُرف عنه حبّه لمباشرة الأمور بنفسه، وكان يعقد مجلسًا للعامّة مرّتين كلّ أسبوع ليستمع إلى تظلّماتهم، وهو مَن بنى حصن الحمراء الشّهير ليجعله مقرًّا لحكمه.

فعاودَ روبير الاستفسار قائلًا:

- وكيف بقيتْ هذه المملكة لمدّة قرنين ونصفٍ من الزمان وحيدة في مواجهة القوى الصليبية المحيطة بها؟

فأجاب *بلاس*:

- لقد أعطاها موقعُها الجغرافي في أقصى جنوب الأندلس عدّة مميّزاتٍ للصمود، فكان نهرُ الوادي الكبير حاجزًا طبيعيًّا يفصلها عن الممالك النّصرانية، وكان قربُها من العدوة المغربية يسهّل إمدادها بالدّعم والمساعدة من الدّولة المرينية التي حلّت محلّ دولة الموحّدين، كما تمّ زرع روح الجهاد في نفوس سكان المملكة، فتمّ تدريبُهم على حمل السّلاح والقتال به، كما أضحت غرناطة ملاذًا للفارّين من المدن التي سقطت فكانوا قوّة إضافيّة من الجند والعلماء لتقوية هذه المملكة في مواجهة خصومها.

فقال *روبير*:

- الآن فهمت، إذًا.. لو تكرّمت قصَّ عليّ قصّتها كاملة.

فابتسمَ *بلاس* وقال:

- *داكويردو مي أميجو*، حسنًا صديقي...

ولدتْ هذه المملكة من رحم الفوضى التي غمرتِ الأندلس بانهيار دولة الموحّدين، فكانت تحتاج إلى الاستقرار لكي تنطلق وتبدع، فلمّا أدرك محمد ابن الأحمر استحالة الوقوف أمام مملكة قشتالة مع إحجام حكّام المدن الأخرى في التّعاون معه مفضّلين الخضوع لممالك النصارى كي يحافظوا على سلطانهم؛ اضطرّ أن يخضع هو الآخرُ لملك قشتالة حتّى تتغيّر الأوضاع فتأتيه الفرصة ليعاود الجهاد ضدّهم، ولمّا هاجم القشتاليون

مدينة سلا التابعة لدولة بني مرين بالمغرب قرّر المرينيّون التعاون مع إخوانهم بغرناطة في مواجهة هذا الخطر الصليبي، فرفع سلطانهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق رايةَ الجهاد، وأرسل حملة عسكرية من ثلاثة آلاف مقاتلٍ عبرت إلى الأندلس، مكّنت محمد بن الأحمر أن يجبر *ألفونسو* العاشر ملكً قشتالة أن يفكّ حصاره عن غرناطة، وأنْ يستردّ منه مدينة شريش، وأمام شراسة هجمات ملك قشتالة على المدن الأندلسيّة بسبب خشيته من عودة روح الجهاد في نفوس المسلمين، وأمام تقاعس المرينيّين عن نجدتهم حرّض محمد الأحمر المسلمين المدجنين على الثّورة على القشتاليين.

فاستفسر *روبير* قائلًا:

- المدجنين؟

فقال *بلاس*:

- نعمْ هُم المسلمون الذين بقوا في مدنهم ولم يهجروها بعد أن احتلّتها ممالكُ النصارى، فنجحت ثورتُهم في الاستيلاء على عدّة مدن كشريش وطريانة ولبلة ووادي آنة وشذونة وبقيرة وقورية وغيرها، وأجبروا الملك القشتالي على الفرار من إشبيلية عندما حاصروا مقرّ حكمه بها، وتعّد هذه أوّلَ محاولات الأندلسيّين للتحرّر من الاحتلال الذي نعاني منه حتّى الآن، ومع نجاح هذه الثّورات استغاث *ألفونسو* العاشر بالبابا راجيًا مساعدة ملوك أوروبا لإنقاذه، واستعان بالمنظّمات الدينية المتشدّدة، وعلى رأسهم فرسان قلعة رباح، وقام بتحريض بني

أشقيلولة بمالقة ووادي آش المتمرّدين على حكم محمد ابن الأحمر؛ فثاروا عليه وتعاونوا مع القوّات القشتالية في حصارها لغرناطة في العام 664 هجرية والموافق للعام 1265 من الميلاد، ممّا أجبر محمد ابن الأحمر لأنْ يجنح لمهادنة الملك القشتالي مرّة أخرى فتنازل له عن عددٍ من الحصون الهامّة كشريش والقليعة، وأمام معاودة ثورة بني أشقيلولة عليه بمالقة ومهاجمة ملك قشتالة للجزيرة الخضراء؛ اضطرّ محمد ابن الأحمر أن يقرّ صهرَه من بني شقيلولة أبا محمد علي كحامٍ لمالقة، وعاود طلب مساعدة المرينيّين بالمغرب، ولكنّه أثناء عودته من معركةٍ جرَتْ مع أحد الخارجين على حكمه سقطَ من على جوادِه فتوفّي أثر ذلك في عام 671 من الهجرة والموافق للعام 1273 من الميلاد، فخلفه في الحكم ابنُه أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف بن نصر الملقّب بالفقيه لشهرته بالعلم والتّقوى، وعرف- أيضًا- بمحمد الثاني وهو الذي وضع أسس الدّولة النّصرية لتأخذ صفتها الملوكية حيث نظم دواوينها، ونظّم الجباية بها، ورتّب رسوم الملك، ووضع ألقابَ خدمتها، وجدّد طلب العون من السلطان المريني بالمغرب أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، وتنازل له عن رندة وطريفة والجزيرة الخضراء لينزل بها جنوده، والذي أرسل ابنه أبا زيان إلى الأندلس على رأس جيشٍ من خمسة آلاف مقاتل قاموا بالتوغّل في أراضي قشتالة حتّى مدينةٍ شريش، ثمّ عادوا إلى قواعدهم بالجزيرة ليعبرَ إليهم أبو يوسف يعقوب بجيشٍ كبير من البربر، فانضمّ له محمد الثاني وصهرُه محمد بن أشقيلولة الذيٍ خشي محمد الثاني منه أنْ يستميل السّلطان المريني ليجلسه على عرش غرناطة مكانَه، فبقي يترقّب الموقف

في غرناطة، أمّا أبو يوسف يعقوب فقام بعدّة غزوات ناجحة في عمق الأملاك القشتالية، ولمّا خرج القشتاليون لمواجهته حاربهم قرب أستجة وانتصر عليهم انتصارًا ساحقًا، وقتل قائدهم نونيو دي لارا صهر الملك *ألفونسو* العاشر، ولمّا أرسل رأسه لمحمد الثاني قام الأخير بتقديمها لملك قشتالة تقرّبًا منه خشيةً من طمع المرينيّين في مملكته، وكان هذا أوّلَ انتصار للمسلمين في الأندلس منذ هزيمة معركةِ العقاب القاسية، ثمّ عاود أبو يوسف يعقوب مهاجمة القشتاليّين حتّى وصل بجيشه لأسوار إشبيلية فبقي عدوُّه خلفها عاجزًا، وهو يشاهدُه يحرق ويدمّر زرعهم وممتلكاتهم، ثمّ توجّه صوبَ مدينة شريش فحاصرها ودمّر ما حولها، ثمّ أوقف هجماته عليها أمامَ توسّلات رهبانها، ثمّ عاد إلى المغرب، وعند معاودة استنجاد محمد الثاني به عبَر للأندلس مرّة أخرى وانضمّ لقوّاته صاحبُ آش وأخوه صاحب مالقة بجيشهم فزحفَ بهم صوب إشبيلية فاصطدمَ *بألفونسو* العاشر وجيشه فانتصر التحالف الإسلامي، وبات الجندُ ليلتهم في ساحة المدينة بعد أنْ أحرقوها ثمّ غادروها واقتحموا حصنَ القليعة وحطّموا حصونًا أخرى في طريقهم قبل أنْ يعودوا إلى قواعدهم بالجزيرة الخضراء ليعاودوا غزوَ مدينة شريش وإشبيلية مرّةً أخرى، ثمّ هاجموا حصون القناطر وروطة وجليبانة وشلونة، شجعت هذه النجاحات العسكرية السلطانَ المريني على التطلّع لمهاجمة قرطبة، ولكنْ لمّا توفي محمد بن أقليلولة صاحبُ مالقة قام ابنُه محمد- الذي خلفه في الحكم- بالتّنازل لسلطان المرينيّين عن مدينته ليستميله ضدّ بني الأحمر، وبالأخصّ محمد الثاني الذي لحق بأبي يوسف بن عبد الحقّ لغزو قرطبة، وكلّ منهما يرتاب

من الآخر، ولتجنب الصّراع المباشر مع المرينيّين على مالقة لجأ محمد الثاني إلى ذكائه؛ فأغرى واليها بالمال وبتعويضه بحُكم ثغران بجنوب غرناطة، وأعلمه بعقم قدرته على مقاومته فتسلَّم منه المدينة، ثمّ عادَ لموالاة ملك قشتالة خشيةً من أطماع بني مرين، ودعا أمير تلمسان عدوّهم للدّخول في هذا التحالف فقام أبو يوسف يعقوب بإرسال ابنه أبا يعقوب على رأس الأسطول المريني الذي انتصر على نظيره القشتالي، وأنزل قوّاته على الجزيرة الخضراء فهرب منها الجنود القشتاليّون بعد أن كانوا متمركزين بها، ثمّ توجّه لمهاجمة أملاك محمد الثاني، واستغلّ *ألفونسو* العاشر هذه الفرصة فنقض عهدَه مع محمد الثاني وهاجم غرناطة، غير أنّه ردّ على أعقابه ليواجهَ حربًا أهليّة في مملكته بعد أنْ ثار عليه النّبلاء، وسخط عليه شعبُه بسبب ارتباطه بالعلماء الأندلسيّين، فانتزع ابنُه شانجه عرشَه، فلجأ إلى سلطان المرينيّين الذي وجدها فرصةً لينتقم من محمد الثاني ويعاود الجهاد بالأندلس، فكان عبورُه الثالث للأندلس، فاستقبله *ألفونسو* العاشر وهاجما معًا حصونَ شانجة في قرطبة وإشبيلية والمرية ومجريط، ولم يظفرْ سلطانُ المرينيّين من هذه الغزوات سوى بالغنائم وتاج قشتالة الذي قدّمه إليه *ألفونسو* العاشر كرهنٍ ليساعده، ثمّ توفي الأخيرُ كمدًا على مُلكه الضّائع، فتوجّه أبو يوسف يعقوب صوب مالقة ليستعيدها من محمد الثاني فتقاتل جيشاهما حول المدينة ثمّ حاصرها الجيشُ المريني فعجز شانجة الرّابع ملك قشتالة عن مساعدةِ حليفه محمد الثاني فلجأ الأخيرُ للتفاوض مع أبي يوسف يعقوب المريني فمالَ الطّرفان إلى توحيد صف المسلمين، فعاد محمّد الثاني إلى غرناطة، وعاود أبو يعقوب جهادَه

ضدّ النصارى فهاجم طليطلة وقرطبة ويابسة وأبدة، ثمّ عاد إلى المغرب قبل أن يعبُر للمرّة الرابعة إلى الأندلس معلنًا الحربَ على شانجة الرابع الذي أهان سفراءه إليه، ولمّا اجتاحت القوات المرينية الأراضي القشتالية وانضمّ إليها جيشُ غرناطة جنحُ ملكُهم للصّلح فأرسل وفدًا من رجال الدّين ليلتمسوا الصّلح مع السلطان المريني وفقًا لشروطه فتمّ الصلحُ على ثلاثةِ بنود؛ أوّلها توقّف قشتالة عن مهاجمة أراضي المسلمين، وثانيها توقّف قشتالة عن التفرقة بين أمراء المسلمين، وثالثها توقّف قشتالة عن فرض الضرائب على التّجار المسلمين عند عبورهم أراضيها. ثمّ تفاهم أبو يوسف يعقوب مع محمد الثاني، وتمّ إبقاء قوّة مرينية في غرناطة تسمّت بجيش الغزاة، ثمّ عاد للمغرب وألَمّ به مرضٌ تسبّب بوفاته عام 685 هجريّة والموافق 1286 ميلاديّة، فخلفه ابنه أبو يعقوب يوسف الذي حافظَ على العلاقة الطيبة مع محمد الثاني، وجاءه وفدٌ من شانجة الرّابع ليجدّد المعاهدة معه، والتي نقدها الملك القشتاليُّ بعد ذلك عندما هاجم ثغورَ غرناطة فأمر أبو يعقوب قائدَ جيشه المرابط بغرناطة بمهاجمةِ شريش، واشتبك أسطولُه بالأسطول القشتالي الذي تواجد في المضيق لمنع عبور قواته فهزم الأسطول المريني، فأرسل أسطولًا آخر فانسحبت السفن القشتاليّة من المضيق، فعبرَ أبو يعقوب إلى الأندلس على رأس جيش توغّل به حتّى أحواز إشبيلية، ثمّ عاد إلى المغرب، وأمام هذا الخطر المرينيّ تقرّب شانجة الرابع من محمد الثاني وأغراه بأنْ ينتزع له ثغرَ طريفة من المرينيّين، فتعاون الطّرفان حتّى أسقطا الثغر، غير أنّ الملك القشتالي غدرَ بمحمد الثاني ولم يسلمه الثّغر كما وعده؛ بل وضمّ الحصون التي

سلّمها محمد الثاني له مقابلَ هذا الثّغر، فندم الأخيرُ على فعلته ومعاداته لأبي يعقوب فعبَر للقائه بطنجة، واعتذرَ له، وسلّم له الجزيرة الخضراء ورندة والحصون التي كانت تحت سيادة المرينيّين بالأندلس، ثمّ عاد إلى غرناطة رفقةَ قوّةٍ عسكرية مرينيية لاستعادة طريفة، فضرب عليها حصارًا ولم ينجح في فتحها.

ولمّا بلغه وفاةُ شانجة الرابع وجلوسُ ابنه *فرديناند* الطّفل دون السّادسة من العمر على عرش قشتالة تحت وصاية أمّه؛ قرّر استغلالَ هذا الظّرف فهاجم جيان وفتح قيجاطة والقبذاق القريبة منها، وعقد حلفًا مع *خايمي* الثاني ملك أراغون ضدّ قشتالة، ثمّ توفّي بعدها بعدّة أشهر عام 701 هجريّة، 1302 ميلاديّة، فخلفه ابنُه أبو عبد الله محمد، الملقّب بالمخلوع ومحمد الثالث، وكأنّ الله حرمَه من نعمة البصر وعوّضه عنها بالذّكاء الخارق، وهو مَن أنشأ المسجدَ الأعظم بالحمراء، وكان محبًّا للعلم والشّعر والإصلاح، ولكنْ رغم ذلك حجَرَ عليه وزيرُه أبو عبد الله محمد بن الحكيم اللخمي، ورغم أنّ محمّد الثالث قد بدأ عهدَه بتجديد الصّداقة مع السلطان المريني إلّا أنّه طمع في أملاكه بعد حدوث اضطرابات في المغرب؛ فتحالف مع ملك قشتالة وهاجم سبتة وانتزعها من المرينيّين، فتجهّز سلطانهم ليستعيدها، ولكنّه قُتل بمؤامرةٍ من خدّامه الخصيان، فاندلعت حربٌ أهلية حين تنازع ابناه أبو ثابت وأبو سالم على الحُكم، فانتزع الاخير الملك بعد أن قتلَ أخاه، ولكنْ سَرعان ما جاء أجلُه فانتقل الحكمُ لأخيه سليمان بن الربيع في الوقت الذي تزعّم فيه نصر أخو محمد الثالث الثورةَ ضدّه بغرناطة بسبب قهرِ وظلمِ وزيره

المستبدّ، فتمّ عزلُ ونفي محمد الثالث بعد أن أجبر على ترك الحُكم لأخيه نصر بن محمد الثّاني عام 708 هجريّة الموافق 1309 ميلاديّة، والذي رغم علمِه الواسع لم يكنْ يتمتّع بالحنكة السياسية؛ ففقد سيطرته على سبتة بسبب ثورةِ سكّانها على عمّاله بها بسبب تعسّفهم معهم مدعومين من السّلطان المريني أبي الربيع سليمان، كما استعدى حليفته مملكة أراغون عندما هاجم بلنسية فتحالف عليه الملكان الأراجوني *خايمي* الثاني والقشتالي *فرديناند* الرابع فهاجما غرناطة، ففشل الأوّل في اقتحام المرية ونجح الثاني في الاستيلاء على حصن جبل طارق المنفذِ الوحيد بين ما بقي من الأندلس والعدوة المغربية، وكعادة بني نصر.. ندِمَ نصر بن محمد على خيانتِه للسّلطان المريني فطلب منه الصّفح، وتنازل له عن رندة وحصونها والجزيرة الخضراء، وتزوّج من أخته لتعود الصّداقة بين الدّولتيْن، ولكن حالَ سقوطُ جبل طارق بين عبور المرينيين للأندلس التي أصبحت وحيدةً في مواجهة تنامي قوّة مملكة قشتالة، فاضطرّ نصر بن محمد للخضوع لها، ودفع الجزية، ممّا دعا الغرناطيّين إلى الثّورة عليه تحت زعامة أبي سعيد فرج بن إسماعيل النصري حاكم مالقة الذي اشتبك بقوّاته مع جيش نصر وانتصرَ عليه ونفاه بعد أَنْ أجبره على تسليمه الحكم عام 713 هجريّة، 1313 ميلاديّة، ليتولّى إسماعيل بن فرج أو إسماعيل الأوّل الحكمَ وهو حفيدُ إسماعيل أخي محمد ابن الأحمر مؤسّس المملكة، فعمل على استقرار المملكة، وأحيا روحَ الجهاد، وقبل أن يتوفّى الملكُ القشتالي *فرديناند* الرابع قام بغزو أملاك غرناطة وانتزع منها عدّةَ حصون، ثمّ خلفه ابنُه الرّضيع *ألفونسو* الحادي عشر تحت

وصاية النّبيلَيْن *بيدرو وخوان* اللّذيْن استأنفا الغزوات الصّليبيّة ضدّ المسلمين ففشلا في انتزاع الجزيرة الخضراء، ثمّ انتصرَ المسلمون عليهما وقتلاهما عند هضبة إلبيرة عندما حاولا مهاجمةَ غرناطة، ثمّ شنّ إسماعيل الأوّل عدّةَ هجمات على أملاك قشتالة، وحرّر حصن أشكر ومدينة مرتش ليستعيد أيّام عزّة المسلمين بالأندلس، ولكنّه اغتيل على يد ابن عمّه محمد بن إسماعيل حاكم الجزيرة الخضراء بسبب جارية حسناء كان قد انتزعَها منه، فانتقل الملك لابنه محمد الذي عرف بمحمد الرابع وهو لا يزال في الحادية عشرة من عمره فتمّ تعيين وزير والده أبو الحسن بن مسعود واصيًا عليه، ولمّا مات انتقلت الوزارة والوصاية لوكيل والده محمد بن أحمد بن المحروق الذي اختلف مع شيخ الغزاة، قائد القوات المرينية المتمركزة في غرناطة حتّى تقاتلَ الطّرفان فاغتنمَ الملكُ القشتالي الفرصة واستولى على حصن إطابة، ولكنّ الملكَ الصّغير تخلّص من وزيره لمّا استبدّ بالأمر، فتمّ تعيينُ رضوان النصري أحد موالي بني نصر، والذي كان سليلَ أحد الأسرى القشتاليّين؛ وزيرًا، فبدأ عهدُه بتجديد معاهدة الصّداقة مع مملكة أراغون ومواصلة معاداة مملكة قشتالة والتي بادلها الغزوات، ونجح في تحرير مدينتي قبرة وباجة، وجدّد محمد الرابع التحالفَ مع سلطان المرينيين أبي الحسن علي بن عثمان، وتنازل له عن رندة ومربلة والجزيرة الخضراء لتكون قاعدةً لقوّاته، واشترك جيش المملكتيْن في تحرير قاعدة جبل طارق من القشتاليّين، فأجبر ملكهم *ألفوسنو* العاشر على عقد هدنةٍ معهما، ولكن أثناء عودة محمد الرابع لغرناطة ظافرًا باستعادة جبل طارق قُتل على يد خصومه من بني العلاء

لمّا علموا بنيّته التخلّص منهم بعد أنْ قويَت شوكتهم وزادَ خطرهم على دولته، فتولّى الحكم أخوه أبو الحجاج يوسف، والمعروف بيوسف الأوّل، والذي حكم من عام725 للهجرة والموافق للعام 1325 للميلاد إلى حدود عام 755 من الهجرة والموافق للعام 1354 للميلاد، ورغمَ حداثة عمره عند استلامه الحكم الذي لم يتعدّ السّادسةَ عشر عامًا، إلّا أنّه اجتمع فيه خلالُ الملوك العظماء فكان شجاعًا مقدامًا وسياسيًّا ماهرًا وفنّانًا وأديبًا، شغوفًا بالبناء والتّعمير؛ فهو الذي أضاف لقصر الحمراء أهمّ مبانيه، وإنْ زرت القصرَ ستقرأ اسمَه منقوشًا على الجدران والنوافذ، وفي بهو السّباع الشهير وقاعة المشور، وبدأ أعمالَه بتتبع قتلةِ أخيه حتّى اقتصّ منهم، ونفى مشايخ عائلتهم إلى تونس، ثمّ التمس معاونة المرينيّين أمام هجمات القشتاليّين المستمرّة على غرناطة بقيادة ملكهم *ألفونسو* الحادي عشر الذي كان قد بلغ سنّ الرّشد وتطلّع لضمّ الأراضي الإسلامية لمملكته، فأرسل أبو الحسن بن عثمان سلطانُ المغرب ابنَه أبا مالك للجزيرة الخضراء على رأس قوة مرينية فتحالفت الممالك النصرانية القشتالية والأراغونية والبرتغالية بمباركةٍ من البابا لمواجهة الخطر المغاربي على بلادهم، وأرسلوا أسطولَهم للمضيق لمنع المرينيّين من العبور ولكنّ أبا مالك استطاع العبورَ بقوّاته مُحرزًا انتصارًا على التّحالف الصليبي في معركة شريش أو معركة المضيق، ثمّ اندفع من الجزيرة الخضراء غازيًا عمقَ الأراضي القشتالية، متجاهلًا نصائح بعض قوّاده بأنْ يحتمي في الحصون الإسلامية، فباغتته القوّاتُ النّصرانية بمحاصرةِ ثمّ مهاجمةِ معسكره فقُتل وهو يقاتلهم ومُنيَ جيشُه بهزيمة

قاسية، ثمّ توغّلت القوات القشتاليه في عمق أراضي مملكة غرناطة حتّى بسائط الجزيرة الخضراء، كما رابط أسطولٌ نصراني في مياه المضيق لمنع وصول الدّعم للمسلمين، غيرَ أنّ السّلطان المريني انتصر عليه متحالفًا مع الحفصيّين في تونس، ثمّ عزمَ على مواصلة الجهاد والثّأر لمقتل ولده، فنزل بقوّاته الضّخمة في سهل طريف، وانضمّ إليه يوسف الأوّل وقواته الغرناطية فضربوا الحصار على المدينة، فاستغاث *ألفونسو* الحادي عشر بالبابا الذي دعى الممالكَ الأوروبية لمناصرته، فتوافد على الأندلس المقاتلون الصليبيّون من فرنسا وإنجلترا وباقي مناطق غرب أوروبا مع وصولِ جماعةٍ من الفرسان الدّينية المتطرّفة، فاجتمع لملك قشتالة مائة ألف مقاتلٍ قادهم رافعًا راية البابا ليعطي لحربه دافعًا وطابعًا صليبيًّا، فتمكّن من الانْتصار على التحالف الإسلامي، فعاد السلطان المريني إلى المغرب بعد أنْ قتل القشتاليّون زوجاتِه وأولادَه وبعضَ خواصّه عندما هاجموا مقرّه أثناء المعركة التي وقعت عام 741 هجريّة، 1340 ميلاديّة، وعرفت بمعركة طريف، والتي تلاها استيلاء القشتاليّين على قلعة بني سعيد بأحواز غرناطة، ولمّا عزم السّلطان المريني على الثّأر من القشتاليّين مُنيَ أسطولُه بالهزيمة أمام أسطوهم، فاستولوا على الجزيرة الخضراء وطريفة ليسيطروا على الملاحة بالمضيق عازلين ما بقيَ من الأندلس عن نجدةِ المغاربة، لينتهي جهادُهم بها، وهكذا بات واضحًا أنّ الأندلسيّين يواجهون مصيرَهم بأيديهم، ولكنّ الرّحمة الإلهية شملتِ الأندلسَ الصّغرى عندما أصاب الوباء *ألفونسو* الحادي عشر، وتسبّب في وفاته مع عددٍ كبير من جنوده أثناء محاولتهم احتلالَ حصن جبل طارق آخرِ

منفذٍ لمملكة غرناطة على المغرب، أمّا يوسف الأوّل فبعد أن حكم عدّة أعوامٍ حلّ بها السلام والأمانُ بمملكته إلّا أنّه قُتل عام 755 هجريّة، 1354 ميلاديّة على يدِ رجلٍ مختلّ أثناء صلاة عيد الفطر بمسجد غرناطة، فخلفه ابنُه محمد الخامس الملقّب بالغني بالله، والذي لحداثة عمره انفرد حاجبُه ومولى أبيه أبو النّعيم رضوان بإدارةِ الدولة، وكان من ضمن وزرائه لسانُ الدين بن الخطيب أعظمُ كتّاب وشعراء الأندلس ومؤرّخ الدّولة النصرية الشهير، والذي مكّننا من معرفة تاريخ هذه المملكة، وهو مَن كلّف بتجديد عهد الصّداقة مع السّلطان المريني، ثمّ ثار الأمير إسماعيل، مدعومًا من بعض زعماء المملكة على أخيه محمد الخامس، وانتزع الملك منه بعد مرورِ خمسة أعوام من تنصيبه وقتل حاجبه، فتمكّن محمد الخامس من الهرب، فلجأ إلى السلطان المريني ثمّ استعاد ملكه بعد ثلاثة أعوام بعد مقتل أخيه في أحداث ثورةٍ قامت ضدّه، فافتتح محمد الخامس ولايتَه الثّانية بعزل كلّ مَن تعاون مع أخيه ضدّه، ثمّ قرّر أن يلغي مشيخةَ الغزاة التابعة للمغرب، ويجعل شأنَ الجهاد خاضعًا له مباشرة، كما أرسل المؤرخ المغربي الشّهير ابن خلدون لملك قشتالة بيدرو الأوّل الملقّب بالقاسي ليبرم معه اتّفاقيةَ صداقةٍ تحوّلت إلى حلفٍ مُعادٍ لمملكة أراغون، فقام محمد الخامس بدعم ملك قشتالة بقوّة عسكرية عندما هاجم منطقة مرسية التّابعة لأراغون، ثمّ نشبت حربٌ أهلية في قشتالة بتحريض من البابا الذي وجدَ سياسة بيدرو الأوّل مسالمةً مع المسلمين؛ فقام أخوه غيرُ الشّرعي الكونت هنري دي *تراستمارا* مدعومًا من ملك فرنسا؛ بالثّورة عليه وانتزع الملكَ

منه فلجأ الملكُ المعزول لولي عهد إنجلترا الذي دعّمه بقوّاته حتّى استعاد ملكه، ولكنّه لم يفِ بوعوده تجاه داعمه، فكان ردّه أنْ تخلّى عنه وتركَه لخصومه حتّى قتله أخوه هنري، وحلّ مكانه على عرش قشتالة، فاستغلّ محمد الخامس هذا الصّراع فحرّر عدّة حصون تقعُ بين غرناطة وجيان وقرطبة التي حاصرها، وكادَ يحرّرها كما سيطر على الجزيرة الخضراء، ثمّ عقد صلحًا مع الملك هنري ومع الملك الأراجوني، وسعى للتّحالف مع المماليك حكّام مصر لكنّ العلاقة معهم اقتصرتْ على المراسلات والسفارات الوديّة، وتوفّي عام793 من الهجرة والموافق للعام1391 من الميلاد.

هنا، وصل الرّفيقان إلى ساحةِ المسجد الكبير، فتوجّه بلاس صوبَ رجل كان يعرض مجموعةً من المخطوطات مرسومةً على جلود مدبوغة وأخرى على أوراق عتيقة، فانتقى بعضَها واشتراهم، ثمّ توجّه إلى بائع مجاورٍ له كان يضع مصاحفَ ذات أغلفةٍ مزدانة بنقوش ذهبية، فاشترى اثنيْن مميّزيْن، ثمّ همّ عائدًا مع *روبير* إلى ساحة الفنا، ومنها إلى الفندق، وأثناء سيْرهما استأنف بلاس حكيِ قصّة غرناطة.

***

مرّ ربعُ قرن لم يحدُث خلالهم أيّ تغيّر سياسي او عسكري سوى سقوط مدينة أنتقيرة في أيدي القشتاليّين الذين انشغلوا بصراعاتهم الداخلية، وتعاقبَ على حُكم غرناطة خلالَ هذه الفترة ثلاثةُ ملوك هم: يوسف الثاني بن محمد الخامس، ثمّ ولده محمد السادس، ومن بعده ولده الآخر

يوسف الثالث الذي بوفاته عام 813 هجريّة، 1410 ميلاديّة حكمَ غرناطة ملوكٌ ضعاف، وكان أوّلهم ابنَه أبا عبد الله محمد السابع الملقّب بالأسير، والذي واجه المؤامرات التي أبعدته مرّتيْن عن الحكم بالاستعانة بأسرةِ بني سراج ذاتِ الأصل العربي العريق، فضعفت المملكة في عهده وازدادت ضعفًا بعد وفاته، وتنقّل الملك بين عدّة أمراء متنافسين في أوقاتٍ متقاربة، في الوقت الذي كانت قشتالة تكثّف هجماتها على غرناطة حتّى نجحت قوّاتها في الاستيلاء على جبل طارق، المنفذ الوحيد لمرور الدّعم الإسلامي لغرناطة من المرينيّين الذي كان الضّعفُ قد تمكّن من دولتهم مثلها مثل مملكة بني عبد الواد بتلمسان ودولة الحفصيّين بتونس، فاستنجد الغرناطيّون بحكّام مصر المماليك، ولكن لم تكنْ أوضاعهم المضطربة تسمحُ بذلك، أمّا الدّولة العثمانية متنامية القوّة فكانت منهمكةً في فتوحات بلاد البلقان بعد أنْ فتح سلطانهم محمد الفاتح القسطنطينيّة عام 857 هجريّة، الموافق 1453 ميلاديّة، فأضحت غرناطة بمفردها في مواجهة خصومها بلا حليفٍ أو داعم، ورغم ذلك تنافس أمراءُ الأسرة الحاكمة على المُلك؛ فثار أبو الحسن علي على حُكم والده سعد بن محمد بن يوسف بتحريضٍ من بني سراج، وقام بخلعه ونفيه إلى مالقة، وجلس مكانَه على العرش، وتلقّب بالغالب بالله، وخلص له المُلك بعد صراع مع أخويه الذي توفّي أحدُهما وهو أبو الحجّاج يوسف وبقي الآخر وهو حاكم مالقة أبو عبد الله محمد المعروف بالزّغل، وفي الجهة الأخرى كانت مملكة قشتالة وأراغون تتوحّد بعد زواج وريثة عرش الأولى إيزابيلا مع وريث عرش الثّانية *فرديناند* ابن يوحانا الثّاني، والذي عرف *بفرديناند* الخامس،

لتلتحم القوى النّصرانية وقت تتشتّت قوة غرناطة بالصراع الذي احتدم بين الأخوين أبي الحسن والزغل، وعندما رفض الأوّلُ التّبعية لقشتالة وأراجون كشرطٍ لعقد الهدنة معه؛ حارباه واحتلّوا مدينة الحامة، ولكنّهم فشلوا في غزو لوشة، وكانت هزائمُ أبي الحسن علي وخلافه مع بني سراج بعد هجرِه لزوجته عائشة الحرّة ابنة السلطان الأيسر وابنة عمّه، وركونه إلى حياة الدّعة واللّهو، واقترانه *بإيزابيلا* الرّومية، الجارية الحسناء الفتية ابنة القائد *سانشو*، والتي اعتنقت الإسلام بمعرفةٍ من الوزير ابن كماشة الذي يعود هو نفسه إلى أصول نصرانيّة والتي سمّيت بالثريا، وبعد أن أقصى عائشة عن شئون الحكم وحبسها هي وولديْها في أمنع أبراج الحمراء، برج قمارش؛ كلّ ذلك كان من أسباب ثورة الغرناطيّين على حكمه في أواخر سنة 1482م، وبعدما أصدر أبو الحسن قرارًا بإعدام عائشة الحرّة وولديها بتحريض من الثريا طبعًا، فقام الثّائرون عليه بخلعه، وتعيين ابنه أبي عبد الله محمد المعروف بابن الحرّة مكانه، فالتجأ أبو الحسن لأخيه الزغل بمالقة، والذي وفّق في صدّ هجوم قشتالي على مدينته، وانتصر عليهم في معركة الشرقية التي نشبت عام 888ً هجريّة الموافق 1483 ميلاديّة، فأراد أبو عبد الله محمد، الشابّ الفتى ابنُ الخامس والعشرين أنْ يضاهي والدَه وعمّه في جهادهم ضدّ قشتالة؛ فخرج بجيشه صوْب قرطبة فاجتاح في طريقه عدّة قرى وحصون، وغرّه انتصارُه على القشتاليّين في عدّة معارك فرعية فتوجّه إلى بلدة اللّسانه، وهناك حاصره أعداؤه وأسروه بعد أنْ قتلوا الكثيرَ من جنوده، وعلى رأسهم قائدُهم والبطل إبراهيم بن علي العطار، فاضطرّت عائشة الحرّة إلى استدعاء والدِه

وزوجِها أبي الحسن ليستلم الحكم، ولكنّه تنازل لأخيه الزغل بسبب شدّة مرضه وفقدِه للبصر، وأرسلت عائشة الحرّة الوزيرَ ابن كماشة على رأس سفارة لقشتالة، وبعد التّفاوض مع الزّوجين الملكيّين أطلقوا سراح أبي عبد الله محمد مقابل الحصول على طاعةِ غرناطة ودفع جزية سنويّة لهم، ومع ذلك صمّمت *إيزابيلا* على مواصلة الحرب حتّى القضاء على آخر معاقل المسلمين بالأندلس، فهاجمت القوات القشتالية منطقةَ غرب مالقة وأسقطوا رندة ولكنّهم تكبّدوا خسائر فادحة في محاولتهم احتلال موكلين في الوقت الذي كان الزّغل منشغلًا بإخماد الفتنة التي نشبتْ في حيّ البيازين الغرناطي بعد أنْ أعلن أبو عبد الله محمد نفسَه ملكًا بدعمٍ من القشتاليين الذين استغلّوه لإحداث شرخ في مملكة غرناطة ليسهل الاستيلاء عليها، ولمّا ندم أبو عبد الله محمد علىً معاداة عمّه قرّر الدخول في طوعه لمواجهة الخطر القشتالي، فقرّر *فرديناند* الخامس معاقبتَه بمهاجمة غرناطة والاستيلاء على لوشة، فسارع إليه أبو عبد الله محمد وعاد معه إلى قشتالة طالبًا مساعدته ليستعيد عرشَ غرناطة، فاستغلّ الملك القشتالي هذه الفرصة ليحتلّ موكلين ومنتفريد وقلمرية، ثمّ انتزع مدينة بلش وعندما غادرها الزّغل عائدًا إلى غرناطة وجد أبا عبد الله محمد قد جلسَ على عرشها بعد أنْ دعا لنفسه بين أنصاره ومؤيّديه بحي البيازين، ثمّ أصبحت مالقة- التي بقيت تحت حكم الزّغل- الهدفَ التّالي للقشتاليّين فهاجمها ملكهم برًّا وبحرًا، فسقطت القرى والحصون المحيطة بها، فتزعّم الدّفاع عنها القائدُ الشّجاع حامد الثغري في ظلّ غياب الزغل عنها خوفًا من غدر ابن أخيه أبي عبد الله محمد، وبعد حصارٍ مُحكم لمدّة

ثلاثة أشهر، واستبسالٍ من المدافعين، وأمامَ الجوع والمرض سلّم السّكانُ المدينة، ولكنّ *فرديناند* الخامس غدرَ بهم، وعاملهم كرقيق يجب أن يفتدوا أنفسَهم، أو يستعبدوا، وبسقوط مالقة أضحتْ مملكةً غرناطة بلا منفذٍ على البحر، واستثمر *فرديناند* الخامس انتصارَه فأسقط ما بقي من الحصون التي تحمي أطرافَ المملكة، ولمّا حاصر مدينة بسطة لم يتوجّه الزغل للدّفاع عنها رغم تبعيّتها له؛ وبقي في مقرّه بوادي آش خوفًا على نفسه من أنْ يهاجمه ابنُ أخيه، واكتفى بدعم المدينة بقوّة من الفرسان بقيادة صهره يحيى النّيار، وبعد حصار دام ستّة أشهر استسلمت المدينة وغادرها سَكّانها، وتبع ذلك استسلامُ الزّغل *لفرديناند* الذي تسلّمت قواته وادي آش، وبذلك جاء الدّور على مدينة غرناطة، فأرسل الملكان فردينالد الخامس وإيزابيلا سفارةً إلى أبي عبد الله محمد يطالبانه بتسليم المدينة، وأمام رفضه شرعوا في محاصرتها فأسّسوا بجوارها معسكرًا تحوّل إلى مدينة أطلقوا عليها اسم «سانتا في، الإيمان المقدس»، كمقرّ قيادةٍ لقوّات الحصار الذي دامَ سبعة أشهر بين صمود الغرناطيّين وخروجهم بقيادة فارسهم الشّجاع موسى بن أبي الغسان لمهاجمة الغزاة الذين فشلت كلّ محاولاتهم لاختراق أسوار المدينة، ولكنْ لمّا تفشّى اليأس والجوعُ والمرض بالمدينة، وأمام إلحاح الوزير ابن كماشة وموافقة أعيان المدينة تقرّر تسليمُ غرناطة بعد اجتماع أبي عبد الله محمد بهم رغمَ معارضة القائد موسى بن أبي غسان الذي خرج لمقاتلة القشتاليّين حتّى قتل رافضًا الحياة في ذلّ الهزيمة، وذهب الوزير أبو القاسم بن عبد الملك للتفاوض مع الملك القشتاليّ على شروط التّسليم التي أمّنت بنودها للمسلمين حريّتهم الدينية وممتلكاتهم ومساجدهم وكرامتهم وقضاءهم الشّرعي، وأنْ يسلّم

أبو عبد الله محمد قصورَ الحمراء، ويختار مكانًا آخر لإقامته بالمملكة، فكانت الأندلس الصّغرى؛ أي غرناطة، كالمصباح المرتجف يخبو ضوءه تدريجيًّا، فلم يكنْ يقتضي لإطفائه سوى الضربة الأخيرة التي قام بها *فرناندو وإيزابيلا* لتسقط غرناطة في ليلةٍ كالحة الظّلام في تاريخ وصم القلوب قبل أن يلتصق بجدار الذّاكرة، ففي يوم الاثنين غرّة ربيع الأول لعام 897 هجريّة الموافق الثاني من كانون الثّاني 1492 ميلاديّة فتحتْ غرناطة أبوابَها ليدخلها حاكمُها الجديد الكونت *تنديلا* وخلفه الموكبُ الملكي للملكة *إيزابيلا* والملك *فرديناند* الخامس، ورفع صليب فضيّ كبير فوقَ برج الحمراء وسط علم قشتالة وعلم القدّيس *شنت ياقب*، إعلانًا بانتهاء الحكم الإسلامي لبلاد الأندلس الذي دام ثمانيةَ قرون ونصف القرن من الزّمان، وغادر أبو عبد الله محمد رفقةَ أهله المدينة متوجّهًا إلى أندرش بجبال البشرات التي تطلّ على غرناطة، وعندما رأته أمّه عائشة الحرّة يذرف الدّموعَ قالت له جُملتها الشّهيرة :

«ابْكِ مثلَ النّساء مُلكًا مضاعًا لم تحافظْ عليه مثلَ الرّجال».

***

لمّا أدركا الفندق توقّف *بلاس* عن السّير، وقال:

– أمّا الآنَ وقد وصلنا؛ فلنصعدْ لنستريح بعدَ هذا اليوم الطويل، ولنتجهّز إلى رحلة العودة.

الفصلُ السّادس عشر

إنّي عائدٌ إلى الأندلس

دوّى صوتُ أذانِ الفجر في ربوع مراكش، مخترقًا الصّمتَ الذي كان يغلّف الشّطرَ الأخيرَ من ليلها، فاستيقظَ *بلاس* وتوضّأ، وارتدى جلبابه المغربيّ، وبمنتهى الهدوء خرجَ من الغرفة قاصدًا مسجدَ الكتبية ليحضر صلاةَ الفجر به.

وكان كلّما اقترب منه يُسرع الخطى ليظفرَ بمكانٍ في الصفّ الأوّل، وبعد أنْ وصل خلع نعليْه ودخل المسجد، ثمّ أخذ يتجوّل ببصره بين أعمدته وجدرانه وأسقفه التي يحيى في كلّ تفاصيلِها حقبةَ بنائه التّاريخية، وبعد أَنْ صلّى ركعتي الفجر، ومع إقامة الصّلاة؛ لاحظَ قلّة عددِ المصلّين حيث لم يكتمل الصَفّ الثاني، وبعد تكبيرةِ الإحرام قرأ الإمامُ بعد الفاتحة سورة «**الأعلى**»، فهامَ *بلاس* مع معاني الآيات متذكّرًا جدّته ولفافاتها الجلديّة التي أضاءت له طريقَه، ووجّهته مبكّرًا إلى نور الحقيقة، وفي الرّكعة الثّانية صلّى الإمام بسورة النصر..

وبعد انقضاءِ الصّلاة توجّه بلاس للإمام وحيّاه، ثمّ جلس أمامَه ليحدّثه، فقال له الإمام:

- **اللّهجة ديالك كتبان غريبة اسيدي من أيّ بلد جيت؟**

فأجابه *بلاس*:

- أنا أندلسي.

فقال له الإمام:

- **مرحبا اسيدي بيك عندنا بين أهلك وإخوانك.**

فشكرَه *بلاس*، ثمّ سأله:

- ولكن أتعجّب يا شيخنا من قلّة عدد المصلين!

فارتسمَ على وجه الإمام ملامحُ الأسى، وقال:

- **للأسف الأغلبيّة مزاهم راقدين دبا.**

فحَدّث *بلاس* نفسه قائلًا:

- نعم، إذًا.. هذه الأمّة مازالت نائمة، إنّي عائدٌ إلى الأندلس.

ثمّ سلّم على الإمام، وقام من مجلسه، فخرج من المسجد متوجّهًا إلى الفندق لينام حتّى يحلّ صباح رحلة العودة إلى الدار البيضاء.

ولمّا استيقظ وجدَ *روبير* قد أعدّ حقائبه، ورتّب الغرفة، فقام وفعل مثلَه، ثمّ تناولا وجبة الفطور، ونزلا إلى صلاح عامل الإستقبال، الذي صعد مسرعًا ليُنزل حقائبهما، ثمّ ذهب ليستدعي العربة، فشكرَه *بلاس* على حُسن الضّيافة والخدمة قبلَ أن يركب العربة مع *روبير* متوجّهيْن إلى محطة السّكة الحديد، وما أنْ وصلا حتّى نزلا مسرعيْن إلى عربة القطار الذي كان قد بدأت إجراءاتُ استعدادِه للمغادرة.

وفوْر جلوسهما في الغرفة الصّغيرة المخصّصة لهما، بدأ القطار في التحرّك.. فقال *بلاس* وهو يلتقطُ أنفاسه:

- *جراسياس ديوس*، الحمدُ لله وصلنا في الوقت المناسب.

فقالَ *روبير* وهو يسندُ رأسَه على مخدع الكرسي:

– سي، نعم دون *بلاس*، أدركنا القطار بأعجوبة، كنّا سنضطرّ للانتظار لأسبوعٍ آخر لندرك «خليل» في كازابلانكا.

بعد أنِ استقرّت سرعةُ القطار بادرَ *روبير* بالسؤال:

– دون *بلاس*، وجدتُ نفسي أفكّر وحدي فيما حلّ بالأندلس بعد سقوطِ آخر معاقلِ المسلمين بها، هلّا حدّثتني عن ذلك؟

فابتسمَ *بلاس* ثمّ قال:

– أراكَ أصبحتَ تهتمّ بالتّاريخ يا صديقي!

فقال *روبير*:

– سي، نعمْ دون *بلاس*، قبل هذه الرّحلة كنت شخصًا عمليًّا، ما يشغلني هو الحاضر ومتطلّباته والتزاماته، ثمّ اكتشفت معك أنّ التّاريخ يعطي عمقًا أكثر في إدراك واستيعاب الواقع المعاصر، فكما اكتشفت عالمًا آخر يواكب عالمنا أثناءَ مرافقتي لك في ترْحالنا بهذه البلاد الطيبة؛ أردتُ أيضًا أن أستزيد من معرفتك الجيّدة بالأحداث التاريخية الهامّة التي نعيش الآن توابعَها.

أعجبَ *بلاس* بردّه، فقال له:

– إذًا، لك ما طلبت...

بعد انتهاء الحُكم الإسلامي بالأندلس بسقوط غرناطة غادر البلاد جموعٌ من المسلمين إلى المغرب بعد رحيلِ آخر ملوكهم منها، أمّا مَن

بقي منهم فظلّوا مُحافظين على عقيدتهم وشعائرهم في ظلّ تنفيذِ بنود معاهدةِ تسليم غرناطة، إلّا أنّ الملكيْن الكاثوليكيّيْن قرّرا نقضَ عهدهم مع المسلمين، فبدأتْ مأساتهم عندما حلّ الكاردينال *فرنسيسكو دي سيسنيروس* بغرناطة في العام 1499 للميلاد والموافق للعام 905 للهجرة، والذي عُرف باسم *خيمينيس*، فعندما اصطدمت مساعيه لجذبِ الغرناطيّين للتنصّر بصلابة عقيدتهم الإسلامية قرّر استعمال سبل القمْع، فبدأها بأنْ جمعَ المخطوطات العربيّة من مصاحف وكتب حديث وآداب، وغيرها من الكتب التي بلغت مليونًا وخمسمائة كتاب، وأمر بإحراقها بساحة باب الرّملة بغرناطة، بهدف عزل الأندلسيّين عن تراثِهم الإسلامي عقائديًّا ولغويًّا وتاريخيًّا، وأبقى على الكتب العلميّة لتكون أساسًا للجامعة الجديدة التي عُرفت بالقلعة، ثمّ قام بمصادرة أملاكهم والتّضييق عليهم، ولمّا ثار سكّان حيّ البيازين على الظلم الواقع عليهم استخدمتِ السّلطة الإسبانية سبلًا شديدة القسوة في التنكيل بالثّائرين، ممّا دفعهم إلى المواجهة المسلحة، فأعلنوا حربَ عصابات على الجيش الإسباني متحصّنين بالجبال، وكانت هذه الثّورةُ ذريعةً للملكين لإدخال محاكم التفتيش إلى غرناطة.

فسأل *روبير*:

– وما هو أصلُ محاكم التفتيش هذه؟

فأجاب *بلاس* قائلًا:

– هذه المحاكمُ بدأ عملها بفرنسا منذ عام 1233 للميلاد، والموافق لعام 631 للهجرة، حين كلّف البابا الرّهبان الدومينيكان بالتحقّق من

ممارسات طائفة/*الأ لبيجسة*، وتطوّرت هذه المحاكم فلجأت إلى التّعذيب، وكان لها ذراعان: الأوّل ديني يفرض على المتّهم الغفران، والآخر علمانيّ ينفّذ الأحكام، فكان المتّهم يؤخَذ إلى سجون التحقيق فيجد نفسَه أمام رجال دينٍ يرتدون ملابس وأقنعة سوداء لا تظهر إلّا أعينهم فيستجوبونه في حضورٍ محقّق الديوان آمرين المتّهم بأنْ يبقى ناظرًا لصليبٍ من العاج موضوع أمامه طوالَ مدّة التّحقيق وهو مُحاط بالجلّادين، وبطبيبٍ ليخبرهم اقترابَ المتّهم من أنْ يفقد حياته ليوقفوا تعذيبه ليستعيد عافيته ثمّ يعاودوا تعذيبه، وأوّل مَن أدخل هذه المحاكم لقشتالة هُما الملكان الكاثوليكيّان، وكانا يحضران بنفسيْهما جلساته، وكانت أوّلها بمدينة إشبيلية وأحرق في هذه الجلسة ستّة عشر مسلمًا، وتلاها إحراقُ سبعمائة في أوّل ثماني سنوات غير خمسة آلاف آخرين حكمَ عليهم بالسّجن المؤبّد والأشغال الشاقة، وكانت أحكامُها غير قابلةٍ للاعتراض أو النّقد، ويحرم نقاشُها، ولا تقبل أيّ شهادة لصالح المتّهم؛ بل تقبل ضدّه شهادة أيّ شاهدٍ كان كالأطفال والخدم والعبيد والمجانين والسكارى، وتفنّنت هذه المحاكم المنحطّة في استخدام وسائل مبتكرة للتّعذيب وأخذِ الاعترافات من المتّهمين بطرق قمّة في القسوة والوحشية والبشاعة..

وللعودة إلى أحداث الثّورة فتزايد عدد المنضمّين إليها؛ بل واندلعت ثورةٌ أخرى بمنطقة البشرات بجنوب غرناطة عندما أصدرت الملكة إيزابيلا عام 1501 ميلاديّة والموافق لعام 907 هجريّة، مرسوم ملكي يقضي بتحريم أيّ عمل يتعلّق بعقيدة ولغة وثقافة الموريسكيّين ممّا دعاهم لابتكار لغة/*الخيميادو* لمجابهة اللّغة القشتالية، ونقل تراثهم الإسلامي

إليها، ثمّ تابعت الملكة جورَها عليهم بإصدار مرسوم آخر في نفس العام يخيّرهم بين اعتناق الكاثوليكية أو الرّحيل من بلادهم مُمهلةً إيّاهم أربعة أشهر، فرحلَ عن غرناطة خلال هذه المُهلة أكثرُ من ثلاثمائة ألف مسلم، واعتبر مَن بقي نصرانيًّا بحكم القانون، ولكنّهم لم يتنصّروا إلّا ظاهريًّا فقط، فكانوا يذهبون إلى قدّاس أيّام الآحاد ولا يقولون الحقائقَ خلال الاعتراف، ويوم الجمعة يحتجبون ويغتسلون ويصلّون سرًّا في منازلهم، وإذا عمد أطفالهم كانوا يغسلوهم بعد عودتهم بالماء السّاخن، ويسمّونهم في ما بينهم بأسماء عربيّة، وفي حفلات الزّفاف كانت إذا عادت العروس من الكنسية بعد تلقّي البركة تبدّل ثيابها النّصرانية بملابس العروس العربية، ووقتها يبدأ الاحتفالُ الحقيقي وفقًا لتقاليدهم الأندلسية العربية، وبعدها بثلاثة أعوام توفّيت الملكة *إيزابيلا* ولحقها زوجها بعد اثني عشرَ عامًا من وفاتها فخلفهما ابنهما *شارلكان* الذي قامت في بداية عهدِه ثورةُ سكّان المدن، والتي خلال أحداثها قام رعاع بلنسية بتنْصير المسلمين تحت تهديد السّلاح، فرضخوا لهم ظاهريًّا، ولكن عندما استنجدوا بالملك وعرضوا عليه تظلّمهم كوْن تنصّرهم لم يكنْ بمحض إرادتهم أمرَ بتشكيل لجنةٍ من رهبان وأساقفة وقضاة ديوان التّفتيش، وكان قرارُ هذه اللجنة تأكيد تنصّر الأندلسيّين، فترتّب على ذلك صدورُ مرسوم ملكيّ يجرم مغادرتهم البلادَ مع وجوب تنصير أبنائهم، وتحويل مساجدهم إلى كنائس ويُعاقب بالأعدام وبمصادرة أملاكه مَن يرتدّ منهم إلى الإسلام، وفي عام 1529 للميلاد الموافق لعام 935 هجريّة، حضر شرلكان احتفاليّة حرق مجموعة من الأندلسيّين الذين وجّهت لهم

تهمُ الزّندقة بغرناطة، وقد سبّبت هذه الحادثة الهلعَ في أوساطهم فمنهم مَن فرّ إلى المغرب، ومنهم مَن تسلّل إلى الشمال واندمج مع القشتاليّين، وخلف *شارلكان* ابنُه *فيليب* الثاني الذي أعِدّ لهذا المنصب منذ صِغره على يدِ مجموعة من رجال الدّين المتعصّبين الذين غرسوا فيه الرّوح الصّليبية الكارهة للمسلمين، فبعد جلوسه على العرش بثلاثةِ أعوام أصدرَ ضدّهم عدّة مراسيم ملكية مجحفة فحظرَ عليهم حملَ السّلاح وحرّم عليهم التحدّث بالعربية، وحتّى يقضي تمامًا على هويّتهم أصدر مرسومًا يقضي بتركهم أزياءهم العربية، وأن يستبدلوها بالزّي القشتالي، وأنْ يتمّ تجريم أيّ مظهر أو عادة أو احتفال خاصّ بهم، وأن يسلّموا أطفالهم إلى الرهبان لينشأوا على النّصرانية، ولمّا قابلت السلطة الحاكمة بالرفض الطلبَ الذي قدّمه وفدٌ من كبرائهم يلتمسُ تخفيف هذه الإجراءات، خطّط للثّورة فرج بن فرج سليل بني الأحمر، آخر أسرة حاكمة لغرناطة من المسلمين، ومحمد بن عبو الذي كان قد تسمّى *بدييغو لوبيث*، وفي ليلة عيد الميلاد لعام 1568 للميلاد والموافق للعام 975 من الهجرة، اجتمعا سرًّا، ومعهم ممثّلون عن مسلمي غرناطة والبشرات والمناطق المجاورة، وأعلنوا تبرؤهم من المسيحيّة التي فرضت عليهم وبايعوا الشّاب «*فرنادو دي بالور*» ملكًا عليهم، والذي عُرف بمحمد بن أميّة لأصوله التي تعود إلى الأمويّين، وأخذ البيعة منهم تحتَ شجرة زيتون المورو الموجودة بمزرعة بغرناطة، فقاد ابنُ أميّة انتفاضة أخذت شكل حرب العصابات ضدّ القوّات الإسبانية من جبال البشرات، وخلال عام واحدٍ تضاعف عددُ الثّوار من أربعة آلاف رجل إلى خمسة وعشرين ألفًا، كما انضمّ إليهم

متطوّعون من المغرب والجزائر وجنودٌ أتراك عثمانيون، وواجه هؤلاء الأبطال الشجعان بإمكانيّاتهم المحدودة الجيشَ الإسباني بكامل عتاده، والذي كان أقوى جيوش أوروبا في ذلك العصر، ومع نجاح الثّوار في تحقيق عدّة انتصارات وتحرّج وضع القوات الإسبانية لجأ قادتهم إلى المكيدة، فعملوا على شقّ صفّ الثّوار، فعندما قاموا بمذبحة بسجن غرناطة للمحتجزين المسلمين حقنوا دمَ والد وأخ ابن أمية للضّغط عليه، فأرسل ابنُ أمية رسالة إلى *خوان* النّمساوي يعرض فيها عليه تسليمهما له مقابل ثمانينَ أسيرٍ مسيحيّ، وإلّا انتقم من المسيحيّين الذين تحت سلطته، فاتّفق المجلس الحربي الإسباني المنعقد بغرناطة على تجاهل هذا الطلب، وأرغموا والدَ ابن أمية أنْ يكتب لابنه رسالةً ينهاه فيها عن مواصلة الثّورة، نافيًا تعرّضه للتّعذيب أو الإهانة بالأسر، فاغتنم ذلك بعضُ المسلمين الموالون للإسبان للعمل على قتله، وعلى رأسهم دييغو الوزير أخ زوجة ابن أميّة، والذي كان يحقد عليه، فأخذوا يبثّون الشكّ بين ابن أمية والمتطوّعين الجزائريّين، فطلب ابنُ أمية من قائده محمد بن عبو ضمّ الأتراك إلى قوّته، والسّيرَ بهم إلى البنيول، وانتظار أوامره حيث كان يريد تحريكهم بسريّة تامّة صوب ميناء مطريل لتحريره دون أن تتسرّب أيّ معلومات عن تحركاته لعدوّه، فاستطاع ديبغو الوزير أن يعترضَ حامل الرسالة وأن يعرف منه مضمونَها، فتآمر مع كاتب ابن أميّة على أنْ يزوّر باسمه رسالة أخرى يأمر فيها بقتل حامل رسالتِه الأولى فوصلت الرسالة المزوّرة إلى ابن عبو فصدّق الشّائعات التي نشرها العدوّ حول نية ابن أميّة مهادنة الإسبان لتحرير والده، واتّهم المتطوعون ابنَ أمية بالخيانة،

فقرّروا عزله وإعدامه دفاعًا عن الثّورة، وسار ابن عبو والمتطوّعة الأتراك إلى مقرّ ابن أميّة في لوشر، فقبضوا عليه وواجهوه بتهمة خيانتِه للثّورة، وأطلعوه على الرسالة التي بيدهم، فتبرّأ ابنُ أميّة من التّهم الموجّهة ضدّه، مؤكدًا لهم أنّ الرسالة مزوّرة، لكنّ دفاعه هذا لم يفده، فسجنوه في غرفة وكلّفوا بحراسته *دييغو* الوزير و*دييغو أركش* كاتبه اللّذيْن قتلاه خنقًا في ليلة 20 أكتوبر لعام 1569 للميلاد الموافق للعام 977 من الهجرة، ثمّ بويع ابن عبو قائدًا للثورة واتّخذ لقب مولاي عبد الله، ورغم أنّ الثّوار حقّقوا بعض الانتصارات تحت قيادته، إلّا أنّهم سرعان ما خسروا ما كسبوه، وبعد مرور عاميْن على توليه القيادة قتله بعضُ أتباعه في أحد كهوف البشرات بتدبير من الإسبان، وبعد القضاء على الثّورة تمّ نقل جميع سكان البشرات إلى قشتالة وغرب الأندلس، وأخليت حوالي مائتان وسبعون قرية من سكّانها المسلمين، ووُطّن في بعضها مسيحيّون من الشمال الإسباني، بينما تُرك البعضُ الآخر خاويًا على عروشه، وقد ترتّب على هذا التّغير الديموغرافي تدميرُ صناعة الحرير لعدّة قرون، والتي كان يبرع فيها الأندلسيّون.

كما أمر *فيليب* الثاني بتشتيتِ شمل ثمانين ألفًا من موركسيّي غرناطة في أنحاءَ متفرّقة من مملكته لتفتيتِ وحدة المجتمع الموريسكي، وتسهيل انْصهارهم في المجتمع المسيحي، إلّا أنّ العكس هو ما حدث؛ إذْ كان لموركسيّي غرناطة المهجّرين تأثيرٌ كبير في بعث الرّوح الأندلسية من جديد في المورسكيّين الذين سبقوهم بالتوطّن الإجباري في المناطق التي نُقلوا إليها، والذين كانوا على وشك الاندماج فعليًا في تلك المجتمعات،

وبعد وفاة فليب الثاني عام 1598 ميلاديّة والموافق لعام 1006 للهجرة، انتقل المُلك لابنه فليب الثالث، ولحداثة سنّه وضعف شخصيته سيطرَ على قراراته مجموعةٌ من رجال الدين المتعصّبين ووزيره *فرانسيسكو جومز دي ساندوال*، دوق ليرما، الذي كان متحمّسًا لفكرةِ القضاء نهائيًّا على الوجود الموريسكي بالبلاد بعد أنْ بلغه حثّهم هنري الرّابع ملك فرنسا على غزو إسبانيا، ولاستنجادهم بالخليفة العثماني وسلطان المغرب الذي عند وفاته عام 1012هجريّة الموافق لعام 1603 ميلاديّة؛ تنازع أبناؤه على المُلك، فاستعان أحدُهم- وهو أبو عبد الله المأمون، الذي عرف بالشّيخ- بملك إسبانيا ضدّ أخويْه ليعاونه على انتزاع العرش منهما، فقام أخوه زيدان في المقابل بدعم موريسكي بلنسية وشرق الأندلس ممّا جعل فيليب الثالث يعقد العزم على معاقبتهم بالنّفي من البلاد، فأصدر مرسومًا ملكيًّا مستندًا على تقرير مجلس الدولة الذي انعقد في عام 1609 ميلاديّة الموافق لعام 1017 هجريّة، يقضي بنفي الموريسكيّين من الأندلس غير حاملين من متاعهم غيرَ ما يتحمّله ظهورهم كوْنهم قد خالفوا الوحدة الدينية الكاثوليكيّة للدولة، كما عرّضوها لخطر الغزو المغربي، فتجسدت المأساةُ عند اضطرارهم لبيع مُمتلكاتهم بالخسارة، وزحفهم صوب الموانئ وهُم يتعرّضون للسّلب والقتل بلا حماية حتّى يدركوا السّفن التي ستلقي بهم في مواني وهران، ثمّ تبع ذلك قرارُ نفيهم من غرناطة وأراغون وإشبيلية ومرسية وقطلونية، فمرّت الأعوام التّالية، والسّفن تنقل مئات الآلاف منهم إلى مواني المغرب العربي ومصر والدّولة العثمانية، وهكذا، وبعد قرنٍ من سقوط غرناطة تخلّصت إسبانيا الكاثوليكية ظاهريًّا من

الموريسكيّين ولكنّها في الواقع خسرت أكثرَ عناصر دولتها تقدّمًا وإنتاجًا وإسهامًا حضاريًّا، فغادر بلادنا جزءٌ كبير من أهلها تاركين وراءهم مدنًا وقرى شيّدها أجدادهم مازالت إلى الآن تحمل أسماءها العربية زاخرةً بإبداعهم العمراني منقطع النّظير، ونظمهم الزّراعية المتطوّرة، وعلومهم التي أضاءت ظلمات أوروبا.

فسأل *روبير*:

– وهلْ بهذا الإجراء انتهى نهائيًّا وجودُ الأندلسيّين في بلادهم؟

ردّ *بلاس*:

– بالطّبع لا، فأنا أندلسيّ أبًّا عن جدّ، وكثيرٌ مثلي أصولُهم أندلسية، فرغمَ جهود السّلطات الإسبانية لتفريغ أراضنا من الأندلسيّين الأصليّين، إلّا أنّ عددًا منهم نجح في البقاء، واستطاع عددٌ آخر العودةَ، بالإضافة إلى الأسرى المغاربة وجميعُهم حافظوا سرًّا على عقيدتهم، ولمواجهة ذلك قامَ الملك فيليب الثّالث بترقية الكونت *دي سالازار* ليصبح محقّقًا عامًّا لديوان التّفتيش ليتكفّل بمطاردة الأندلسيّين العائدين لبلدهم، ولمّا جلس الملك فيليب الرابع على العرش أدرك فداحةَ قرارِ والده بطرد الموريسكيّين الذين كانوا عمادَ الحركة الاقتصادية بالبلاد التي تأثّرت سلبًا اجتماعيًّا وسياسيًّا بغيابهم المفاجئ؛ فأعلن مجلسُه الملكي أنّ السلطة ارتكبت عدّة تجاوزات بحجّة منع عودتهم للبلاد موصية بعدم تكرارها، وبغلق جميع التّحقيقات، ورفض أيّ اتّهامات جديدة متعلّقة بهذا الشّأن، وبعدها بسنتين نشرَ الملكُ قرارًا جاء في محتواه تجريم الإساءة

أو التعدّي على الموريسكيّين الذين ظلّوا في البلاد، ومع ذلك استمرّت التحقيقات التي كان من ضمنها قضية «*فراشيسكو دي لوكي*» البلنسي الشّهير الذي انضمّ لمجاهدي البحر الجزائريّين، وأصدر كتابًا وصف فيه رحلته مفصّلة، ولمّا وقع في قبضة الإسبان حكمَ عليه بالجلد والسّجن المؤبّد، واستمرّت محاكمُ التفتيش في التّحقيق مع أيّ موريسكي يبدر منه أيّ تصرّف أو مظهر إسلامي.

فعاود *روبير* الاستفسار قائلًا:

- ولمْ تظهر أيّ محاولات للتحرّر بعد ذلك بالأندلس؟

فأجابه *بلاس* قائلًا:

- بلى، فقد بقي الكثيرُ من الأسر الأندلسية التي حافظت على إسلامها، وكانت السّلطة والأراضي بيد القشتاليّين ففي عام 1648 ميلاديّة الموافق لعام 1057 هجريّة، خرجت جموع من الإشبيليّين تهتف ضدّ فيليب الرابع وحكومته السيئة، وتؤيّد الملك البرتغالي الذي كانت تربطُه علاقات مميّزة بالأندلسيّين؛ حيث كانت زوجته «*لويزا بيريز دي عثمان*» واحدةً منهم، وشقيقها «*ألفونسو*» دوق شذونة والقائد العام للأسطول الإسباني بالمحيط الأطلسي وسواحل الأندلس، وخطّط هذا القائد الأندلسي لتحرير بلاده من ظلم القشتاليّين، وبتأييد من أخته وزوجها الملك البرتغالي أعلن *ألفونسو* نفسَه ملكًا على الأندلس، فسانده الحاكم العسكري لإقليم الأندلس «*المركيز أبامونتي*»، فكان هو أيضًا أندلسيًّا، ولارتباطِه بعلاقات وثيقةٍ بالبرتغال وفرنسا وبريطانيا وهولندا؛

وعدَتْه هذه الدول بدعمه، وانضمّ لهذيْن القائديْن الأندلسيّيْن رجلٌ من المرية من نسلِ بني الأحمر، وتلقّب بطاهر الحرّ، والذي تنتسبُ إليه عائلة والدتي، وبانضمامه للثّورة أعلن نفسَه ملكًا على شرق الأندلس، ووعده الأندلسيّون المقيمون بالمهجر بتقديم المساعدة، ولكنّ هذه الثورة فشلت عندما وصلت المراسلاتُ بين ملك البرتغال والقائديْن الأندلسيّين إلى *فيليب* الرّابع؛ حيث وشى بهما الخادمُ *سانشو* الذي كان ينقل هذه المراسلات بتكليفٍ من سيّده الراهب *نيكولا بلانكو* المقرب إلى الملك البرتغالي، فتمّ إعدام المركيز *أباموتني*، وصودرت أموال الدّوق *ألفونسو*، وقُتل طاهر الحرّ غدرًا لتنتهي آخر محاولات بعثِ دولة الإسلام في الأندلس، ومع ذلك استمرّ لسنين ممتدّة تمسّكُ الأندلسيّين بإسلامهم سرًّا، وظهرت شواهدُ على ذلك منها إحراق محاكم التّفتيش ثمانية وعشرين أندلسيًّا بتهمة الهرطقة عام 1728 ميلاديّة الموافق لعام 1140 هجريّة، وبعدها بأكثر من خمسين عامًا تمّ العثور على مسجد سرّي بقرطاجنة كان يجتمع فيه الأندلسيّون للصّلاة، وانخرط عددٌ من الأندلسيّين في حياة الغجر الرّحّل، وهم مَن ابتكروا الغناءَ الغجري المعروف بأصوله الأندلسيّة *الفلامنكو*، والذي كان فنًّا غنائيًّا سريًّا نظرًا للقوانين التي كانت تمنعُ الغناء والموسيقى الموريسكية حتّى عهد *كارلوس* الثّالث، ولي مؤلّف يتناولُ هذا الموضوع باستفاضة، كما تعدّدت شهاداتُ الرّحالة والسّفراء الذين وردوا على المدن الأندلسية مؤكّدين على بقاء الوجود الإسلامي بها، وآخرُهم الرّحالة الإنجليزي *فورد* الذي زار منطقة أجيجر عام 1262 هجريّة والموافق للعام 1847 من الميلاد،

فقال في شهادته إنّ أجيجر الإسلامية عاصمة البشرات محاطةٌ بالجبال رغم أنّ أهلها يتكلّمون الإسبانية، إلّا أنّ نصفهم يدينون بالإسلام، وتنظر نساؤهم ذواتُ الخدود الوردية والشعر والعيون السّود بشراسةٍ إلى الغريب الذي يمرّ من وقتٍ بعيد لآخر من نوافذَ لا تزيد عن كونها ثقبًا من رأس الواحدة منهنّ، بالإضافة إلى العائلات التي تحتفظ إلى الآن بأسماء تدلّ على أصولها الإسلامية، فصادفت في مالقة وغرناطة وإشبيلية أسماء عائلية أتذكّر منها بنيغش وابن أميّة وابن جمعة وابن النجار والذكري والنائم في عربة القطار.

فضحكَ *روبير*، ثمّ قال:

- مَن!!؟

ردّ *بلاس* وهو مغمضُ العينين، والابتسامة تلوح من شفتيه:

- أنا النّائم في القطار، لا توقظني قبل دخول كازابلانكا.

الفصلُ السّابع عشر

إنّ سطوتَك قد ظهرتْ في خروجِك مِن أرضك

توالتِ السّاعات والرّفيقان نائمان، حتّى وصل القطار إلى محطّة الدار البيضاء، وما أنْ نزلا منه حتّى وجدَا «خليل» في انتظارهما، ففرح *بلاس* بقدومه، وصاح قائلًا:

- *أولا دون خليل دو تانخير*، مرحبًا بصديقي الطّنجاوي.

فعانقه خليل، ثمّ سلّم على *روبير*، وحمل معهما إحدى حقائبهما وتوجّه بهما إلى سيّارة الأجرة التي كانت في انتظارهم، فطلب *بلاس* منه المرورَ على مكتب البريد، وعنده نزل، وبعد دقائق عادَ إليهم وعلى محيّاه رسمت سعادةُ الدّنيا بأكملها، فقد وصله تلغرافٌ من زوجته تطمئنه على حالها وحال أهله.

ومع اقتراب السّيارة من الميناء توجّه *روبير* إلى خليل بالسؤال:

- هل ستقلّنا المركب الصغيرة إلى السفينة؟

فأجابه خليل:

- لا، فلحُسن الحظّ السّفينةُ راسية على رصيف الميناء لتتزوّد بالماء والوقود.

فقال *بلاس*:

- *موي بيان*، جيّد جدًّا، هذا أفضل بكثير.

ونزلوا من سيّارة الأجرة ودخلوا الميناء بعد إتمام إجراءات الجوازات، ثمّ صعدوا على متن السّفينة، وبعد أن أرشدهما خليل إلى كبينتهما أخبرهما أنّ الباخرة ستبدأ رحلتها بعد ساعتيْن، وأنّه سيكون في انتظارهما في المساء ليسهروا معًا كما اعتادوا في رحلة قدومهم من لشبونة.

وبالفعل، قضى الأصدقاءُ الثّلاثة سهرتَهم على سطح السفينة، فكانت أمسيةً رائعة فوصفَ *روبير* لخليل جمالَ وسحرَ ليلِ مراكش، وحكى له أحداثَ رحلتهم لأغمات، ولم تخلُ السّهرة من الفَكاهة والمرح الذي اعتادوا عليه سابقًا، حتّى غلبهم النّعاس فنزلوا إلى غرفهم.

في صباح اليوم التّالي، وبعد تناولهم وجبة الإفطار، وقف الرفاق الثلاثة على جانبِ أيمن السفينة يتأمّلون منظرَ البحر الهادئ، ودار حديث بينهم مالَ إلى الاهتمام الذي أصبح يجمعهم وهو التّاريخ، فبادر *روبير* بالسؤال قائلًا:

- كنتُ أريد أن أعرف ماذا حدثَ بعد استتباب الأمر للإسبان والبرتغاليّين في شبه الجزيرة الإيبيرية، هل أضحتْ بلادُ المغرب فريسةً سهلة لأطماعهم الاستعمارية والتوسّعية؟

فأجابَ خليل:

- بلى يا صديقي، فبلادي هي أوّلُ مَن أوقف هذه الأطماعَ في زمن مبكّر، ومعركة وادي المخازن هي خيرُ دليل على ذلك.

فقال روبير:

- لم تحدّثني عنها من قبل يا صديقي!

فردّ خليل وهو مبتسم:

- لأنّ اهتمامك بالتّاريخ لم يبدأ إلّا بعد مصاحبتك لدون *بلاس*.

فضحكَ الجميع ثمّ بدأ خليل يروي قصّة هذه المعركة قائلًا:

- لمّا تربّع *سبستيان* على عرش الإمبراطورية البرتغالية عام 964 للهجرة، والموافق للعام 1557 من الميلاد، والتي كان يمتدّ نفوذُها على سواحل إفريقيا وآسيا والأمريكتيْن، فعزم على القيام بحملة صليبيّة على الدّولة السعدية التي كانت تحكم المغرب الأقصى خلفًا للدّولة المرينية خوفًا من اتّحادها مع العثمانيّين لاستعادة الأندلس من جديد، فاستغلّ الصّراع القائم على الحكم بين أبي مروان عبد الملك الذي تغلّب- بدعم من العثمانيّين- على ابن أخيه المتوكل، والذي استنجدَ به لينصره على عمّه، فعزم على مساعدته مقابلَ حصول البرتغال على شواطئ المملكة المغربية، فاستعانَ بخاله ملك إسبانيا فأمدّه بعشرين ألف مقاتل، وانضمّ إليه ثلاثةُ آلاف محارب ألمانيّ، ومثلهم من إيطاليا، ودعّمه البابا بأربعة آلاف آخرين، وبألفٍ وخمسمائة فرس، واثني عشرَ مدفعًا، ونقل *سبستيان* هذه الحشودَ الكبيرة على متن نحو ألف مركب من ميناء لشبونة حتّى عبرت إلى العدوة المغربية، فأفرغت حمولاتها بأصيلة، وعندها أدرك *سبستيان* رسالةَ عبد الملك الذي أرسلها إليه من مراكش يقول له فيها **«إنّ سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك وجوازك العدوة، فإنْ ثبت إليّ نقدم عليك، فأنت نصرانيّ حقيقيّ شجاع، وإلّا فأنت كلب بن كلب»**، فانتظر *سبستيان* قدومَ جيش

المغاربة فتحرّك له عبد الملك على رأس جند مراكش، وأخوه أحمد بجند فاس ونواحيها، حتّى التقيا قرب القصر الكبير الذي اتّخذها عبد الملك مقرًّا لقيادته، ثمّ استدرج *سبستيان* برسالة أخرى قال له فيها «**إنّي قد قطعت للمجيء إليك ستّ عشرةَ مرحلة، فهلاّ قطعت أنت مرحلةً واحدة لملاقاتي؟**»، فتحرّك إليه *سبستيان* بقوّاته رغم نصيحة قوّاده بالانتظار بأصيلة السّاحلية قرب المؤن والعتاد، فعسكر بوادي المخازن أمام الجيش المغربي، وأثناء اللّيل تمّ نسف الجسر الذي كان المعبرَ الوحيد للوادي، وفي الصّباح- ورغم المرض الشديد- قاد السّلطان عبد الملك جيشَه، وبدأت المعركة بتبادل الطّرفيْن قذائف المدفعية، فقاد أخو السّلطان وخليفته أحمد المنصور الذّهبي مقدّمة الجيش المغربي، وانقضّ بها على مؤخّرة البرتغاليّين مُشعلًا النّار في بارود مدافعهم، ثمّ هاجم مقدّمتهم وقلبهم فقضى على الكثير منهم، فقتل *سبستيان* مع العديدِ من نبلاء بلاطه، والآلاف من مقاتليه، وغرقَ حليفُه المتوكل في نهر وادي المخازن وهو يحاول الهروب، كما توفّي السلطان عبد الملك مع انتهاء المعركة من فرْط الجهد الذي بذله في قيادة الجيش رغم اشتداد مرضه، فسمّيت بمعركة الملوك الثّلاثة، وترتّب على هزيمة البرتغاليين وقتلِ ملكهم انهيارُ دولتهم التي دخلت مرغمةً تحت سيادة الإسبان.

هنا عقّب *روبير* قائلًا:

- الآن فقط فهمتُ المصطلح الدّارج هناك المعروف بظاهرة *السبستيانيزم* فهي بالتّأكيد جاءت من أمل البرتغاليّين في عودة ملكِهم ليحرّرهم من الإسبان.

فقال خليل:

- نعم هذا صحيح، ومع مرور السنين كان كثيرٌ من المحتالين يقدمون إلى البرتغال يدّعي كلّ منهم أنّه *سبستيان*، فما رأيكم عندما نصل لشبونة أنْ تعلنوا أنّي أنا *سبستيان* المنتظر؟»

فضحكَ الجميع....

وأثناء تبادلهم أطرافَ الحديث وانتقالهم من موضوع لآخر، لمح خليل السّاحل المغربي يلوح عند الأفق فقال:

- *ميرا مي أميجوس*، انظرا يا أصدقائي، نحن الآن نبحر من أمام سواحل سلا، هنا يا رفاق كانت جمهوريةُ القراصنة التي أرعبت أوروبا لعقود.

فاندهشَ *بلاس وروبير* فسألا «خليل»:

- جهورية قراصنة!! كيف ذلك؟

فأجابهما خليل قائلًا:

- سأخبركما يا صديقاي، فبعد أنْ طردت إيزابيلا الأندلسيّين من بلادهم عبر هؤلاء المهجرون البحر، وسلك عددٌ كبير منهم الطرقَ إلى مدينة تطوان وفاس وسلا، ولمّا كانت غرناطة الحصن الأخير الذي يقع حائلًا بين الإسبان والبرتغاليّين من جهة وبين بلاد المغرب العربي من الجهة الأخرى، فبسقوطها المأساويّ مالت كفّة القوّة صوب إسبانيا والبرتغال فشرعوا في الانتقام ممّن اعتبروهم محتلّيهم السّابقين، المغاربة،

فخلال ربع قرنٍ من الزمان احتلّوا جميع الثّغور المغربية عدا تطوان وسلا، وكان لهذا الانقلاب السّريع في موازين القوّة واقعَه المؤلم في نفوسِ أهل المغرب الذين تربّوا عبر الأجيال على مجابهة هذه المَمالك النّصرانية والتفوّق عليها منذ الفاتحين الأوائل للأندلس، ثمّ المرابطين والموحّدين إلى المرينيّين، فالتحم شعورُهم الوطني الجريح بإيمانهم الدّيني فظهرت الفتاوى التي تدعو للجهاد من أجل تحرير الثّغور، والتي قادها المجاهد محمد العايشي من القاعدة التي أنشأها بأزمور ثمّ سلا التي أعلنها إمارةً مستقلّة عن الدّولة السعدية التي كانت تحكم المغرب، فدعي له على منابر المساجد بالوليّ الصّالح سيدي محمد العايشي بدلًا من السلطان السّعدي زيان الناصر، ومع بداية عام 1018 للهجرة والموافق للعام 1610 للميلاد، توافد على سلا أعدادٌ كبيرة من الأندلسيّين المهجّرين ليسكنوا على الضّفة اليمنى لنهر أبي الرقراق، ولكن جزءٌ من سكان المدينة المحافظين لم يرحّبوا بهم نظرًا لتأثّرهم بالعادات والملابس القشتالية المتحرّرة، وعند الضفة اليسرى للنّهر وفد الهورناتشيون وهُم الأندلسيّون المهجّرون من مدينتهم هورناتشوس الأندلسيّة، فأصلحوا البيوت المخربة وسكنوها مع أسَرِهم، وأسموها قصبة سلا، واستعان بهم السّلطان زيان بسبب مهارتهم المعمارية ليبنوا أسوارَ المدينة، وشجع استقرارهم بهذه المنطقة على توافدِ مجموعات أندلسيّة أخرى سكنت سلا الجديدة، الرباط الحالية، وبذلك تشكّلت ثلاثُ مناطق سكانية مستقلّة، ولكن في العام1022 للهجرة والموافق للعام 1614 للميلاد، انتقل المجاهدُ العايشي من أزمور إلى سلا، فبايعه كبراءُ هذه المناطق على

مناصرته ودعم حركته الجهادية، وفي نفس العام احتل الإسبان المعمورة وهي المهديّة حاليًا، فغادرها قراصنتها لينضمّوا إلى إخوانهم بسلا التي أضحتْ قبلةَ الغاضبين على الإسبان والسّاعين للثأر منهم، فانبعثت الحياةُ من جديد في مدينة يعقوب المنصور رباط الفتح التي كانت خربةً ليسكنها ما يقاربُ أربعة آلاف نسمة لتصبح سلا الجديدة.

فسأله *بلاس*:

– ولماذا سمّيت بجمهورية سلا، أو جمهورية القراصنة؟

فأجاب خليل قائلًا:

– كان الهورناشيون في الأندلس جماعةً متماسكة متعاونة فمكّنها ذلك من الحصول على ترخيصٍ لحمل السّلاح الناري الذين كانوا يبْرعون في استخدامه، وعند نزوحِهم إلى الضفّة اليسرى لنهر الرّقراق أهّلهم تفوّقهم لقيادة باقي الأندلسيّين ثمّ سعوا إلى التحرر من وصاية السلطان عليهم، فقرّروا إعطاءه عُشر غنائمهم من القرصنة، ثمّ طردوا القائدَ المعين من قِبَله كحاكم عليهم، وأنشأوا نظامًا جمهوريًّا في نفس عام سقوط المعمورة، واتّخذوا هلالًا أصفرَ على خلفية مثلثة حمراء كرايةٍ لدولتهم، وشكّلوا مجلسًا للحكم من اثني عشرَ عضوًا من كبرائهم يجتمعون بقصر القصبة يترأسهم رئيسٌ يحمل لقبَ الأمير الكبير، وكانوا ينتخبون سنويًّا قائديْن لحكم سلا القديمة والقصبة، وكان اقتصاد الجمهورية يعتمد على واجبات الجمارك وضرائب المرسى ورسوم الصيد، وقبل كلّ ذلك غنائم القرصنة، وكان يصل للسّلطان جزءٌ ضئيل من هذه العائدات،

ثمّ تغيّرت التركيبة السّكانية لضفتي أبي الرقراق مع تقلّص عدد سكانه الأصليّين أمام توافد الكثيرِ من الأندلسيّين والأتراك على مدار قرنٍ كامل من الزّمان ليطالب الوافدونَ الجدد المشاركة في إدارة الجمهورية والعدالة في توزيع الثروات التي كان يستأثر الهورناتشيون بمعظمها لتندلعَ بينهم الخلافات والصّراعات، ومع ذلك جمعتهم القرصنة بفضل عوائدها الكبيرة التي كانت تعود بالنّفع على الجميع، فكانت الغنائم توزّع بنسبة عشرة بالمائة للسّلطان وخمسة وأربعين بالمائة للمجهز، وهو الرّيس الذي يموّل الرحلة القرصانية، والخمسة وأربعون في المائة الأخرى فتوزّع على طاقم المركب المقرصنة كلّ طبقًا لمهامّه، ورغم العوائد الضّخمة إلّا أنّ الدّافع الرئيسي كان رغبة الأندلسيّين في الانتقام من ظلم الإسبان الذين سلبوا منهم بلادهم وممتلكاتهم فتطوّر نشاطهم لمهاجمة القرى الساحلية الإسبانية مستهدفين الصيّادين العزّل من السلاح.

فعقّب *بلاس* قائلًا:

- نعم يا صديقي، فقد قرأت مرّة للكاتب الشهير «*سيرفانتيس*» صاحبِ رواية «*دون كيشوت*» تعليقًا على ذلك يقول فيه «**إنّ أكثرَ من صيّاد يرى شروق الشّمس في تطوان بعد رؤية غروبها في إسبانيا**»

فأكملَ خليل كلامه قائلًا:

- نعم، واستفاد التجّار اليهود كثيرًا من استثمارهم في هذا النشاط حيث كانوا يجنون عائداتٍ طائلة من غنائم القرصنة بعد تمويلهم السّفن بما يلزمها من بارود وذخيرةٍ للمدافع وأغذية للقراصنة، وكانت مراكبُهم

تستهدف السّفن الإسبانية العائدة من مستعمراتهم بأمريكا وهي محمّلة بخيرات تلك البلاد.

فسأل *روبير*:

– ومِن أين كانوا يحصلون على سفنٍ حديثة تضاهي وتتفوّق على نظيرتها الإسبانية المعروفة بتقدّمها في ذاكَ العصر؟»

فأجابه خليل:

– استغلّ قراصنة سلا عداءَ الهولنديّين لإسبانيا فاشتروا من تجارهم كلّ ما يلزمهم من مراكب حربيّة مجهّزة بالسلاح الخفيف والثقيل ضامنين لسفن هولندا سلامةَ الملاحة في مناطق نفوذهم، ورغم اعتبار حوض أبي الرقراق بؤرةَ قرصنة شديدة الخطورة لدى ملّاحين ذلك العصر إلّا أنّه كان يفدهم الكثيرُ من السفن التجارية غير المفاوضين على تحرير الأسرى، وكان يقام بسلا الجديدة الرّباط الحالية سوقٌ للرقيق، وأمام سواحل سلا عام1013 هجريّة والموافق للعام 1605 للميلاد، التقى البحّار الإنجليزي الشّهير *جاك سبارو* ببحّارةٍ إنجليز وألمان انضمّوا اليه قبل أن يعلنَ إسلامه ويغيّر اسمه إلى يوسف ريس، ويتّخذ من تونس قاعدةً لعملياته البحرية ضدّ السّفن الأوروبية، وينقذ آلاف الأندلسيّين الفارّين من جحيم محاكم التفتيش، وكان أحيانًا يرسو بسفنِه بسلا ليفرغ غنائم غزواته بها، واعتبرت الفترة بين عام 1045 هجريّة والموافق للعام 1636 للميلاد والعامين التّاليَين لها هي أزهي فترات قرصنةِ السّلاويّين حيث في يوم واحد أسروا مائتي إسبانيّ ضمّوهم إلى ثلاثة آلاف سجين

كانوا قابعين بسجونهم المحصّنة، وكانت سفن القراصنة العائدة من غزواتها تهتدي إلى سواحل سلا عن طريق منارة صومعة حسان، فتطلق طلقةً من مدافعها احتفالًا بعودتها سالمة، وعند دخولها للنهر تطلق أخرى تحت القصبة لتدعو النّاس لاستقبالها، وبعد إتمام إجراءات الرّسو يتمّ إنزال الأسرى مسلسلين نحو السّجون التي بنيت تحت الأرض قبل أن ينقلوا ليباعوا في أسواق العبيد مع الغنائم الأخرى، وشكّل قراصنة سلا مع إخوانهم من قراصنة الجزائر حالةً من الرّعب في الأوساط الأوروبية حتّى أنّ البحارة كانوا يفضّلون الموت غرقًا عن الوقوع في أسرهم.

فسأله *روبير*:

– وماذا كان ردُّ فعْل حكومات أوروبا حيالَ ذلك؟

جاوبه خليل قائلًا:

– فشلتْ كلّ مساعيهم فمعاهدتُهم مع سلطان المغرب لم تبدِ نفعًا ومحاصرتهم سواحل سلا بسفنهم الحربية لم تعُقْ مراكب المجاهدين الصغيرة من اختراق هذا الحصار ومزاولة مهامها الهجوميّة، ولم تفلح الحملةُ البحرية التي قادها الأسطول البريطاني على سواحل سلا عام 1636 للميلاد في منع سفنهم من الإغارة على سواحل بريطانيا وإيرلندا فكانوا يأسرون السّفن التي يقابلونها ويرغمون قادتَها على الإبحار بها نحْو مرسى سلا، وأيضًا وفي عام1656 من الميلاد فشلَ الأسطول البريطاني بقيادة أفضل قادته الأميرال الشّهير *روبرت بلاك* في مهمّة استرداد أسرى بلادِه، ومحاصرة سلا.

فعاود *روبير* الاستفسارَ قائلًا:

– وأين ذهبت هذه الجمهورية؟

فأجابه خليل قائلًا:

– لم تدُمِ الجمهوريةُ طويلًا، فانتهى وجودها السّياسي بعد توحيد المغرب تحتَ حكم العلويّين، ولكنّ مجاهدي سلا ظلّوا باقين واستمرّت عمليات الجهاد البحري ولم تتوقّف إلّا في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر بعدما وقّع السّلطان مولاي سليمان معاهدةً مع الدول الأوروبية تقضي بإيقاف أنشطة القراصنة البحريّة.

فعقّب *بلاس* قائلًا:

– وبالحديث عن الجهاد البحري يجب أنْ لا ننسي بطولات الأخوان بربروس، خير الدين وعروج اللّذيْن حقّقا عدّة انتصارات على البحريّة الإسبانية، ونقلا بأسطولهما الآلاف من مسلمي الأندلس إلى شمال إفريقيا بين الأعوام 1504 و1510م، كما حرّرا الجزائرَ من الاحتلال الإسباني، وبعد مقتل عروج في معركة تلمسان عام 924 هجريّة الموافق عام 1518 ميلاديّة، بعد عمر حافلٍ بالجهاد البحري استطاع أخوه البطل خير الدين صدّ الغزو الإسبانيٍ البحري على الجزائر، والذي اشتركت فيه أساطيل نابولي وصقلية وألمانيا وهولندا وبلجيكا، فبعد أن أنزلت سفنهم قواتِها على البرّ انقضّ عليها جنودُه وقتلوا الكثير منهم، وأسروا أكثرَ من سبعمائة من أصل عشرين ألفِ مقاتلٍ فرّوا إلى سفنهم فعادوا إلى بلادهم مهزومين، كما أبحر بسفنِه الـ 36 إلىٍ سواحل الأندلس بتكليفٍ

من السلطان العثماني سليم الأوّل، في 7 رحلات عام 1529 قام خلالها بحملِ عددٍ كبير من الأندلسيّين المُضطهدين يقدّر عددُهم بسبعين ألفًا من المَسلمين واليهود، نقلهم إلى الجزائر وتونس، وقام بإسكان الكثيرِ منهم، ووهبهم أراضي ليقوموا باستصلاحها والعملِ فيها، ويعتبر خير الدين هو مَن أرسى قواعدَ دولة الجزائر الحديثة بعد أنْ حرّر كلّ سواحلها من الاحتلال الإسباني.

فقال *روبير*:

– *جراسياس* خليل *إي بلاس*، أشكركم على إطْلاعي على هذه المعلومات الشّيقة، ما رأيكم أن ننزل الآن إلى غرفنا لنستريح قبل أنْ نجتمع في آخر ليالي هذه الرّحلة الممتعة؟

فردّ بلاس قائلًا:

– *سي*، *فاموس آلا س كبانس*، نعم هيّا بنا إلى الكبائن.

الفصلُ الثّامن عشر

معركةُ الحقّ والهويّة

حلّ المساء ليضفي على فضاء المُحيط الواسع هدوءه الخلّاب، وكما تواعدَ الأصدقاء الثلاثة، اجتمعوا في مؤخّرة السّفينة بعد أن تناولوا وجبة العشاء، وأثناءَ ما كانوا يحتسون أكوابَ الشّاي الإنجليزي السّاخن توجّه خليل *لبلاس* بالسّؤال قائلًا:

– حدّثني *روبير* قبلَ لقائي بك عنك كثيرًا، وقال لي إنّك معروف بالأندلسي لكوْنك قياديًّا قوميًّا تكافح من أجل حقوق بلادك، هلّا وضّحت لي ما هي القوميّة الأندلسية؟ وما أهمّ سماتها؟

فأجاب *بلاس*:

– بكلّ سرور، اندثرَ الوجودُ الإسلامي بالأندلس ظاهريًّا بعد طرد النّخبة المورسيكيّة عام 1600م، والتي حافظت على وجوده لمدّة مائة وعشرين عامًا من بعد سقوط غرناطة، ولكنْ بقي هذا الدين حيًّا في قلوب الأندلسيّين، وملموسًا في عاداتهم وتقاليدهم وتصرّفاتهم، وعندما أجْبروا على ترك لغتهم العربيّة ظلّ تأثيرها واضحًا على اللّغة القشتالية التي أرغموا على استخدامها فتكوّنت لهجةٌ أندلسية خاصّة ورثت الكثير من المفردات العربية ومخارج الحروف وتركيبة الجُمل لدرجة لخّصها

أحدُ أصدقائي بإشبيلية بقوله: «كان فرضُ القشتالية كما لو أجبرنا على لبس حذاء غير مناسب وصغير، ممّا ضيّق علينا جداً، فتحوّل الحذاء مع الأيام، وتبدّل، إلى أنْ وصلنا من نظم تفاهم مفروض، وعدم ملائم، إلى نظام يتناسب أكثر مع خصوصيّتنا»، وبرع الأندلسيون المعاصرون في نفس مهنِ أجدادهم كالنّجارة وصناعة الحرير والخزف وزراعة الفواكه وتزيين الحدائق، وبقي طابعُ الأزياء ومصنوعاتها بالبشرات وغرناطة إسلاميًّا، أمّا ادّعاء تبدّل سكان الأندلس بغيرهم ممّن قدموا مِن الشّمال بعد الطرد؛ فقد بيّنتِ الشّواهدُ المعاصرة أنْ لا أساس له من الصّحة فاستمرار النمط الهندسي لبناء الكنائس على شاكلةِ المساجد القديمة وتخطيط الحدائق والمدن والقرى والبيوت، كلّها شواهد على تواصل الحضارة المعمارية الأندلسية المميزة، وقبل ذلك الشخصية الأندلسيّة التي حافظت على سماتها وأوصافها ومحبّتها للإسلام وموقفها من الكاثوليكيّة التي أجبرت عليها قهرًا حتّى ظلّت الأديرةُ والكنائس هدفًا أوليًّا لثورةِ الشّعب عند الفتن، ولك أنْ تعرف أنّ في الجهة الأخرى لهذا المحيط تجسّد مدى عمق وقوّة هذا الإرث الحضاري العظيم بانتشار الآثار الأندلسية في مدن أمريكا الجنوبية بعد أنْ هاجر اليها الأندلسيّون المسلمون مع الجيوش الغازية فرارًا من محاكم التّفتيش الدموية ولكنّهم واجهوا هناك محاكمَ مماثلة، وأوّل موريسكي وصل إلى العالم الجديد كان *«رودريكو دي لوبي»*، زميل *«كولومبوس»* والذي أعلن إسلامَه بعد عودته إلى إسبانيا، والجنرال الإسباني مورسكي الأصل *«استبانيكو دي*

أزمور» الذي احتلّ أريزونا الحالية، وبقي التأثير الإسلامي الأندلسي في التّراث الفنزويلي المكتوب يظهر من حين لآخر، ومن أهمّه ما أنتجه الكاتب الفنزويلي «*دون رافائيل دونقالس*» الذي ولِد عام 1878م، والذي أظهرت مؤلفاته اعتزازه بجذوره الأندلسيّة الإسلامية، والتي افتخر بها أيضًا الكولومبيّون ونبغَ مِن بينهم في القرن التّاسع عشر أخصائيون في الحضارة الإسلامية مثل الدون «*أزكيل أوريكواشا*»، وبعد استقلال بلادهم التي كان يُطلق عليها اسم *نويبا جرانادا*، أي غرناطة الجديدة، ثمّ تحوّل اسمها إلى كولومبيا، وبعد ضعف قبضة الكنيسة على البلاد تشجّع بعض الكتّاب مُعلنين افتخارهم بموروثهم الحضاري الإسلامي، وأشهرُهم «*دون روفينو*» الذي درسَ اللّغة العربية وآدابها وأيضًا تجد هذا التراثَ الأندلسي في البيرو والأكوادور وتشيلي جليًّا في فنّ العمارة والأدب الذي جسّده كاتب البيرو الشهير «*دون ريكاردو بلما*» في روايته «**افعل الخير ولا تبال**» المأخوذة من حياةِ الأمير إبراهيم جدّ الأمير الأموي مروان الثاني، كما طبق الكاتب التشيلي المعاصر «دون بدرو برادو» القافية العربية على الشّعر الإسباني، أمّا البرازيل فقد هاجر إليها الكثيرُ من الأندلسيّين رغمَ محاولات المنع التي فرضها البرتغاليّون الذين أقاموا بها محاكمَ تفتيش عام 1594م، والتي قامت بحرق الكثير بتُهمة الإسلام، وإلى يومنا هذا توجد هناك عائلاتٌ تعتزّ بأصولها الأندلسيّة محتفظين في بيوتهم بمصاحفَ توارثوها عن أجدادهم، أمّا الأرجنتين فاستقبلت أراضيها أعدادًا من الأندلسيّين الهاربين من بطش الكنيسة، ويُعتقد أنّ رعاة القاواشو في بواديها من نسلهم، وفي القرن التّاسع عشر

افتخر الكاتب الأرجنتيني «*دومنغو سارميانتو*» بانتسابه لبني الرّزين الذين سكنوا شرق الأندلس.

فقال خليل:

– سبحان الله، عندما ذهبت على متْن إحدى السّفن إلى بنزرت اكتشفتُ أيضًا أنّ معظم سكّان هذه المدينة أندلسيّ الأصل، وعلمت أنّ تونس كانت مقصدًا لهجرات أندلسية عبر أزمان متعاقبة، وأنّهم شكّلوا رافدًا حضاريًّا مهمًّا ومتميّزًا كمًّا وكيفًا؛ حيث ساهموا في تقدّم البلاد معماريًّا وزراعيًّا وتجاريًّا وثقافيًّا ونفسُ الشيء اكتشفتُه عندما رستْ سفينتنا في ميناء وهران لعدّة أيّام، فاكتشفت أنّ عُشْر سكّان الجزائر من أصول أندلسية ويتمركز معظمُهم في العاصمة ومدن تلمسان ووهران وبجاية وبليدة وعنابة، وأنّ كثيرًا منهم ينتمون إلى عائلاتٍ أندلسية شهيرة مثل بني الأحمر، وأنّ وجودهم كان له تأثيرٌ واضحٍ في اللباس والطّبخ واللّهجة، خاصّة في تلمسان والمدن التي تجاورها.

فعقّب *بلاس* قائلًا:

– الأندلسي له أثرُه الإيجابي أينما وجِد، فهو ابنٌ لحضارةٍ تفوّقت في شتّى المجالات على امتداد مئات السنين، وبالعودة مرّة أخرى إلى الأندلس فبقي شعورُ سكّان الشمال سلبيًّا نحو المجتمع الأندلسي بسبب احتلالهم لبلادنا، فإلى الآن ينعتوننا بكلمة «*مورو*» كتصغير لمسلم كشتيمة، ويصفوننا كما يصفون باقي الشّعوب الإسلامية بالكسل والتواكل وحبّ اللّهو، ومنذ سقوط المدن في أيديهم ومصادرة أراضي أجدادنا لصالح

الكنيسة ونبلاء الشّمال، بقي هذا الوضعُ الاستعماري مستمرًّا إلى الآن، فيعمل الأندلسيّون كخدم عند أصحاب هذه الأراضي الذين يستثمرون خراجَها في مناطقهم بإسبانيا لتبقى الأندلس فقيرةً رغم وفرة خيراتها، واجتمعت هذه الظّروف لتكون الهويّة الأندلسية المعاصرة التي عرفت بالقومية الأندلسية التي يمكن تلخيصُها بأنّها الانتماء إلى منطقة واحدة وهي أندلسيّا بتاريخها العريق وسماتها الفريدة وخصوصيتها المميّزة كأمّة واحدة لها أصولها وثقافتها وتراثها الحضاري، وتعمل هذه القومية على المطالبة بحقوق هذه الأمّة المسلوبة والوقوف في وجهِ جوْر وظلم الدّولة المركزية بكنيستها الكاثوليكيّة وإقطاعها الزّراعي الذي يستفيد من خيرات الأندلس دون أن يعود على أهلها بأيّ نفع.

فسأله خليل:

- وكيف نشأتِ القوميّة الأندلسية؟

فأجابه *بلاس*:

- بعد هزيمة التّحالف الفرنسي الإسباني بحرًا أمام الأسطول البريطاني في معركة الطّرف الأغر التي حدثت في أكتوبر لعام 1805م، انقلبت إسبانيا على حليفتها فرنسا، وانتظرت هزيمتها من بروسيا لتغزوها من جهةِ الجنوب، ولمّا سحق *نابليون* الجيش البروسي استمرّ تحالف الإسبان معه، وطمع الطرفان في غزو البرتغال حليفَ وشريكَ بريطانيا، وتقسيم أملاكها بينهم، ولكن لمّا أدرك *نابليون* مدى ضعف حليفِه الإسباني أصرّ على تموضع قوّاتٍ كبيرة له في الأراضي الإسبانية تمهيدًا لغزو البرتغال،

وأدّى الرّفض الشعبي لوجود هذه القوّات بكثافة إلى حدوث تمرّد عام 1808م أجبرَ خلالَه الملكُ الإسباني *كارلوس* الرابع على التّنازل عن العرش لابنه *فيرناندو* السّابع، وفي نفس العام غزا *نابليون بونابارت* إسبانيا، وأجبر *فرناندو* السّابع على التنازل عن الحكم لجوزيف الأوّل أخ *نابليون*، ليصبح ملكًا على الأراضي الإسبانية المحتلّة، والتي سمّيت بإسبانيا النابليونية فأصبحت دولة تابعةً للإمبراطورية الفرنسيّة الأولى، وتبع ذلك أنْ أصدر *نابليون* مرسومًا بإلغاء جميع دواوين التّفتيش بإسبانيا، وتنفيذًا لهذا القرار داهمتِ القوّة العسكرية الفرنسية المسيطرة على مدريد أحد أديرة دواوين التّفتيش، ورغم إنكار رهبان الدّير ونفيهم وجودَ أي رهائنَ بحوزتهم اكتشف أحدُ الجنود وجودَ قاعات سريّة، وبتفتيشها وجدَ بها إناثٌ من مختلف الأعمار يتعرّضون لكلّ أصنافِ التّعذيب الوحشي والقتل البطيء المُمنهج مع عددٍ كبير من الجثث المتآكلة، ورغم استمرار الوجود العسكري الفرنسي بقي الجزءُ الأكبر من إسبانيا رافضًا ومقاومًا وغيرَ مُعترف بجوزيف كمَلكٍ عليهم، وباقٍ على ولائه للملك الإسباني *فيرناندو* السّابع الذي تحالف مع بريطانيا والبرتغال لمواجهة هذا الاحتلال، واستدعى ذلك إنشاءَ مجالس محليّة لتدير عملية مقاومة الغزو الفرنسي، ثمّ تنازلت هذه المجالس عن سلطتها إلى المجلس المركزي الحكومي الأعلى للملكة، والذي تكلّف بتولّي الدّفاع عن الدّولة ضدّ الفرنسيّين، فعندما هزم جيشُ هذا المجلس أمام القوات الفرنسية تابعت الأخيرة تقدّمها نحو الأندلس، فنقل المجلس نشاطه إلى مدينة قادس التي لم يتمكّن الفرنسيّون من احتلالها رغم حصارِها لأكثر من عاميْن

بسبب ثورة سكّانها الأندلسيّين عليهم، واستسلام البحرية الفرنسية لهم، وبها أنشئ مجلسُ قادس الذي افتتح دورتَه في سبتمبر لعام 1810م مؤلَّفًا من تسعة وسبعين نائبًا؛ سبعةٌ وأربعون منهم بدلاء من سكان قادس، وصدّق هذا المجلس على مرسوم يعبّر عن تمثيل الأمّة الإسبانية، وقنّن المجالس العامّة والخاصّة التي تمثّل السّيادة الوطنية، وأرسى مبادئ للحقوق والحريّات، وحدّد سلطات الكنيسة والملك، وأقرّ الدّيمقراطية في المعاملة بين الأفراد والجماعات والشعوب الإسبانية، واعترف- لأوّل مرّة- بالأندلسيّين كأحد الشّعوب الإسبانية ذات الشّخصية المميزة، وسمّي هذا المرسوم بدستور قادس، وترجع أهميّة هذا الدستور في أنّ مبادئه المميّزة تمّ تطويرها والعملُ بها على مدار هذا القرن، وظلّ يمثّل نصًّا مرجعيًّا مثاليًّا، خاصّة بالنسبة للّيبراليّين اليساريّين، كما أثّر كثيرًا في صياغة دساتير *الموندو إسبانيول*، أي الشّعوب الناطقة بالإسبانية في الأمريكتين، كما ساهم في نشر الرّوح الثورية الأوروبية أوائل عقود القرن التّاسع عشر، وبالعودة إلى الأحداث فبعدَ ذلك استطاعت القوّاتُ الإسبانية مدعومةً بالجيش البريطاني من إحراز تقدّم على الأرض، حتّى وصلت إلى مشارف العاصمة مدريد، فغادرها *جوزيف بونابرت*، وبعد انتصار التّحالف الأنجلو إسباني في معركة فيكتوريا الحاسمة انسحبت القوات الفرنسية من إسبانيا في سبتمبر لعام 1813م، ولمّا نصّت معاهدة فالنكاي على استعادة *فيرناندو* السّابع لعرش إسبانيا، وبعد ستّة أسابيع من عوْدته للحكم قامَ بإلغاء العمل بدستور قادس، وإزالة جميع معالمه وقام بحلّ مجلس قادس، وأبطل عملَه التّشريعي، ثمّ قام بتعقب أعضائه

اللّيبراليّين، وقام بسجن جزءٍ منهم ونفي الباقي، كما أرجع السّلطة إلى الملك والكنيسة، فثار الأندلسيّون طالبين عودةَ العمل بهذا الدّستور وهاجموا محاكم التفتيش وأحرقوها، واستمرّت محاولات الرّجوع إلى دستور قادس حين ثار الجنرال طرخوس بالجزيرة الخضراء عام 1831م، وثارت مالقة بعدها بثلاثةِ أعوام، وطرد أهلها ممثّلي الحكومة، فتبعهم عدّة مقاطعات أندلسيّة أخرى، فانتصروا على الجيش الإسباني، وكوّنوا مجلسًا أعلى للثّورة في بلدة أندوخار بجيان، قام بتحرير دستور أندوخار الذي أعلن حكمًا ذاتيًّا للأندلس، ورغم فشل الثّورة عام 1835م إلّا أنّها كانت النّواة الحقيقية لتكوين الهويّة الأندلسية الحديثة، فكان هذا التحرّك الأوّل للأندلس كأمّة واحدةٍ منذ ثورات الموريسكيّين ضدّ الحكم الإسباني المركزي بمدريد، ثمّ عادت إسبانيا إلى فسادها الأوّل مستغلّة خيرات المدن الأندلسيّة، ومطلقة العنان لتجاوزات النّبلاء الشّماليين والكنيسة، ممّا أبقى الأندلس أفقر أقاليم المملكة، فثار الفلّاحون الأندلسيّون عام 1857م في إشبيلية فقضى الجيشُ عليهم بمنتهى الوحشيّة، فانتقل وميضُ هذه الثّورة إلى روح الفلّاح الأندلسي، وبعد مرور أربعة أعوام ثارَ فلّاحو مالقة وغرناطة، ففعلوا بهم ما فعلوا بإخوانهم بإشبيلية، ولكن عام 1868م اندلعت ثورةُ قادس فعمّت كلّ البلاد فهربتِ الملكة إلى فرنسا بعد أنْ هزمَ الجيش النظامي أمام الثّوار الذين طالبوا بتأسيس جمهورية إسبانية اتّحادية تعترف بالأندلس كإقليم يتمتّع بالحُكم الذاتي، كما طالبوا بإلغاء الكاثوليكيّة كديانة الدولة الرسمية، ولكنِ استطاع الجيشُ إعادة السّيطرة على البلاد فعادت الملكة عام 1873م، وبعدها بعام تأسّس

الحزب الجمهوري الاتّحادي الذي تبنّى عام 1883م دستورَ أنتقيرة الذي خطط لإنشاء دولة الحريّات الشخصية، تفصل فيها بين السلطات الثلاثة، التّشريعية والتنفيذية والقضائية، والجيل الحالي الذي أنتمي إليه يواصلُ النّضال بكلّ السّبل المتاحة من أجل الظّفر بحرية الأندلس.

فقال خليل:

– فهمتُ الآن، أتمنّى أن يوفّقك الله لأنْ تكون سببًا في أنْ تظفر الأندلس بجميع حقوقها المسلوبة، وتستعيد حريتها ومجدها وريادتها، وأودّ أن أقرّ أنّي حقًّا استمتعت بصحبتك، وأتمنّى معاودة زيارتك لبلادي قريبًا إنْ شاء الله.

فرَدّ *بلاس* عليه قائلًا:

– أتمنّى ذلك، وأدعوك لزيارتنا بالأندلس، فوجب عليك أن تصل الرّحم بأقاربك هناك يا حفيدَ الفاتحين العظماء.

فعقّب روبير:

– *سي ديوس كيري*، إنْ شاء الله سآتي به معي لزيارتك يا دون *بلاس*، بالتّأكيد سنشتاق لصُحبتك الجميلة.

فقال خليل:

– والآن وجبَ عليكما الرّاحة لتستعدّا للوصول للشبونة في الصّباح إنْ شاء الله.

فقال *بلاس* وهو يستعدّ للنهوض:

– *سي، أستا مانيانا*، فلنلتقِ في الصّباح.

ومع بداية اليوم الجديد، استيقظ *بلاس وروبير* مبكّرًا، وأعدّا حقائبهما وصعدا على سطح السّفينة ليراقبا بداية ظهور سواحل لشبونة عن الآفاق، وبلاس كلّه لهفةٌ للعودة لبلاده وأهله، ثمّ صعد إليهما خليل وهو يحملُ فناجين من القهوة السّاخنة، وقال لهما:

- *بوناس دياس أميجوس*.

فردّا عليه:

- *بوناس دياس*، عمتَ صباحًا صديقنا.

وقال *روبير*:

- فعلًا هو وقتُ القهوة، موشتاس جراسياس، نشكرك على إحضارها.

ومع بداية ظهور المدينة على مرمى بصرهم، رفرف قلبُ *بلاس* من الفرح وكأنّه راية من الرّايات التي تعلو صاري السفينة، ومع مرور الوقت بدأت معالمُ البنايات تزداد وضوحًا، ثمّ خفضت السفينة سرعتَها لتدخل الميناء فتوزّعَ البحّارةُ على السّطح وبدأوا بتجهيز شوامي الرّباط بهدوء ونظام، تحت إشراف ريّسهم، ثمّ اقتربت الباخرةُ من أحد الأرصفة الخالية من السّفن، ووقفت بجواره، وبمهارةٍ وسرعةٍ وصل البحّارة الشّوامي واستلمها منهم عمّال الميناء لترسوا السفينة معلنةً نهاية رحلة *بلاس* وسلامة عودته إلى شبه الجزيرة، بعد أن حقّق مبتغاه، فالتفت إلى خليل، وقال له:

- *تي فوي آه إكستراتار موتشو*، سأفتقدُك بشدّة.

فعانقه خليل وهو يقول له:

- وأنا أيضًا.

فهمس *بلاس* في أذنه قائلًا:

- **لا إلهَ إلّا الله.**

تفاجأ خليل، وارتبك، ونظرَ إلى *بلاس* ليتحقّق من وجهه.

فقال *بلاس*:

- ألنْ تكمل الشّهادة يا صديقي؟ أقول لك **لا إله إلّا الله**...

لمعتْ عينا خليل من الفرح، ثمّ قال:

- **سيّدنا محمّد رسول الله.**

فابتسمَ *بلاس* لخليل وهو يقول:

- عليه الصّلاة والسّلام.

ثمّ حمل حقيبته، وانتظر حتّى سلّم *روبير* على خليل، ثمّ نزلا من على سقّالة السفينة لرصيف الميناء، فالتفتَ *بلاس* للسّفينة فوجد «خليل» يلوّح له بيده فحيّاه مودّعًا، ثمّ توجّه رفقة *روبير* لإتمام إجراءات الوصول، بعدها ذهبا إلى مرأب الميناء لاستلام السّيارة ثمّ توجّها بها إلى مطعم الافاما المجاور للميناء، وتناولا وجبة الإفطار قبل أن يركبا السيارة ليقودَها *روبير* عائدًا برفيقه إلى بلدة إيسلا كرستينا الأندلسية.

وبعد عدّة ساعات، عبرتِ السّيارة للحدود الإسبانية، و*بلاس* يحثّ *روبير* على الإسراع، وكلّه لهفةٌ تزداد كلّما مرّوا على قرية من قرى الأندلس، وعند وصولهم لمشارف إيسلا كرستينا استدار، وقال لروبير:

- يعجزُ كلامي عن شكْرك على حُسن تخطيطك ودعمك ومرافقتك لي، لوْلاك ما كنت تشجّعت على خوض هذه المغامرة الرّائعة، فعلًا كنت نعمَ الرّفيق، *موتشاس جراسياس أميجو*.

فردّ *روبير* وعينه على الطريق:

- *دنادا*، العفو دون *بلاس*، فمرافقتُك شرفٌ لي، وسأظلّ أعتزّ بذلك طوال عمري.

الفصلُ التّاسع عشر

لم أفزْ بعْدُ بالجائزة

اخترقتِ السّيارة شوارعَ المدينة، و*بلاس* يترقّب ظهور منزله عن بعد حتّى رآه، فظلّ بصرُه معلّقًا به وهو يقترب؛ لعلّ حبيبته تظهر من خلال إحدى نوافذه، ولمّا وصل أمامه ودّع *روبير*، ثمّ نزل مسرعًا، وأنزل حقيبته، وعجّل الخطى متّجهًا صوبَ الباب، وقبل أن يطرقه فتحت *أنغوثيات* وكأنّها شعرت بقدومه، وبعد لحظاتٍ من تلاقي أعينهما ارتمت في أحضانه ودموعُ الفرح تنسدل من عينيها الفاتنتيْن، فقال لها وهو يمرّر يده على خصلات شعرها الناعمة:

– ها قدْ عُدت لكي ولنْ أفارقك مرّة أخرى يا حبيبتي....

ودخل الزّوجان إلى المنزل وقضيَا باقي اليوم في جوٍّ من الحبّ والحنين، واستمتعت *أنغوثيات* بتفاصيل الرّحلة التي قصّها عليها *بلاس* على مدار اليوم، كما حكتْ له أهمّ الأحداث التي جرت بالأندلس خلال سفره، وأبلغته بأسماء الأصدقاء الذين داوموا السّؤال والاطمئنان على أخباره، وأعدّت له مائدةَ عشاء راقية تتوسّطها وجبة *البايا* الأندلسية التي يحبّها احتفالًا بقدومه، ثمّ أهداها جلبابًا مغربيًّا يغلب عليه اللّون الوردي الهندي وعندما ارتدته أصبحتْ كالأميرة العربية الفاتنة، وبقيَا يتبادلان الحديث الودّي المعتاد بينهما حتّى غلبَ على *بلاس* النّعاس، فنام على كتفِ حبيبته وهو خالي البال بعد أنْ وفّقه الله لتحقيق حلم من أحلام حياته ليبقى الحلم الأكبر وهوَ نيْل حقوق وحرية الأندلس المَسلوبة.

عند حلول الصّباح، بجوار النافذة التي يخترق زجاجها شعاعُ الشمس الدّافئ، جلس *بلاس* هانئًا ليتناول وجبة الإفطار الذي أعدّته له زوجته مع الشّاي المغربي الأخضر الذي جلبَه معه من المغرب، وعلّمها كيفية تحضيره، والذي لقي استحسانَها، ثمّ توجّه بهمّة ونشاط إلى مكتبه بروح جديدةٍ يغمرها إيمانيّات اكتسبها من رحلته، أجّل إعلام زوجته بها لوقتٍ مناسب، وبعد أنِ انتهى من عمله توجّه إلى مقهاه المفضّل، كازينو الفقراء، فوجد جمعًا من الأصدقاء الذين حضروا من إشبيلية بعد علمهم بعودته من رحلته، فتحوّل المقهى البسيط إلى مجلس مصغّر من مجالس نادي إشبيلية الثّقافي، وبالطّبع طلب منه الجميعُ أنْ يطلعهم على أخبار مغامرته في بلاد المغرب، وبأسلوبه المُمتع رسم بريشةٍ من الجُمل المنمّقة صورةً متقنة لرحلته في خيال أصدقائه، حتّى شعروا بأنهم عايشوا معه أهمّ أحداثها، ثمّ انتقل الحديث إليهم ليطلعوه على آخر الأوضاع في إشبيلية وسائر مدن الأندلس، وحفّزوه ليمثّلهم في استحقاقات سياسيّة قادمة، وفور أنِ استمع إليهم قال بأسلوبه الخطابي:

– لم أفزْ بعْدُ بالجائزة التي من شأنها أنْ تحفّزني أكثر من ذلك فجائزتي أنْ أكون قادرًا على العيش في الأندلس، وأنْ أدرك في الأندلس، وأنْ أكون في الأندلس، وأنْ أكتب باللغة الأندلسية.

فصفّق له الجميع وهم يهتفون قائلين:

– *أوليه، أوليه...*

فوعدَهم باستئناف نضالِه من أجل حقوقهم المسلوبة.

حلّ صيف عام 1925 فسافرَ بلاس وزوجته إلى قشريش ليقضيا عطلة طويلةً بصحبة شقيقه *إيغناسيو* وأسرته ووالدتهما، واستمتعت *أنغواثياث* بسهراتهم الأسريّة المرحة في منزل العائلة، والتي كانت تقصّ عليهم فيها الأمّ ذكرياتِ صباهم المرحة، وبالطّبع كعادتها كان حديثُها يجول في فلك الأندلس وتاريخه وأمجاده كما عوّدتهم على ذلك منذ صباهم، فدائماً ما كانت تذكّرهم بملاحم المورسكيّين وجهادهم للحفاظ على هويتهم والتّضحيات التي قدّموها في ثوراتهم، وتحكي لهم عن جدّها الأكبر طاهر الحرّ، ونضالِه في سبيل عودة رفعة وحرية الأندلس.

وفي صيف العام التّالي، قدم *إيغناسيو* وأسرته ومعهم أبناء أخواله *فرانسسكو سالاس وليوكارديو بريز دي بركاش* وأخت *سالاس* وزوجها الجنرال *سانتالا* ؛ إلى *بلاس* في إيسلا كريستينا ليقضوا عطلتهم السنوية معه، فنظّم لهم رحلة سياحيّة ممتعة على مشارف وادي يانه في جوّ من الهدوء والتمتّع بالطبيعة الأندلسية الخلابة.

ثمّ تجدّد أملٌ جديد في حياة *بلاس* عندما جاءه الخبرُ الذي انتظره لثمان سنوات، فأخيرًا سيصبح أبًا، هذا ما أكّده له الطبيب عندما زار منزله للكشفِ على زوجته بعد أنْ أصابها دوّار، وسقطت وهي تعدّ له الطعام.

ومرّت عدّة أشهر، *وبلاس* يراقبُ نموّ ابنه المنتظر في رحم زوجته وحبيبةِ عمره، وفي شهر الحمْل الرّابع عاد *بلاس* من عمله، فوجد *أنغواثياث* كعادتها في انتظاره عند الباب فقبّلها ثمّ جثا على ركبتيه ليقابل وجهُه بطنَها التي ظهر عليها الانتفاخ، وقال:

-*آولا مي إيخو*، أهلًا بابني كم أشتاقُ إليك، أحبّك قبل أن أراك.

فقالت له *أنغوثيات* بدلال:

- ربّما تكون بنتًا، فإنّي أشعر بذلك.

فنظرَ إليها بحنوّ، ثمّ قال لها:

- إنْ أخذت صفاتك الجميلة سأكون أسعدَ الناس.

فقالت له بصوتٍ يغمرُه الحبّ:

- وإنْ أصبحتَ مثل أبيها ستكون أجملَ الناس.

ومرّت باقي أشهر الحمل، وفي صباح الثّامن والعشرين من شهر مايو لعام 1928 اتّصلت *أنغوثيات ببلاس* في مكتبه لتبلغه بأنّ ألمَ الولادة بدأ يداهمها، فأسرع إليها واصطحبها إلى مستشفى البلدة، والتي بها أنجبت له بنتًا جميلة، فسمّاها «*لويزا خنيزا*» والتي غمرت بقدومها منزلَهما سعادة فأضحتْ منبعًا لابتهاج وسرور والديها.

بعد انقضاء شهر، عاد بلاس إلى المنزل فوْر انتهائه من العمل، فوجد *أنغوثيات* تنتظرُه مُمسكة بمظروفٍ ومرسوم على وجهها ابتسامتها المشرقة التي تبعث دائمًا البهجة والتّفاؤل في نفسه فقال لها:

- ما هذا الخطاب؟ وما سرّ سعادتك؟

فردّت:

- لن تتخيّل مَن بعث به إليك.

فسألها:

- مَن إذا؟

فأجابته:

- صديقُك ورفيق عمرك.

فقال بفضول:

- حيّرتِني يا حبيبتي، مَن هو؟

فضحكتْ بدلال وقالت:

- تصدّقني لو قلت لك إنّ هذا الخطاب من طرفِ المعتمد بن عباد؟

ثمّ ضحكت أكثرَ من ردّة فعْلِ *بلاس* الذي وقف مذهولًا، ثمّ قال:

- مَن!!؟ كيف ذلك؟ أيعقل؟!!

فردّت وهي تفتح المظروفَ لتقرأ ما بداخله وقالت:

- سي، نعم يُعقل، *إسكوتشا*، اسمع...

وبدأت تقرأ محتواه:

- تتشرّف إدارة مدينة شلب البرتغاليّة بدعوة الدون *بلاس إنفانتي بيريث دي بارغاس* لحضور مؤتمرٍ لتكريم الشخصية التّاريخية البارزة «**المعتمد بن عباد**» والذي رأى النّور في مدينة باجة البرتغالية عام 1040م تقديرًا منّا لمجهوداتك الملموسة وكتابك القيّم «**المعتمد آخرُ ملوك إشبيلية**» الذي سلّط الضوء من جديد على هذه الشّخصية القومية التي نعتزّ بها.

أنهتْ *أنغوثيات* قراءةَ الخطاب وهي تراقب السّعادة التي غمرت وجه زوجها وحبيبها الذي جلس على الكرسي المجاور له، ثمّ قال مخاطبًا إيّاها:

- أتدرينَ يا حبيبتي، هكذا قدّر لي أنْ أزور مسقط رأس المعتمد بعد أنْ مكّنني الله من زيارة مدفنِه، فعلًا هذه الرّحلة هامّة جدًّا بالنسبة لي، فهي مكملة لرحلتي للمغرب.

بعد أنِ استراح *بلاس* قرّر عدمَ الذّهاب إلى الكازينو ليجلس بمكتبه بالمنزل، ويجهّز كلمته التي سيلقيها بالمؤتمر، وعندما حلّ وقت العشاء دعته *أنغوثيات* قائلة:

- *بلاس* عزيزي، كنت أنتظرُك في الأسفل للعشاء، ألمْ تنتهِ بعد؟

أجابها قائلًا:

- أعتذر عزيزتي، كدتُ أنتهي.

ابتسمتْ بخُبث أنثويّ، وتقدّمت لتجلس في مواجهته على طرف مكتبه ومالتْ بجذعها باتّجاهه حتّى أنّه أحسّ بنسيم أنفاسها يلفحُ وجهه، فابتسم لذكرياتٍ دغدغت مخيّلته.. فقالت له:

- بتّ أغار من المعتمد فكثيرًا ما يأخذك منّي، ودائمًا ما تكون غارقًا في أبحاثك ودراساتك عنه، وتقضي الوقت معه أكثرَ ممّا معي.

ابتسمَ *بلاس* برقّة لمعرفته بدلالها، وأنّها تمزح، ولا تقصد ما تقول حقيقة، فنهضَ وواجهها مُمسكًا بيدها، ثمّ داعب خصلات شعْرها، وهو يقول:

- يذكّرني المعتمد بكثير منّي، قصّة حبّه العظيم تشبه قصّة حبّي الكبير لك، ثمّ إنّ في حياة المعتمد طرائفَ وعجائبَ كثيرةً رائعة، تعالي سأقصّ عليك بعضًا منها.

فقالت له:

- نعمْ أريد ذلك، فلنذهب لنتناول العشاء وأنتَ تقصّ عليّ هذه الطرائف.

فقال بلاس:

- *فاموس*، إلى العشاء.

وفوْر أن جلس على المائدة، وقبل أن يأكلَ قال لها:

- لقد كان في عهد المعتمد بن عباد لصٌّ شهير يلقّبونه بالباز الأشهب، لم يكن لصًّا عاديًّا؛ بل كان يتفنّن في السّرقة، ومِن حيلِه الكثيرة أنّه سَرق وهو مصلوبٌ على خشبته، فبعد أنْ أمر المعتمد بصَلْبه وأثناء ما امرأتُه وابنتُه يبكيانه مَرَّ عليهم بدويٌّ على راحلته المحمّلة بالثّياب والبضائع، فلمّا رآه الباز الأشهب لم يقاوم فكرةَ السّرقة رغم أنّه مصلوب! فنادى الرّجلَ وسأله: «أتستطيع النزول إلى البئر، وتُخرج منه مائة دينار رَميتها عندما قرَّروا صَلبِي وأتقاسمُها معك؟»، وافق البدوي ولمّا صار في البئر قامتْ زوجة الباز بقطع الحبل وعلّق الرّجل هناك، فسرقت الزّوجة والبنت بضائعَه، وغادرن المكان، وتمّ إخراج البدوي بعد ذلك، ولمّا وصلت أخبارُ هذه الحادثة الطّريفة للمعتمد بن عباد أمر بإحضار الباز الأشهب، وقال له كيف فعلتَ ذلك وأنت مصلوبٌ تنتظر الموت؟! فقال له اللّص:

«لوْ علمت ما في السّرقة من متعة لتخلّيت عمّا أنت فيه من مُلك وتفرّغت لها»، فضحك المعتمد من منطقه ووبَّخه، وأمرَ له بمرتّب يُعِينُه على ترك السّرقة، وتعهّد اللصُّ للمعتمد بالتّوبة، ويحكى أيضًا أنْ مرّ المعتمد بن عباد يومًا مع وزيره ابن عمّار بباب شيخ كبير كثيرِ التندّر والفكاهة، فقال لابن عمّار: «تعالَ نطرق بابَ هذا الشّيخ حتّى نضحك معه» فضربا عليه الباب، فقال: «مَن هذا؟» أجابه ابنُ عباد: «إنسانٌ يرغب أن تصلحَ له الفتيلة» فقال: «لوْ ضرب ابنُ عباد بابي في هذا الوقت ما فتحتُ له» فردّ عليه قائلًا: «فإنّي ابنُ عباد» فقال: «مصفوعٌ ألف صفعة»، فضحك ابنُ عباد حتّى سقط على الأرض، وقال لوزيره: «امض بنا قبل أن يتعدّى الصّفع منك القولَ إلى الفعل» وفي الغد وَجَّه المعتمد للشّيخ ألف درهم وقال لموصلها: «قلْ له هذه من الألفِ صفعة التي كانت البارحة»، ويحكى أيضًا أن غضب المعتمد على ابنه الرّاضي حينما تباطئ في أعمال الحرب، وانشغل بالقراءة.. إلّا أنّ عاطفته غلبته فكتب لابنه يمازحه: «المُلكُ في طيّ الدفاتر فتخلّ عن قود العساكر».

فقالت له:

- الآن استشعرتُ ملامح من روح المعتمد المرحة السّمحة حقًّا، فهي تشبه روحَك كثيرًا، ربّما هذا من ضمن أسباب تعلّقك به.

فعقّب على كلامها قائلًا:

- مُمكن، ومنذُ زمن وهو ملهمي والمساهمُ الأوّل في بلورة جانب كبيرٍ من أفكاري وآرائي.

فسألته:

- وماذا عن شلب؟ ماذا تعرف عن هذه المدينة؟

فأجابَها قائلًا:

- هي مدينة أندلسية جميلة تقعُ في أقصى جنوب البرتغال بالقرب من ساحل المحيط، فتحها المسلمين عام 713م، وكانت من أهمّ مدن الأندلس تحت حكم الأمويّين، ثمّ استقلّت زمن ملوك الطوائف فأصبحت إمارةً مستقلّة يحكمها بنو مزين حتّى ضمّها ملك إشبيلية المعتضد بن عباد والدُ المعتمد إلى ملكه، ثمّ انضوت لسيادة المرابطين، ومِن بعدهم الموحّدين، ولمّا سقطت في يد سانشو الأوّل ملك البرتغال عام 1189م نهض أميرُ الموحّدين أبو يوسف يعقوب لتحريرها سنة 1191م، وبعد أفول نجم الموحّدين آلت إلى ملك لبلة ابن محفوظ حتّى سقطت نهائيًّا في يد ملك البرتغال *ألفونسو* الثّالث عام 1242م، وفي أوْج عز هذه المدينة احتضنت كوكبةً من الشّعراء المهرة مثل ابن عمّار وزير المعتمد بن عباد، أيضًا شاعر فاس ابن حبوس، والقاضي ابن القنطري، ومحمد العامري الباجي الذين نبغوا في عهد المرابطين، والله كنت أتوق لزيارة هذه المدينة التّاريخية الهامّة.

فقالت:

- وهي دعتْك لزيارتها.

قبلَ المؤتمر بيوم استقلّ بلاس سيارته وقادها ليعبر الحدودَ للمرّة الثانية مستعينًا بالخَريطة التي أعطاها له *روبير* أثناءَ رحلتهم للمغرب،

ومع اقترابه من مشارف المدينة وجدَ نفسَه يسير في طريق يخترق واديًا خصبًا ممتلئًا ببساتين البرتقال وأشجار الزيتون والكروم الذي استقدمها العربُ من المشرق لهذه البلاد الجميلة، ثمّ بدأ يصعدُ تلًّا يعلوه المدينة، وفوْر وصوله اقترب من القلعة الحمراء، أهمّ معلَم سياحي تاريخيّ بشلب ثمّ مرّ على متحف *أركيولوجيكو* الذي يعرض خزّان مياه عربيًّا رائعًا يصلُ عمقه إلى 18 مترًا، يُبرهن على براعة نظم الرّي الأندلسية، وبعدها توجّه إلى أحد المطاعم السياحية المطلّة على النهر بجوار السوق الصّغير وتناول وجبة الغداء وهو يراقبُ القوارب السياحية الصغيرة المطليّة بألوان مبهجة وهي تجول بالزّوار بالقرب من الجسر القديم، ثمّ توجّه إلى متحف الآثار الذي بنيَ في عصر الخلافة الإسلامية في القرن الثّاني عشر، وبه شاهدَ القطعَ الأثرية التي تمّ اكتشافُها بالمدينة، والتي تعودُ إلى العصر الحجري الحديث والعصر البرونزي والنحاسي، ثمّ الرّوماني، ثمّ توجّه إلى الفندق المدوّن بالدّعوة ليجد مسئولَ العلاقات العامّة التّابع للمؤتمر في استقباله مرحّبًا به، ثمّ دعاه للجلوس معه بقاعة الاستقبال ليُطْلعه على برنامج المؤتمر، وبعدها صعد *بلاس* إلى غرفته ليستريح من مشقّة السفر.

حلّ صباحُ يوم المؤتمر، فنزل بلاس إلى مطعم الفندق، وتناول الإفطار، ثمّ توجّه إلى قاعة المؤتمر الموجودة بنفس الفندق، وفوْر دخوله للقاعة تلقّى ترحابًا لم يكن يتوقّعه من جميع الحضور، وعندما جاء دورُه ليلقي كلمته أفسحوا له الوقت ليتحدّث باستفاضة عن مؤلَّفه عن المعتمد وعن رحلتِه لاكتشاف قبره، ولقائه مع أحفاده ومعايشته لحياتهم،

ولم يفوّت *بلاس* الفرصةَ لينوّه إلى ضرورة التّواصل مع أندلسيّي المهجر وصلة رحِمِهم وضمّهم مع أندلسي الدّاخل في كيانٍ يوحّد جهود الجميع في الحصول على حقوقهم المسلوبة، كما ذكر الحضورَ بضرورة ربطهم بالقضية الأندلسية ووجوبِ التّواصل مع أندلسيّي أمريكا اللاتينية والمكسيك.

وما أنِ انتهى المؤتمر حتّى عاد *بلاس* إلى إيسلا كرستينا ليتابعَ التزامات عمله التي أجّلها.

مع بدايات عام 1929، تواصل *بلاس* مع زعماء الحركة القوميّة في جليقية كما كان يحافظ على صلتِه الدّائمة بقادة الحركة القوميّة القطلانية، وعاود مراسلة أصدقائه القوميّين الأندلسيّين، وعلى رأسهم صديقيْه «*رافائيل أشوابيلا*» و«*فرانسكو شيكو كانكا*» فتباحث معهما إمكانية مواصلة حِرَاكهم بعد انهيارِ الدّيكتاتورية المتوقّع، وأظهرت رسائله تحوّلًا جديدًا لفكره الذي أصبح أكثرَ نضوجًا ووضوحًا، ظهر في نصّها تخطيطه المستقبليّ لمسار القومية الأندلسيّة، فكان من ضمن ما كتبه:

- إنّ المسئولية متساويةٌ للجميع أمام الهدف المشترك، لكلّ واحد حسبَ مقدوره وكفاءته. يختارُ كلّ واحد نضالَه بحرية في أعمال مختلفة، كلّ حسب ميوله، نريد أن نؤسّس أمّة.

كما كتب:

- هدفُنا هو تحريرُ الشّعب الأندلسي روحيًّا واقتصاديًّا.

وبمنتصفِ عام 1930 دعي *بلاس* لإلقاء محاضرة سياسية في مؤتمر بعنوان المجتمع الاقتصادي لأصدقاء بلدة مالقة، وأثناء فعاليّاته أشاد في كلمتِه بالشّعب الأندلسي وتاريخِه العريق، واستغلّ وجوده بمالقة ليزور أهلَه بقشريش، ولكنّه لم يستطعِ اصطحاب *أنغوثيات* معه لأنّها كانت في الأشهر الأخيرة لحملها الثّاني.

وعندما حلّ الرّابع من أغسطس لنفس العام رزقَهما الله «*مارية*»، والتي زادَهما قدومُها فرحةً وهناء.

دارتْ عجلةُ الأيّام مسرعة حتّى جاء عام 1931 لتتجدّد آمالُ الأندلسيّين بعد قيام الجمهورية الثّانية بإسبانيا معلنةً نهاية الدّيكتاتورية وإزاحة جدار الخوف، فاستعادَ بلاس مساحة الحريّة التي اعتاد العمل في نطاقها، فعادَ بأسرته إلى إشبيلية، وبها استأجر منزلًا بحيّ «*مونتيفيدي*»، وبعد عدّة أشهر.. وفي مساء السّادس والعشرين من نوفمبر، كان *بلاس* على موعد مع لقاءِ مولوده الثّالث، الطّفل الجميل «*لويس بلاس*».

وبعد عدّة أيّام من احتفال الأسرة بقدومه، عزمَ *بلاس* على مواصلة حِراكه السياسيّ فدعا لإعادة تفعيل أنشطة المراكز الأندلسية وترأس المجلس الليبرالي الأندلسي ومجّد بحريّة في التاريخ الأندلسي الإسلامي من خلال خطبِه الحماسية، والتي طالب فيها الأندلسيّين باستعادة هويتهم وتاريخهم المجيد وأرضَهم المسلوبة خيراتها وحفّزهم للسّعي بكلّ جدّ لإزاحة هيمنةِ الكنيسة على الدّولة مدينًا إيّاها على تجبّرها الذي كانت تهدفُ به إلى القضاء تمامًا على هويّة الأندلسيّين، ثمّ أقدم على

معاودة خوض غمار المنافسة الانتخابية وفضل الدخول في حزب يمرّر من خلاله المبادئ الأندلسية دون أن يكون أندلسيًّا، فترشّح عن الحزب الجمهوري الاتّحادي الثوري في الانتخابات العامّة البرلمانية، وركّزت حلمتُه الانتخابية على أهدافٍ رئيسية تمثّلت في التنصّل من الحكم المركزيّ لإسبانيا بمدريد، والتحوّل إلى حكم فيدرالي يمكّن الأندلسيّين من إدارة إقليمهم بأنفسهم، والتخلّص من الزّعامة الفردية، وإصلاح النّظام الانتخابي المعقّد، والعمل على إقامة نظام عادل لإدارة اقتصاد البلاد، وحرية التّعليم والزواج وعدّة مطالب أخرى، ورغم شعبيته الواسعة لم يفزْ بالتّمثيل البرلماني، فأصدر في نفس العام كتابًا بعنوان «**الحقيقة حول مؤامرة الدّولة والحرية الأندلسية**» والذي انتقد بشدّة من خلاله أداءَ الجمهورية في التّلاعب بنتائج انتخابات المقاطعة الأندلسية حيث اعتبرَ السّلطة الحالية مجرّد تابعٍ للهياكل السياسية الديكتاتورية العسكريّة السابقة.

الفصلُ العشرون

دارُ الفرح

قربَ نهاية سنة 1932، انتقل بلاس بأسرته إلى بلدة «كوريا ديل ريو» الإشبيلية الهادئة المطلّة على نهر جواد الكبير؛ ليعمل ككاتب عدل، وبها شيّد منزله بذوقه الخاصّ الذي برزت في أركانه السّمات الأندلسية المميّزة، والذي لم يخلُ من اللّمسات العربية الإسلامية المتمثلة في المخطوطات التي جلبها معه من مراكش، وأضاف إليها ما خطّه بيديه ليزيّن بها أركانَ المنزل الذي أطلق عليه اسم «*كاسا دو لا أليجريا*، دار الفرح»، متفائلًا بأنْ يكون إقامته به انطلاقةً لتحقيق آماله وآمال وطنه الأندلسي.

ومع بدايات عام 1933، توجّه بلاس رفقة أهمّ رجال السياسة الأندلسيّين إلى قرطبة لحضور اجتماعات تحت اسم «جمعية قرطبة» والذي أسفر عن الموافقة على مشروع الأساس لنظام الحكم الذاتي للأندلس تمهيدًا لتقديمه للاستفتاء في المدن والقرى الأندلسية، وظهر من خلال كلمته بالمؤتمر تأثيرُ تجربة زيارته للمغرب، فحاول ربط الحركة الأندلسيّة بالحركات الإسلامية والعربية، وكان من ضمن ما قاله في كلمته:

- أكثرُ من مليون شخص من إخوانِنا الأندلسيّين المطرودين ظلمًا من أرضهم، وقضايا الشعوب لا تموت أبدًا؛ مشتّتون من طنجة إلى دمشق، حسبما أفادني به قبلَ

سنة أحدُ أبطالنا الأشداء، المثقف الدّؤوب خيل ابن أميّة، إنّ ذكرى الوطن أقوى من أنْ تنسى، تتجدّد كلّ يوم، إنّهم-وأقصد هنا الأندلسيّين المطرودين-يشكّلون باعتراف الشّعوب الشقيقة التي تستضيفهم نخبةَ الدّم والضّمير بهذه البلدان، لقد عايشتهم وعانيتُ معهم وتمنّينا معًا الاعتناق المشترك؛ لأنّ هذا الاعتناق إمّا أن يكون مشتركًا أو لا يكون أبدًا .

أعادَ *بلاس* التّجربة من جديد عندما تمّ ترشيحه مرّة أخرى ليخوض انتخاباتِ نوفمبر لنفس العام بمالقة ضمنَ ائتلاف من اليسار الأندلسي الجمهوري الذي شكّله الحزب الجمهوري الاشتراكي الراديكالي، وأصيبَ بلاس بخيبة أملٍ شديدة عندما تكرّر الفشلُ في هذا الاستحقاق الانتخابي، ولكنّه نفّث غضبَه في الموسيقى، فلجأ إلى روبيرتو صديقه عازف البيانو الإشبيلي الذي تعرّف عليه في أحد مقاهي إشبيلية أثناء إقامتِه بها، فتردّد على منزله عدّة مرّات، ونقل إليه فكرة كانت تجول في خاطره منذ أيام الدّراسة الثانوية وهي ضرورة ابتكار نشيدٍ وطنيّ يمثّل الأندلس، وكان قد استوحى لحنَه من الأغنية الدّينية «*سانتو ديوس*، الله المقدّس» والتي كان أهلُ البلدات الأندلسية يتغنّون بها أثناء عملهم بالأراضي الزراعية عند شروق وغروب الشّمس، فكان يجلس بجوار روبيرتو يلقّنه الكلمات التي جهّزها لهذا النشيد ليدمجها مع اللّحن حتّى خرجَ في صورة نشيدٍ وطنيّ يعبّر عن روح الأندلس وطموح شعبها،

وفي نفس الوقت كلّف زوجته بأنْ تخيط له علمَ الأندلس مستخدمةً قطع الحرير التي جلبها من مراكش لهذا الغرض النّبيل، فعكفت يوميْن على حياكتِه بمنتهى الإتقان، وعندما جلس بجوارها وهي تخيطُ أطرافه سألته عن سبب اختيار هذه الألوان، فأجابها بأنّه عندما درس تاريخَ الأندلس الإسلامي علم أنّ هذه الألوان شكّلت الراية التي رفرفت يومًا على مئذنة جامع إشبيلية «منارة الخيرالدا» بعد انتصارِ الموحّدين في معركة الأرك للاحتفال بالنّصر، والأبيض هو لون راية الأمويّين في دمشق والموحّدين، واللّون الأخضر هو لون نبيّ الإسلام والذي استخدمه المرابطون والموحدون في أعلامهم.

وعندما أتمّت *أنغوثيات* حياكة العلم انتظرتْ بلاس عند باب المنزل وقت عودتِه من عمله وهي ممسكةٌ به، فعندما لمَحها وهو ينزل من السيارة وقفَ منبهرًا، فلمعانُ الألوان الخضراء والبيضاء مع نظرة الحبّ التي كانت في عينيْها، أعطت المشهدَ بهاءً وجمالًا غمره بالسّعادة والتفاؤل، فقبّلها وشكرها، ثمّ أخذ العلمَ وذهب رفقة *روبيرتو* إلى النّادي الثقافي بإشبيلية بعد أنْ دعا جميعَ الأصدقاء للحضور، وبالقاعة الرّئيسية جلس *روبيرتو* أمام البيانو، ووقف *بلاس* أمام الجمع، وفرَدَ يديْه ممسكًا بالعلم ثمّ قال في سرّه:

– بسم الله الرّحمن الرحيم.

ثمّ رفع صوتَه قائلًا:

– مي *موخيريس أندلوس*، إخوتي الأندلسيّين استمعوا لهذا النشيد الذي أقترحُه عليكم لنتّخذه نشيدًا رسميًّا لبلادنا، نوسوتروس كريدا أندلوس، أندلسنا الحبيبة.

ثمّ أشار *لروبيرتو* ليبدأ العزف، وبدأ *بلاس* يغنّي مع اللّحن قائلا:

الرّاية البيضاء والخضراء

ها هي تعود بعد قرونٍ من الحرب

لتعلنَ السّلام والأمل

تحت شمس أرضنا الحبيبة.

قوموا أيّها الأندلسيّون

طالبوا بالأرض والحرية

قفوا من أجل أندلس حرّة

من أجل إسبانيا وسائرِ الإنسانية

نحن الأندلسيّين نريد أن

نكونَ كما كنّا في الماضي

رجالَ ضياءٍ للنّاس

أعطوا أرواحَ الرجال . .

قوموا أيّها الأندلسيّون

طالبوا بالأرض والحرية

قفوا من أجل أندلس حرّة

من أجل إسبانيا وسائرِ الإنسانية

وفورَ انتهائه من استعراض النّشيد، وقف الجميعُ وصفّقوا له بحماسٍ رجّ أركانَ القاعة، وتعالت الهتافات القائلة:

- *فيفا أندلسّيا*، تحيا الأندلس.

وبعد أنْ هدأت عاصفة التّصفيق تابع *بلاس* كلامَه قائلًا:

- هذا علمُنا، وهذا نشيدُنا، فلتحيا بلادُنا الأندلس حرّةً عزيزة.

فهتفَ الجميع بحماس:

- *أوليه أوليه...*

ثمّ أشار بلاس للحضور بيديه ليستمعوا إليه، ثمّ قال:

- الأفكارُ تثمر حين تتمّ ترجمتها إلى أعمال، وليس هناك إدراك كاملٌ للمبادئ طالما لم ترتقِ لمنزلة الأفعال.

عقبَ ذلك، أقرّ برلمان الأندلس قانونًا يعتبر هذا النّشيد وهذا العلم رموزًا رسميّة لإقليم الأندلس كامتدادٍ للقرارات التي اتّخذتها جمعية روندا في هذا الشّأن عام 1918.

وتمرّ الأيامُ حتّى يأتي مساءُ الثّالث من سبتمبر لعام 1935، وفي عيادة *سانتا إيزابيل* الواقعةِ في شارع *لويس مونتو* بإشبيلية، أنجبت *أنغوثيات لبلاس* مولودَه الرّابع، ابنته الجميلة «*ألجريا*»، والتي منذُ ولادتها حازت على مكانةٍ خاصّة في قلبه.

وتعاطفًا منه مع قضية إقليم *كتالونيا* الشّبيه في أوضاعه وتطلّعاته لإقليم الأندلس، زار *بلاس* مقرّ شركات *لويس*، رئيس عمومية الإقليم، والذي تمّ احتجازه مع أعضاء حكومته في سجن *البويرتو دو سانتا ماريا*، كما أنّ الحِراك القومي الأندلسي بدأ يستعيدُ زخَمه من جديد على إثر الانتصار الذي حقّقته الجبهةُ الشّعبية في انتخابات فبراير لعام 1936.

الفصلُ الأخير

بين أندلسٍ في الأرض وفردوسٍ في السّماوات

مساءَ يوم دافئ بمنتصف شهر أبريل، كان *بلاس* جالسًا بإحدى مقاهي البلدة، وأثناء ما كان يطالعُ صحيفة محليّة، لاحظ توقّف سيارة أجرة، نزلَ منها مسرعًا شخصٌ حال خشبُ النّافذة وخفّةُ حركته دون رؤية وجهه، حتّى دخل ورفعَ ذراعيه قائلًا:

-*أولا دون بلاس* ها قد رأيتُك مجدّدًا.

فوقف *بلاس* وقال:

- مَن؟ *روبير* صديقي، اشتقتُ إليك كثيرًا، ما أروعَها من مفاجأة.

فتعانقَ الصّديقان عناقَ الإخوة، ثمّ جلسا ليتحدّثا.

فسأله *بلاس*:

- أخبرني، ما أخبارُك وأخبارُ خليل؟

فأجابه *روبير*:

- بخيرٍ والحمدُ لله، هو يبعثُ لك السلام.

فقال *بلاس*:

- سلّمه الله، وأعمالُكم.. أتسيرُ على ما يرام؟

فقال *روبير*:

- للأسف لا، فحركةُ التّجارة تأثّرت بالاضطرابات الأخيرة للبلاد ولكنْ لماذا كلّ هذا التّوتر، وما أسبابُ الصّراع السياسي المحتدم في الفترة الأخيرة؟

أجابَه *بلاس* قائلًا:

- لأوضّح لك سببَ ما نحن فيه الآن من أحداثٍ مُضطربة يجب أن أعودَ لجذور الموضوع.

فابتسمَ *روبير* وقال:

- *أوو دون بلاس*، اشتقتُ لأسلوب سرْدك الشّيق للأحداث، تفضّل.

ضحكَ *بلاس*، ثمّ قال:

- دخلت إسبانيا القرنَ العشرين وهي بلدٌ متضعضعٌ، فقد فقدت سيادتَها على كوبا والفلبّين وبورتوريكو، فكان عام 1898 هو تاريخُ الانهيار النّهائي للإمبراطورية القديمة بخسارة كلّ مستعمراتِها السّابقة ممّا أدّى إلى تفشّي روحِ التّشاؤم بين أفراد الشّعب، ومع ذلك ظهرتْ مُقترحات لإرساء الدّيمَقراطية في المؤسّسات السّياسية والمجتمع كسبيلٍ لنهوض البلاد من جديد، وفي عام 1902 استلم *ألفونسو* الثالث عشر عرش إسبانيا ببلوغه سنّ الرّشد بعد أن أدّى اليمين الدّستوري ضمن منظومة استعادة الملكيّة المتّبعة في إسبانيا في ذلك الوقت.

فاستفسر *روبير*:

- استعادة الملكية؟

فردّ *بلاس*:

– نعم، هو الاسمُ الذي أطلق على الفترة التي بدأت في 29 ديسمبر لعام 1874 عقب انتهاءِ الجمهورية الإسبانية الأولى باستعادة النّظام الملكي في ظلّ *ألفونسو* الثّاني عشر، بعد انقضاء عهد الانقلاب العسكري الذي قام به *مارتينيز كامبوس*، وانتهت هذه الفترة الملكيّة بإعلان الجمهورية الإسبانية الثانية في 14 أبريل 1931، وبالعودة إلى *ألفونسو* الثّالث عشر فقد كانت البلاد في عهدِه تُدار بواسطة بنية سياسيّة تقوم على أساس «*الكاسيكيسمو*، الزّعامة»، وهي شبكةٌ من المحسوبيّة للهيمنة الاجتماعية والسّياسية، والتي كانت مطبّقة في بلدان جنوب أوروبا في هذه الحِقبة مثل إيطاليا والبرتغال، وفشل هذا الملك في مساعيه ومساعي النّخبة السياسية لإصلاح المنظومة السياسية لتجنّب الثّورة؛ بل بالإضافة إلى المُشكلات المتوارثة من القرن التاسع عشر، طرأتْ مشكلات جديدة مثل الحرب في المغرب وبروز القوميّة الكتالونية، وظهور توجّهٍ جمهوريّ أشدّ راديكالية وتنامي حركةٍ عماليّة منظمة، وفي نفس الوقت شهدتِ البلاد حالة تحديث ونموّ اقتصادي ملحوظ أدّى إلى تضاعف عددِ سكّان المدن الرّئيسية، وانخفض معدّل الأمية من ٦٠ في المائة إلى 35 في المائة نتيجة التقدّم في نظم التّعليم المواكبة للنّمو الحضاري، كما حدثَ نموّ في القطاع الزّراعي والصّناعي فتضاعف الدخل القوميّ للبلاد، فنشأ مجتمعٌ جديد نتيجة لهذه التّغيرات في قمّته كانت العائلات الكريمة من الطّبقة البرجوازية التي سيطرت على الصّناعات الكبرى من خلال المصارف، وأثّرت في السياسات الحكومة الاقتصادية، فكانت رأسماليّة

تحميها الدولة، ومع ذلك كانت هناك طبقةٌ أخرى تتسنّم القمّة الحقيقية لهذا المجتمع الجديد.

فتساءل *روبير* قائلًا:

– وما هي؟ وكيف تكوّنت؟

فأجابه *بلاس*:

– هي الأوليغاركية الرّيفية، وهي طبقةٌ جديدة تكوّنت من كبار ملاك أراضي بلادنا الأندلس مِن الذين سطوا عليها بعدَ المصادرات الظّالمة التي جرتْ في القرن التّاسع عشر، وبامتلاك عددٍ قليل من العائلات مساحاتٍ شاسعةً من أراضينا الخصبة، ارتقوا إلى طبقة النّبلاء، أضفْ إليهم رجال الصّناعة والمصرفيّين الذي نجم عن تزاوجهم بطبقة النّبلاء القديمة ظهورُ ما يطلق عليه «كتلة السلطة» والتي ورثت هيمنةَ الطبقات ذات النّفوذ السابقة من الأرستقراطيّين وقادة الكنيسة الكاثوليكية، أضفْ إليها أوليغاركية الرّيف والباسك وكتالونيا الصناعية، ومن هذه الكتلة خرجت النّخبة السياسية التي حكمتِ البلاد ضمنَ نسق *ألفونسو* الثالث عشر الملكي، والذي تنامت ضدّه بذورُ الرّفض والتمرّد على حكمِه، فظهرت مطالبُ الشّعب والطبقات العاملة من خلال منظّمات تطالب بعدم استعبادهم، ومع ارتفاع موجات الرفض التي رجّت أركان السّلطة لجأ الملك والجيشُ إلى الدكتاتورية التي فرضَها الجنرال *ميغيل بريمو دي ريفيرا* في سبتمبر لعام 1923 قبل عام من رحلتنا للمغرب، ولكن بعد سقوطه في بداية عام 1930 تخلّى عنه الملكُ فشاع معاداة الحكم

الملكي في البلاد فعمّت التّظاهرات والاحتجاجات أنحاءَ إسبانيا، فتخلى عن الملك الكثيرُ من أنصاره فتحوّلت النّزعة الجمهورية الضّعيفة غير القادرة على كسْر هيمنة *الكاسيكيسمو*، واقتراح بدائل حقيقية إلى حركةٍ قويّة تضمّ الأحزاب السياسية المختلفة ممّا أدّى إلى انهيار قمّة هذا النظام الظّالم في أبريل عام 1931.

فعاودَ *روبير* الاستفسار:

- وكيف حدث ذلك؟

فردّ *بلاس* قائلًا:

- حاولت السّلطةُ التحكّم بعملية العودة إلى الحالة الطبيعية الدّستورية بعد الإطاحة بالدكتاتورية، فباغتت جميع القوى السّياسية بالانتخابات البديلة في 12 أبريل لعام 1931، فتحوّل هذا الاستحقاق إلى استفتاءٍ بين بقاء الحكم الملكي أو التحوّل للجمهورية للمرّة الثانية، ورغم ثقةِ أنصار الملكية بالفوز أصيبوا بالذّعر عندما تمّ إعلان انتصار الجمهوريّين في 41 عاصمة من عواصم المحافظات الخمسين للبلاد، وفي اليوم التّالي، أعلنت عدّة بلداتٍ قيامَ الجمهورية ممّا جعل *نيسيتو أكالا زامورا* الوزير اللّيبرالي السّابق ورئيس اللجنة الثورية التي ألّفها الجمهوريون والاشتراكيون يدعو الملك لمغادرة البلاد، وبالفعل غادر إلى باريس، ومِن هناك صرّح قائلًا: «عاصفة ستنقضي قريبًا»، فتمّ تعيينُ *أكالا زامورا* رئيسًا لحكومة الجمهورية الجديدة، وخرج النّاس في الشوارع للاحتفال، وتجدّدت الآمال الثّورية في العدالة والإصلاح، وتجدّدت آمالنا في

الأندلس في الاستفادة من هذه الأحداث لاقتناص حقوقنا المسلوبة، وتضمّنت الخريطة التي وضعتْ أمام الحكومة الجديدة إجراءَ انتخابات عامّة، ووضع دستورٍ للجمهورية وتأليف حكوماتٍ تمثيليّة مسئولة أمام البرلمان واحترام القانون والدّستور أسوةً بالأنظمة الديمقراطية التي نشأت في الدّول المجاورة بغرب أوروبا ووسطها، وبالفعل نجح حكّام إسبانيا من الجمهوريّين والاشتراكيّين في تطبيقه في الأعوام السّابقة إلى حدٍّ بعيد، وصدر الدستورُ الجديد في نهاية عام 1931 وبمجرّد إقراره انتخبَ البرلمان «*نيسيتو أكالا* » رئيسًا للجمهورية، و«*مانويل أثانيا* » رئيسًا للوزراء ووزيرًا للحرب.

فسأله *روبير*:

– وما هي أهمّ سمات هذا الدستور؟

فأجاب *بلاس*:

– عرّف الدستور إسبانيا بأنّها جمهورية ديمقراطية للعمّال بجميع فئاتهم، تتميّز بنظام حكم يقوم على الحرية والعدالة، كما أقرّ علمانيّة الدولة، وألغى تمويلها لرجّال الدّين، وشرع الزّواج المدنيّ والطّلاق ومنع الرّهبانيات من التدريس، وأعطى حقّ التّصويت للمرأة، ولكي توطّد الحكومة هيمنتها عملت على ترسيخ تفوّق السّلطة المدنية على الجيش وقادة الكنيسة الكاثوليكية كوْنهما البيروقراطيتيْن اللّتيْن مارستا ضغطًا على المجتمع الإسباني، وبسبب الإصلاحات التي بدأها *مانويل أثينا* في وزارة الحرب، واجهتِ الحكومة محاولتيْن عسكريتيْن انقلابيّتين فاشلتيْن

ضدّها: الأولى كانت في صيف 1931 والثانية كانت أشدّ خطورة في أغسطس لعام 1932 بقيادة الجنرال *خوسيه سانخورخو* الذي كانوا يعتبرونه بطلَ حملتهم على المغرب، فلم يستطعْ أن يستقطب سوى حاميةٍ عسكرية واحدة كانت عندنا بإشبيلية، وبعد فشل حركتِه حُكم عليه بالإعدام، ثمّ عفي عنه في أبريل لعام 1934 فانتقلَ للعيش في البرتغال، كما دخلت الجمهورية في صراعٍ مع الكنيسة بسبب سعْيها لعلمنة الدّولة لتوطيد السّلطة المدنية، أمّا في بلادنا الأندلسية فملّاك الأراضي الزراعية الواسعة التي يعمل فيها مئاتُ الآلاف من العمّال الأندلسيّين الفقراء، يرون في الإصلاح الزّراعي الذي سينتجُ عنْه توزيعٌ عادل للأراضي، ثورة لنزع ملكيّاتهم الشاسعة، فأنا أرى أنّ معظم القوانين التي وضعتها الحكومة وأقرّها البرلمان قوانينُ حسنة النّية، ولكنّها تستعدي عليها كلّ مَن تضرّرت مصالحهم، وهؤلاء يتحفّزون الآن لإسقاط هذه الحكومة متعاونين مع الجيش ورجال الدين الكاثوليك الذين أخذوا على عاتقهم المسئولية المزعومة في الدّفاع عن الدين وعن نظام ملكيّة الأراضي الإقطاعية، فسيطر ملّاك الأراضي والمهنيّون من أهل المَدن على الاتّحاد الإسباني لليمين المستقلّ «*سيدا*»، والذي كرّس نفسه للدفاع عن الحضارة المسيحية ضدّ تشريعات الجمهورية، وسعى لتعديل الدستور، وبعد فوزه بأكبر عددٍ من الأصوات في انتخابات نوفمبر 1933، تولّى الحكم مع جمهوريّي الوسط الذين كان يرأسهم «*أليخاندرو ليرو*» في الفترة بين أكتوبر 1934 وديسمبر 1935، وفي بداية عهدهم قمعت الحكومةُ العصيان الذي قادَه السّاسةُ الجمهوريّون والاشتراكيّون في

منطقة التّعدين المسمّاة «أستورياس»، مخلفة نحو 1000 قتيل من أنصار التمرّد، ونحو 2000 جريح و300 قتيل في صفوف الشّرطة والجيش، مع ذلك لم يتمكّن «*سيدا*» من إيقاف مسيرة الإصلاح، ثمّ خسر في انتخابات فبراير لهذا العام أمامَ ائتلاف الجبهة الشّعبية اليساري، وعلمت مِن بعض المقرّبين أنّ بسبب هذه الهزيمة وعدم تمكّن اليمين الكاثوليكي من الوصول للسّلطة بالوسائل البرلمانية عقدَ اتّفاقًا مع الفاشيّين على استخدام القوّة ضدّ الحكومة الجمهورية.

لأختصرَ لك كلّ ما قلتُه، ما يُشعرني بالخطر هو أنّ هذه الجمهورية رغم عدم اتّفاقي الكامل معها، قد حاولت تغيير أمورٍ كثيرة في وقتٍ وجيز، مثل ملكية الأراضي والكنيسة والجيش والتّعليم وعلاقات العمل، وسعتْ إلى تعزيز آمالٍ كبيرة يصعب الوفاءُ بها، فصنعت لنفسها جمعًا من العدائيّات الخطيرة.

فعاد *روبير* ليسأله:

- وهل مُمكنٌ أن يحدث عملٌ عسكريّ ضدّ الحكومة الحالية؟

فنظر *بلاس* *لروبير* نظرةَ إعجابه به المعهودة، ثمّ قال:

- لطالما أعجبتُ بفراستك، لا أخفي عليك، فأنا أشتمّ رائحة الانقلاب العسكريّ من بعيد، وأنتظر حدوثَه الوشيك، ولكن للأسف أتوقّع أنْ تكون عواقبه وخيمةً، فالمجتمعُ الإسباني أصبحَ مختلفًا تمامًا عنْ مجتمع عام 1923 الذي تجنّب الصّدام مع ديكتاتورية ميغل بريمو، فالشّعب

يتطلّع لحلّ مشكلاته المستعصية، ولن يرضخ مرّة أخرى للديكتاتورية، ولو عاد الحكمُ العسكريّ سيكون كالدبّ الذي سيقتلُ صاحبه كي يزيح ذبابةً من على وجهه.

فقال *روبير*:

– فهمتُك، تقصد أنّه من أجل إنهاء هذا التّناحر السياسي مُمكنٌ أن يشرعَ في القضاء على الجميع.

فارتسمَ على وجه *بلاس* ابتسامةٌ ممزوجة بعلامات الأسى وهو يقول:

– بارك الله في فراستك، هو ذلك للأسف، ولكَ في فاشية إيطاليا ونازية ألمانيا وشيوعية روسيا خيرَ مثالٍ للاستبداد وقمع الحريات بذريعةِ خدمة وعلوّ ورفعة الأوطان.

فعبسَ وجهُ *روبير*، ثمّ ابتسم وهو يهمّ للوقوف وقال:

– للأسف حانَ ميعاد مغادرتي، لقد اقتنصتُ هذا الوقت للقائك، وإنْ شاء الله أراك على خير قريبًا.

فنهضَ *بلاس* وقال له:

– إنْ لم نلتقِ في هذه الدّنيا أتمنّى أن نجتمع في مكان أفضل.

فتغيّرت ملامح *روبير* فقال:

– لماذا تقول هذا؟

فأجابه *بلاس*:

– لا أخفي عليك يا صديقي، يراودني شعورٌ بدنوّ أجلي، فأرغب في توديعِك تحسّبًا للظّروف القادمة.

فقال *روبير*:

– تفاءل خيرًا.

فردّ *بلاس*:

– لا خيرَ أفضل من فداءِ بلادي وقضيتها، وداعًا صديقي المخلص.

فقال *روبير* وهو يضمّ *بلاس* بذراعيه:

– بل إلى اللّقاء قريبًا، إلّا إن كنت لا ترغب في لقائي مجدّدًا.

فضحكَ *بلاس* وعانقه مجددًا، ثمّ انصرف *روبير* مسرعًا خارج المقهى ليركبَ سيّارة الأجرة التي كانت في انتظاره لتنطلق به بعيدًا حتّى اختفى صوتُها تدريجيًّا من أرجاء المكان.

بعد عدّة أيام، وبالتّحديد في الـ 20 من أبريل اتّصل *إيغناسيو* *ببلاس* ليخبره أنّ أمّهما قد توفّاها الله بعد أنْ داهمها المرض أثناء إقامتها معه بمدريد، فسافر له *بلاس* في الحال، وصحب معه زوجتَه وأبناءه ليحضروا معه تأبينَ جدّتهم التي ما أنِ اختلى بجثمانها حتّى صلّى عليها صلاةَ الجنازة كما علّمه الشيخ أنوار الهادي.

مرّت أيّام الحداد، ثمّ عاد *بلاس* إلى *كوريا ديل ريو*، وأثناء تواجده بمكتبه، جلس يتأمّل مخطوطةً معلّقة على الحائط كان قد رسمها بعناية

شديدةٍ منقوشة بكلمة «ولا غالبَ إلّا الله» بنفس طريقة رسمها بالخطّ الكوفي المنحوت في جدران قصر الحمراء بغرناطة، ثمّ انتقل ببصره إلى نقش كان قد خطّه بأنامله على الجدار كرسالة خالدة لابنه، ولكلّ أبناء الأندلس لعلّهم يَعونَ معناها، مكتوبة بخطّ أندلسي مُتقَن لتنطق حروفها بهذه الجُملة: «ابني، أوصيك بكتابِ الله لأنّه أكثرُ قيمة من أيّ مكسب وأيّ ميراث»، ثمّ أطلّ بنظره على المصحفيْن اللّذيْن كان يخبئهما في درج مكتبه منذ عودته من المغرب، فإذْ به يسمع طرقًا على باب الغرفة ثمّ استأذن ودخل عاملُ البريد وسلّمه ظرفًا كبيرًا، فتحه *بلاس* فوجد به دعوة لحضور اجتماع هامّ لجمعيّة إشبيلية في مركزها الثقافي، ولكن هذه المرّة كانت الدّعوة مكتوبة بخطّ ذهبي ومزيّنة برايةِ وشعار الأندلس، وكان موعدُ الاجتماع في الخامس من يوليو لنفس العام 1936.

في صباح هذا اليوم، جهّزت له زوجته أفضلَ بدلة كان يقتنيها، واهتمّت بأنْ يظهر في أبهى صورة في هذا الاجتماع الذي يوحي تصميمُ دعوته بأهميّته.

وبعد أنِ ارتدى ملابسَه الأنيقة دخل غرفةَ مكتبه، وبعدها بدقائق لحقت به زوجتُه لتنبّهه بقرب ميعاد الاجتماع، فوجدته ساجدًا على الأرض فوقفت تتأمّله متأثّرة بهذا المشهد، وبعد أنْ أنهى سجودَه وقف يمسح دموعًا كانت قد انسابتْ على خدّه.

فقالت له:

– ماذا بك! ماذا حدث؟ هل أنت بخير؟

فنظرَ إليها وابتسم ثمّ جلس يرتدي حذاءه.

فابتسمت وتابعتْ كلامها قائلة:

- *يوسابيا*، أعرف أنّك كنت تصلّي، أتظنّ أنّ ما جدّ عليك منذ عودتِك من المغرب يخفَى على زوجة محبّة مثلي؟ استفساري كان عن سببِ دموعك يا حبيبَ القلب ورفيقَ العمر.

ابتسمَ *بلاس* لها وأراحَ ظهرَه على الكرسي، ثمّ قال:

- إذًا.. كنتِ تعلمينَ يا حبيبتي...

فقالت:

- راقبتُك كثيرًا وأنت تصلّي صلاة المسلمين، وكان هذا المشهد يأخذ روحي، ويملؤها بمشاعر نقيّة، ولكن خشيتُ على أبنائنا من الاضطهاد الذي عانى منه أجدادُنا، فكتمت سرّك مثل ما حفظته أنتَ في نفسك، ولكلّ وقت ظرفه، فربّما تتغيّر الظروف ويحين وقتٌ تعلن فيه عمّا بداخلك ويتقبّله المحيطون بنا، مَن يعلم غير *ديوس*، الله....

فنهضَ *بلاس* من جلسته وقبّل رأسَها، وقال:

- *جراسياس ديوس*، الحمدُ لله الذي رزقني زوجةً مثلك، أمّا الدّموع يا حبيبة، فكانت دموعَ الرّجاء والخشوع، فاطمئنّي، أنا بأحسن حال.

ثمّ خرج ليستقلّ السيارة التي كانت تنتظره أمامَ المنزل، وكعادتها خرجت *أنغوثيات* لتودّعه بابتسامة الحبّ والتّشجيع والإعجاب المعتادة.

توجّهت السيارة صوبَ إشبيلية، وعند وصول *بلاس* للنّادي الثقافي نادى أحدُ الحاضرين قائلًا:

– ها قد وصلَ بطلُنا، فارس الأندلس، *بلاس إنفانتي بيريث دي بارغاس.*

وقفَ جمعٌ غفير من الحضور، وصفّقوا *لبلاس* الذي دخل القاعة ليتلقّى التّحية والسّلامَ من كبار وجهاءِ وساسةِ الأندلس، وفوْر جلوسه صاح مديرُ الجلسة بصوتٍ مرتفع قائلًا:

– *بورفافور كالمانتي*، هدوءٌ من فضلكم، لأعلنَ لكم الآن جدول أعمال اجتماعات اليوم،... في البداية يشرّفني أنْ أذيع عليكم هذا الإعلان الهامّ... فبعد اجتماع كبارِ رجال الأسرة الأندلسية في إطار اللّقاءات التّمهيدية لهذا المؤتمر، ودونَ تسجيل أيّ اعتراض لأحدٍ من أعضائها الكرام، تقديرًا لجهود الدّون بلاس في كفاحه السّياسي والأدبي لإيقاظ هويّتنا الأندلسية ونيْل حقوقنا وحرية بلادنا؛ قرّرت جمعية إشبيلية تعيين سيادته رئيسًا فخريًّا للمجلس الإقليمي المستقبلي للأندلسي، هل يريد أحدٌ من السّادة الحاضرين اليومَ تسجيل اعتراضه على هذا القرار؟

فهتفَ الحاضرون:

– *تودوس أستاموس دي أكويردو*، كلّنا موافقون، عاش دون *بلاس* وعاشتِ الأندلس حرّة مستقلّة.

فوقفَ *بلاس* ليحيي الجمهورَ الذي صفّق له بحرارة، فلمعت عيناه من التّأثر، وهي تتنقل بين وجوه الحاضرين التي كانت سعادتُهم صادقة

باختيار زعيم لهم، وليكون أوّلَ قائدٍ أندلسيّ الأصل سيقودُ بلادهم منذ ذهاب المعتمد بن عباد إلى منفاه، ثمّ قال:

- يجبُ على كلّ إنسانٍ أنْ يزرع حديقته بيديه، أنْ يولد كلّ يوم، بمثل هؤلاء الرّجال الأصفياء سيولَد مجتمعٌ مضحٍّ وحرّ.

ثمّ تمّ عزف نشيد الأندلس، ولكنْ هذه المرة تفاجأ *بلاس* بأنّ الجميع وقفوا ينشدونَ الكلمات بمنتهى الحماس الذي رجّ أركانَ القاعة.

بعد انتهاء اجتماعات الجمعية جلسَ *بلاس* مع بعض الأصدقاء ليتحدّثوا حولَ آخر التطوّرات السياسية بالبلاد، ثمّ غادر عائدًا إلى *كوريا ديل ريو* وقلبُه يحلّق بداخل صدره من السّعادة، وكلّه شوق ليبشّر زوجته بمنصبه الشّرفي الجديد، وعندما اقتربت السّيارة من المنزل وجدها تنتظرُه عند الشّباك مُمسكة بابنته الصّغيرة، ثمّ هُرِعت إلى الباب لتفتحه له، وهي تقول:

- *بيان فنيدو سينور بريسيدنتى*، مرحبًا سيادة الرئيس.

فضحكَ وقال لها:

- وكيف عرفتِ؟

ردّت وهي مبتسمة:

- سرعان ما طارت الأخبارُ من إشبيلية إلى هنا، فتمّ إرسال تلغرافات إلى أماكن عدّة بالأندلس، فزوجُ إحدى صديقاتي أبلغها فجاءت لتهنّئني، تستحقّها يا حبيبي، والأندلس تستحقّ قائدًا مثلك، هيّا لتستريح، وفي المساء نحتفل معًا مع أبنائنا.

وباللّيل اجتمعت الأسرةُ حول المائدة التي كان يتوسّطها قطعٌ من حلوى *البستينو* الأندلسية التي كانت أنغوثيات تبرَعُ في إعدادها، وقضوا سهرتَهم في سعادة وحبّ لم يخلُ من المرح الذي اعتاد *بلاس* أنْ يضفيه على أهله عند مجالستهم.

بعد مرور عدّة أيّام، في صباح يوم 22 من يوليو، وأثناء تواجد *بلاس* بمكتبه، تفاجأ بقدوم أصدقائه الإشبيليّين «*رافائيل أشوابيلا* » و«*فرانسكو شيكو كانكا* » فلاحظ على وجوههم علاماتِ القلق والارتباك، فرحّب بهم وأجلسهم، ثمّ سألهم عن سبب زيارتهم المفاجئة! وسرّ قلقهم الواضح.

فبادرَ *رافائيل* قائلًا:

– لقد وقعَ ما كنّا نحذره، بلغنا حدوثُ انتفاضة عسكرية قامت بها القوّات الإسبانية الموجودة بالمغرب، وواكبها تمرّدُ وحدات عسكريّة في البلاد، وانضمّ الجنرال «*غونزالو كيبو دي يانو*» إلى هذا التمرّد مسيطرًا بقوّاته على إشبيلية، ولك أنْ تعلم أنّنا غادرنا المدينة بأعجوبة.

فعقّب *بلاس* قائلًا بحسرة:

– هو الانقلابُ الذي توقّعته، وماذا عن باقي الأندلس؟

ردّ *رافائيل*:

– بلغنا أنّ الجنرال الماسوني «*ميغل كابانياس*» قد فرض سيطرته هو الآخر على سرقسطة، وفي غرناطة قام بعض الضباط المتمرّدين باعتقال الحاكم العسكري «*ميغيل كامبينز*» عندما عارضَ هذه الانتفاضة، أمّا

القوّات المتمركزة بالمغرب فعلمنا أنها انضمّت بالكامل للتمرّد، ويستعدّ الجنرال «*فرانشيسكو فرانكو*» قائدُ الحامية للعبور بعددٍ وفيرٍ من قوّاته، ومعها القوات النظامية المغربيّة التابعة له للعدوة الأندلسية.

فعلّق *بلاس* والحزنُ يغزو ملامحَ وجهه قائلًا بصوتٍ خافت مُرْتبك:

– إذًا.. هو العبورُ الخامس للمغاربة بعد عبور الفاتحين، ثمّ المرابطين فالموحّدين يليهم المرينيّين، ولكنْ هذه المرّة للأسف ليس لنجدة الأندلس، بل لدعم الطّغيان القادم.

فاستفسرَ *فرانسكو* قائلًا:

– وماذا تنصحنا أنْ نفعل؟

جالَ *بلاس* ببصره في الغرفة حتّى وقعت عيناه على عبارةِ «**ولا غالب إلّا الله**»، ثمّ قال لهم:

– يجبُ أن ننتظر ونراقبَ ما ستؤول إليه هذه الأحداث، ويجب أن يكون تواصلُنا بحرصٍ شديد حتّى لا نصبح أهدافًا للمتمرّدين.

في مستهلّ شهر أغسطس، وفي صباح أحد أيّامه الحارّة، استيقظ سكّان إشبيلية على تواجدٍ كثيف لقوات فرانكو الذي كان جزءٌ كبير منها من الجنود المغاربة، وأثناء تواجد *بلاس* بمنزله سمع طرقًا بالباب ففتح فوجد *رافائيل* يقف في ريبةٍ وارتباك، ووجهُه شاحب، فدعاه للدّخول ثمّ سأله:

– ما الأخبار؟

ردّ *رفائيل*:

– الأخبارُ لا تسرّ، لقد نقل *فرانكو* قوّاته من المغرب إلى الأندلس.

فانزعجَ *بلاس* واستفسر بعصبية:

– كيف حدث ذلك؟ فقد بلغني أنّ الأسطول الجمهوري المسيطر على مضيقِ جبل طارق رفض الانضمامَ للتمرّد؟!

فأجابه *رافائيل* قائلًا:

– لقد طلب *فرانكو* العونَ من *أدولف هتلر وبنيتو وموسوليني* فأمدّه الأوّل بطائرات نقلٍ جوّي وأخرى مقاتلة، وزوّده بالمدافع والذّخائر، ثمّ تبعه *موسوليني* وأمدّه بقاذفات وسفن تجارية ومقاتلات، وبعد أن عبرت هذه القواتُ للأندلس، بدأت التقدّم نحو مدريد، أمّا *فرانكو* فيديرُ تحرّكها من إشبيلية مدعومًا من مليشيات تكوّنت من مئات اليمينيّين والفلانخيين الذين كرّسوا نفسهم منذ بداية الأحداث لمهمّات يزعمون أنّ هدفها تطهير وبناء إسبانيا جديدة على أنقاض الجمهورية مستهدفين رؤساء البلديات والحكام المدنيّين وأعضاء المجالس المحلية والنقابية والجبهة الشعبية.

فقال *بلاس* بحسرة:

– كارثةٌ وحلّت بنا، *او ديوس*، الْطُف بنا يا الله... أبلغ الأصدقاء أنْ يلزموا ديارهم، ويوقفوا أيّ نشاط حتّى يزول هذا الكابوس، وأرسل

إليهم تحيّاتي وامتناني الشّديد، وقل لهم إنّه كان لشرف لي أنْ أعمل معهم لصالح بلادنا.

قال *رفائيل*:

- سأفعل، *أستاَ برونتو*، أراك قريبًا يا رئيس بلادنا.

قالها ثمّ غادر مسرعًا، فجلس *بلاس* مكانَه عاجزًا عن التّفكير من حجم الكارثة التي ألمّ بحدوثها.

مرّت الأيامُ *وبلاس* يواظبُ على الذّهاب إلى مكتبه في كلّ صباح، ولكن كان يكتفي بالجلوس ساعةً واحدة منتظرًا وصول أيّ خطابات أو تلغرافات هامّة، ثمّ يعود إلى منزله ليقضي ما تبقّى من اليوم رفقة أسرته، حتّى جاء صباح العاشر من أغسطس، وأثناء توجّهه إلى مكتبه لاحظ انتشارًا لجنود وآليات عسكرية في شوارع البلدة، مع شبه اختفاء تامّ للسكّان من الطرقات، فعاد مسرعًا إلى منزله، وبعد أنِ اطمأنّ على زوجته وأطفاله، أحكم إغلاقَ الأبواب والنّوافذ ثمّ توضأ ودخل مكتبه وبدأ يقرأ في المصحف الذي أهداه له الشّيخ أنوار الهادي، حتّى زال الخوف من قلبه وحلّ محلّه الرّاحة والسكينة، ثمّ أخذ يتجوّل في غرفة مكتبه حتّى وقفَ أمام كتابه «**المعتمد ملك إشبيلية الأخير**»، فأزاح بيده عن غلافه بعضَ الغبار، ثمّ فتح درجَ المكتب فأطلّ بداخله على خنجر عمر الدكالي وبجواره رقعة جدّته الجلدية فأخرجها وجلس يقرأ ما بها بخشوع شديد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ
فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾
إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ
الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ
﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾
بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ
الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ **صدق الله العظيم.**

ثمّ أعادها إلى الدّرج وخرج من غرفة المكتب، وجلس مع زوجته وأجلس أبناءه بجواره، ووضع أصغرهم على ركبتيْه وأخذ يداعبهم ويمرحُ معهم، ومرّت ساعات النهار والأسرةُ ملتفّة حول *بلاس*، يحدثونه ويحدّثهم، ويسألونه في أمورهم الطفوليّة ويجيبهم، وكأنّه شعر أنّه انشغل عنهم بعمله ونشاطه السّياسي فأراد أن يعوّض عليهم وعن نفسه بجلستهم العائلية هذه، وحلّ الليل مسرعًا، وبعد أن تناولوا وجبة العشاء أوصل بلاس أطفاله إلى أسرّتهم وقبّلهم، ثمّ خرج ليجلس بجوار أنغوثيات في غرفةِ الضّيوف وكأنّه يترقب حدوث شيء ما، وبالفعل بعد مرور ما يقربُ من ساعة، سمع صوتَ عربة تقف أمام المنزل أعقبها طرقٌ عنيف على الباب، وشخصٌ يقول بصوت مرتفع:

-*أبري لا بورتا*، افتحوا الباب.

نظرَ *بلاس* لزوجته وقال:

- ها قد وصلوا.

فوقفتْ بارتباكٍ ورُعب، فأمسك *بلاس* بيدِها المرتعشة ونظر في عينيْها، ثمّ قال:

- لا تخافي، لن يصيبني إلّا ما قدّره الله لي، واعلمي أنّك حبّ عمري الوحيد، وأنّي مهما حصل سعيدٌ وراض بكلّ ما حدث في حياتي.

ثمّ توجّه نحو الباب، وفور أنْ فتحه اندفع داخلَ المنزل مجموعةٌ من ميليشيا الفلانخيين بعد أن أمسك به اثنان منهم، وانتشر الباقي في أرجاء المنزل، وهم يتفوّهون بألفاظٍ بذيئة، ثمّ بدأوا بتفتيش غرفة مكتب *بلاس* بمنتهى الهمجيّة، وأخرجوا منه جهازَ الرّاديو الخاصّ به، وعندما استيقظ الأطفالُ مفزوعين من الصّخب الذي أحدثه الجنود، أسرعت *أنغوثيات* لتحضنَهم وتطمئنَهم، وهنا قال قائدُ هذه المجموعة *لبلاس*:

- أنت مقبوضٌ عليك بتهمة التّآمر على البلاد.

فنظرَ إليه *بلاس* وابتسم بثبات، ثمّ قال:

- أيّ بلاد!!؟ أنا أندلسيـــــــّ، وبلادي هي الأندلس.

فصاح قائد المجموعة:

- *كياتي*، اخرسْ، احملوه إلى السيارة ليلقى مصيره المشئوم.

فخطفَ *بلاس* نظرةَ وداعٍ إلى زوجته وأبنائه المرعوبين، وحاول أن يطمئنَهم بابتسامته البريئة قبلً أن يحمله الجنودُ إلى السيارة بمنتهى العنف ويغمضوا له عينيْه بلفافةٍ سوداء لتنطلق العربة إلى المجهول.

لّما رفعوا الغمامة من على عينيه وجدَ نفسَه حبيسَ غرفة، معالُمها تدلّ على أنّها كانت مهجورة، ووجد معتقليْن آخريْن جالسيْن على أرض الغرفة، لم

يستطع التعرّفَ عليهما بسبب ضعف الإضاءة بالمكان، وعند الباب كان يقف شَابٌّ من المليشيا مسلّحٌ بمسدّس، وعندما حاول *بلاس* التحدّث إلى الشّخص الجالس بالقرْب منه صرخ هذا الشابّ المكلّف بحراستهم آمرًا إيّاه بأن يلزم الصّمت وإلّا تعرّض للإهانة والضرب، ومرّ الوقت ونام المعتقلون على الأرض، أمّا *بلاس* فبقي شاخصًا في سقف الغرفة، والتي اختفت شقوقها، وتحوّلت في مخيّلته إلى شاشة سنيمائية ليشاهد من خلالها فيلمًا حزينًا يؤرّخ لكلّ الويلات التي قاساها أهلُ الأندلس منذ سقوط مدنهم الواحدة تلوَ الأخرى، يتأمّل بخياله الحزين تفاصيلَ المحارق والمجازر وآلات التّعذيب في سجون محاكم التفتيش، ثمّ يتغيّر المشهد أمامه، وينتقل إلى سواحل البلاد الجنوبية والجموع مهمومة وموجوعةٌ من صدمة طردِهم من بلداتهم ودورهم وأراضيهم بلا رجعة ليحْمَلوا على السّفن إلى المجهول، ثمّ أغمض عينيْه ليقبض على الدموع التي تبكي مصيرَه المظلم الذي شابه حالَ أجداده......

حلّ الصباح فاستيقظ بلاس على تسلّم شابّ آخر نوبةَ حراسة الغرفة فلاحظَ أنّه أقلّ حدّة من سابقه؛ فطلب منه زجاجةً من الماء فأعطاها له فمرّرها بلاس للمحتجزيْن الآخريْن، ولّما عادت إليه أعطى ظهرَه للجميع وبسرعة توضّأ دون أن يلاحظه أحد، ثمّ أرجع الزّجاجة إلى الشاب المكلّف بالحراسة، وهو يقول له:

– *موتشاس جراسياس مي إيخو*، أشكرك بشدّة يا ابني، *بور فافور*، من فضلك، هلّا أعطيتني ورقة وقلمًا؟

فردّ الشاب:

- وماذا ستفيدُك الورقة والقلم الآن؟ أتعلم أنّهم قد حكموا عليك مع هؤلاء البائسيْن بالإعدام؟

هنا انقبض قلبُ *بلاس*، ولكنّه لم يعطِ لنفسه الفرصةَ لتستسلم لمشاعر الفزع والخوف؛ بل سرعان ما استرجعَ رباطة جأشه ونظر بثبات للشاب ثمّ قال له:

- إذًا.. اعتبرها أمنيةَ إنسان مُقْدم على الموت، هلّا حقّقت لي هذا الطّلب البسيط؟

فقذف له الشابّ ورقة وقلمًا، فأسند *بلاس* الورقةَ على رجله ثمّ شرع يكتب: «*أه مي كريدا إسبوزا*، ... إلى زوجتي الحبيبة وأبنائي الأعزاء هذا ما جاء به حظّي السّيئ، سأعدَمُ خلال أيّام معدودات، أردت فقط إخبارَك أنّني سأموت وفكري مشغولٌ بك وبالصغار. فلتمنحيهم آخرَ قبلة من والدهم. تقبّلي منّي يا زوجتي الحبيبة آخرَ حضن وآخرَ تحية.

بلاس إنفانتي».

ثمّ مدّ يده للشابّ وقال له:

- هذا الخطاب أمانةٌ عندك، فبعد أن تمرّ عاصفة هذه الأحداث وتستتبّ الأوضاع، أوصله إلى زوجتي.

فرقّ له الشاب، ولكنْ سرعان ما تدارك نفسه وهو يستلمُ الخطاب بيديه فقال:

– ولكنْ أحذّرك أن يكون فيه أيّ تحريض سياسي.

فردّ *بلاس*:

– يا بنيّ هذا خطابٌ من زوج لزوجته، اقرأه لتطمئنّ.

مرّ الوقت حتّى بدأ بصيصُ الضّوء الخافت الذي كان يحاول اقتحام الغرفة خلال الصّباح في الانسحاب ببطء حتّى حلّ الظلام بالغرفة مرّة أخرى، فدخل شابّ آخر فصاحَ في المعتقلين الثلاثة قائلًا:

– *ليفانتاريس*، هيّا انهضوا أيّها البؤساء سيتمّ نقلكم إلى كارمونا.

فتمّ اقتيادهم إلى سيارةٍ في حراسة مشدّدة، انطلقت بهم فوْر ركوبهم وبعد ربع ساعة أمرهم الحرّاس بالنزول من السيّارة والسّير أمامها وسط الزّراعات التي كانت على جانبي الطّريق، فأدرك *بلاس* أنّ هذه هي ساحة إعدامه فقرأ أثناءَ نزوله قول الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾.

صدق الله العظيم

وما أنْ نزل حتّى لمح شابّة جميلة تسير وسطَ الحشائش الطويلة وهي تبتسمُ له وتشير إليه أنْ يأتي إليها، فدقّق النّظر أكثر فاكتشف أنّها جدّته في هيئتها وهي شابّة، ثمّ اختفتْ بين الأشجار، وهنا أيقن أنّه مُقبل على الموت، فأمره الشّباب المسلحون أن يسير بجوار المعتقلان الآخران داخل الزّراعات فبدأ يخطو بثباتٍ، وأهمّ أحداث حياته تظهر أمام عينه الواحدة تلوَ الأخرى؛ جدّته وهي تفارق الحياة، رقعتها وهو يخرجها من صندوقها، تخرّجه من الجامعة، سعادته وهو يبدأ حياته العملية في إشبيلية، لقاؤه الأوّل بزوجته وحبيبته، أصدقاؤه ورفقاء كفاحه، صوت

الأذان بمراكش، أغمات وقبرُ المعتمد، جلوسُه في المسجد والشيخ أنوار يلقّنه الشهادة، ثمّ أطفالُه وهو يقبّلهم ويضمّهم إلى صدره،....

فسمع طلقًا ناريًّا أصاب أوّلَ معتقلٍ ليسقط على الأرض؛ فخلع نظّارته ووضعَها في جيبه، ثمّ نظر إلى السماء وقال:

-أشهد أن لا إلهَ إلّا الله، وأشهد أنّ محمّدًا رسول الله.

فدوّت الطّلقة الثانية التي أودتْ بالمعتقل الثّاني، فوقف *بلاس* وأبقى نظره معلّقًا بالسّماء فانطلقت الطّلقة الثالثة لتخترق قلبَه الطّاهر، وفي نفس اللّحظة التي سقط فيها جسدُه صعدت فيها روحه لترتقي في السماوات ولتحيا عند ربّها راضية مرضية.

نحسبه عند الله عزّ وجلّ شهيدًا بين الشّهداء والصّديقين؛ حيًّا يُرزق.

ولئنْ مات بطلُ أمّة، فذكراه تبقى حيّةً في العقول والضّمائر الحرّة، وحبّه يدومُ راسخًا في القلوب، فكلّ مُناضلٍ دافع عن حريّة شعبه وكافح لأجل استرداد حقوقه المغتصبة يظلّ دومًا في الذّاكرة الإنسانيّة، والأهمّ في ذاكرة التّاريخ الحاضرة دومًا، والتي لا تنسى أبدًا.

وكلّ المجد والعزّة لفردوسنا الموجود، أندلسنا الحبية العزيزة الغالية الحرّة التي كافح أبناؤها لأجل حريّتها وإرجاعها إلى دين الأجداد، أولئك الأحرار الأبرار الذين لمّا دخلوها فاتحين أعلوا رايةَ الحقّ وصوتَه وعمّروا وأسّسوا وبنوا حضارةً أنارت العالمَ، حتّى انتزعها منهم مغتصبٌ، قهرَ أحفادهم وشرّدهم من بعد عزٍّ ومُلك..

والعزّةُ لله ولا غالب إلّا الله.

تمّ بحمد الله.